رواية

ادوار الخراط

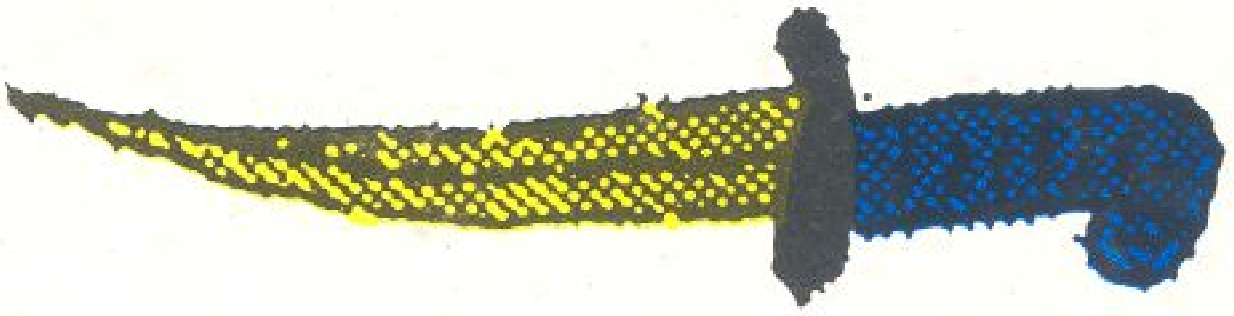

يقين العطش

محيى الدين اللباد

شرقيات

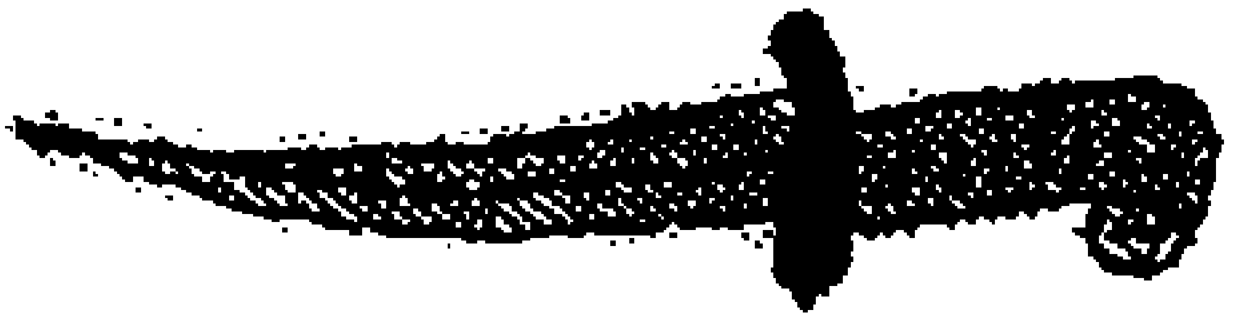

يقين العطش

يقين العطش

إدوار الخرّاط

الطبعة الأولى ١٩٩٦

© حقوق النشر محفوظة ١٩٩٦

دار شرقيات للنشر والتوزيع
٥ ش محمد صدقي، هدى شعراوي
رقم بريدي ١١١١١
باب اللوق، القاهرة
ت: ٣٩٠٢٩١٣ س. ت: ٣٦٩١٩٨

غلاف وإخراج: محيي الدين اللباد

رقم الإيداع ٩٦/٩٨٣٠
الترقيم الدولي ISBN 977 -283 - 024 -8

يقين العطش

ادوار الخراط

دار شرقيات للنشر والتوزيع

قد مشى رجالٌ باليقين على الماء
أما من مات على العطش
فهو أفضل منهم يقينا

أبو القاسم الجنيد

الفصل الأول

الرقصة التي لم تتم

كان حسه بالفقدان الذي لا يُعوَّض، عميقاً.

قال: الحياة ذهبت.

عادت إليه فجأة رائحة الفولكس واجن القديمة، من أولى سنوات السبعينيات. رائحة فيها أثارة من اللبن الطازج، والمنيّ، والبنزين، وعطر «لافام» الذي يعرفه من «رامة».

قال: رائحة الخصوبة. رائحة الدينامية، رائحة لن تعود أبداً.

قال: وليكن، لن تعود. ما الذي يعود قط؟ أية أهمية لهذا كله؟

كانت هي التي تقود الفولكس واجن، كالمعتاد، تصعد الربوة العريضة المسفلتة، بعد أن تركا «مينا هاوس» بكل بذخه التاريخي المتداعي نحو تدهور فيه أناقة الشيخوخة وكبرياء آخر القرن التاسع عشر، وقد صدمهما نور القمر الباهر المؤلم في سطوعه القاسي.

كانا قد أخذا كأساً في الردهة الفسيحة الخاوية بالليل، وكانت السلالم القديمة تصعد من وراء القبوة المخططة بالبني والبيج– على نمط مباني الجوامع–وكان هو يعرف طعنة الحبّ ومتعة صنع الحب في غرفة علوية وجانبيّة تطلّ نافذتها العريضة الحارّة على صحراء متموجة ويلمح منها قمة

الهرم الكبير المكسورة تحت سماءٍ داكنة الزرقة.

أوقفت «رامة» السيارة على مبعدة، قليلاً من الطريق المسفلت، على مسطّح مستو من الرمال الصلبة النقيّة.ونزلا. كانت قدماهاسمراوين، في حذائها الصغير، يضغط عليهما الجلد الثمين الناعم، فتبرز لهما نعومة مغوية، وهي تسير ببطء في الرمل، الجيبة القصيرة الواسعة تتموج فوق فخذيهاالكبيرتين.

قال:

- أُحِس طُوفانٍ الشوق والحب، أَحجزُ أمواجه العارمة التي تهدد بتدمير كل شيء لَو أنني أطلقتها.

قال:

- هل إذا دفنتُها في رمال نفسي المتحركة تموت؟ أم تزداد شراسةُ حياتها؟

عندما وقف تحت الحجَر الهائل، ونور القمر يسقط على أضلاع الأحجار الراسخة، ونظر إلى أعلى، رأى أن السماء نفسها قد أصبحت حجراً من هذه الأحجار الألفيّة التي جرّدها الزمن عن كل توشية، وأعطاها هذا اللون الرمادي الأبيض الذي هو لون السماء نفسها في هذه الليلة، هو لون نفسه الداخلية في توقهِ إلى الأنوثة المحبوسة إلى جانبه، بكل ما تحمل في طواياها من احتشادٍ وحنانٍ مكتوم.

الصخور الضخمة قد فقدت حوافّها بين النور المشعشَع وغواية الظل الشاحب، كأنها ذابت، وهي مع ذلك بكل صلابتها، هل أحجار السماء ناعمة ولايهزها شيء أبداً؟

حجَر الحب رازح وساطع الظلام.

بعد نصف الليل، في تلك الأيام لم يكن ثمّ حَرَس ولا عساكر بوليس ولا وجود حتى لأولئك الحمّارين والجمّالين والخيّالين الذين ينكّدون عليك بإلحاحهم الثقيل «وان باوند مستر» «إين ليفرمسيو»، كانت الصحراء الأبدية نقية،وكأنها مِلك لهما. كأنها هِبة لايمكن رفضها ولكن قبولها فوق طاقة الاحتمال.

كانت الأرض تحتهما صخرية، وقطع الجرانيت الصغيرة متناثرة عليها صغيرة وكبيرة ناتئة الحِواف أو مشطوفه نَعمتها السنوات، وجدا بقعة رملية ناعمة – جزيرة لا زَمن فيها وسط شظايا الزمن – وأحس دفء الرمل تحت قدميه.

ودون كلام، ودِون تمهيد كان ما يجري أمامه لايُصدّق، وله سطوة الحلم وخِفّته معا، لايناقش ولا محل لإنكاره.

لم تكن تتكلم، على غير عادتها، كانت صامتة.

كانت قد قالت له: عندي مشكلة معك. أنت لا تتكلم، لا تقول، ولاتفْضي بما يهجس في خاطرك، ومن ثَم يحدث انقطاع، ويأتي هذا التوتر، والإخفاق، وتظل أنت لاتقول. تظل مدةً طويلة حتى تفك، وتتكلم. كما ترى ينحلّ كل شيء، ويبدو طبيعيا وبسيطا ولا تعقيد فيه، وليس هناك وراءه أسرار أو مخبآت.

أما هي الآن، فقد كانت صامتة.

ولم يكن هناك انقطاع.

قالت له: هل تريد أن تراني في كل فستان؟

قال، بلهفة: نعم، نعم

كانت قد فتحت خزانة ثيابها. ذات المرايا الكثيرة المتكّسرة الأضلاع التي تبرق وتعكس ألف صورة لجسميهما، ورأى ثروة فساتينها المكّدسة المعلّقة، كلها أنيقة وغالية وجميلة الذوق، وضعت ملابسه القليلة بين فساتينها، وقمصانه التي نسي أحدها عند سفره من عندها، وقال: لكي أعود، وآخذه، وهذا فأل حسن. ولكنه لم يعد قط، لأنه لاشيء يعود قط.

خلعت رامة حذاءها أولاً وكما تفعل قبل أن تغوص في السرير، قبل الحب، نضت عنها بلوزتها الخفيفة، وفكّت مشبك السوتيان البيج الذي يحتضن نهديها وخرجت من الجيبة بساق عبلة ومسبوكة ولكن خفيفة الوقع، ثم بالساق الأخرى في لمح البصر، وانحنت بسرعة، فاذا جسمها الرقراق البضّ الممتلىء تحت القمر، وإذا هي تتموج - كأنها ليست على الأرض - بحركات بطيئة منسابة، ذراعاها المدملجتان مرفوعتان إلى حجر القمر الذي بدا كأنه يهبط إليها، قرصه الكبير مخضّب باحمرار أصهب مسكر، كأنه يستجيب لدعائها، ونهداها يهتزان بموسيقية ساجية تحلّل لها جسمه، ولم يعد ثم شيء من هذا العالم.

كان وجهها المدّور القمحيّ مرفوعاً إلى أعلى، شعرها الغزير الوَحْف الهنديّ قد انفكّت عراه وانسدل على ظهرها الشامخ اللدن، وكأنما تهبّ منه نفحات حرّيفة لاذعة ومسكرة طالما نشق نفْثها في حمياً شهوته.

كأنما وجهها كله عينان نجلاوان فسيحتان رقرقة الخضرة فيهما، في لبن القمر، تضرب قلبه كأمواج بحرٍ لاشاطئ له ولا قرار.

قال لها: هل تذكرين كيف كنت تخرجين بالليل، رأيتك تعبرين كوبري أبو العلا، وحدك. في الفولكس واجن القديمة، رامة، عمّ كنت

تبحثين؟ مَنْ كنت تطلبين؟

قالت له، وفي صوتها رنة من صرامةٍ خفيفة، وتصميم: لا، لا أذكر.

كانت الصقور بخطوطها الحادّة ترقص معها، والثعابينِ القائمة فِي تلوياتٍ هندسية متكررة ونمطية، طيور أبيس مفرودة الجناح تبحر في ثبج نيلٍ غير مرئي أشرعتها بيضاء، وأقواس كأنها كثبان الرمل التي لن تقوى الدهور على تغيير انحناءات سطوحها النمطية، ولم يكن في الحركات الهيروغليفية أدنى ابتذال، كانت جسدانيتّها كاملة وقداستها كاملة.

قال:

– هاهو ذا جسمها بكل انتصاباته وتهدلاته يعود إليّ في هذه الرؤيا تحت سفح السماء، رخيًا ومشدوداً، صلبا ولدنا، منساباً وكأنه ثابت إلى الأبد.

جسدك ريشة معْت العادلة بين مثقالي الجسد والروح.

لحم الجرانيت الوردي معبد قدسيّ ومحرْز مصون، يقف في وجه الشمس عند الشروق، ولا يأتيه المغيب.

الجعارين الحيّة تدبّ في طوايا السرّ المعجونة بشهوةٍ لا تنطفئ.

قال:

– مازال حضورك الغني الخصيب يضمّخ حياتي، وجهك الناعم أُحسه – مازلت– تحت شفتّي، كنوز جسمك التي تتجلّى لي الآن في هذا النور القاسي، مازلت أحيطها بين يدي، وأعركها، في عينيّ ضوء وجودك، وحده، كافياً، لاشيء آخر.

قال:

– ما أشد جفاف كلماتي – وأنا صامت – إذا ما تذكرتُ حرارة جسمك في حضني، ودفء نظرتك.

تذكرتُ؟

وهل أستطيع أن أنسى؟

هل زهر اللوتس اليانع في عينيها أم في وهم نور القمر؟

توابيت الملوك القدامى معمورة زاهرة ليس للموت سطوة على جسدك نهداك يتحديان الدثور في قلب خضرة الفيضان الذي لم يعد يأتي هل رقصتك إيزيس هذه الأيام تحرر النيل الأسير؟

وميضُ الشعاليل القديمة يترقرق على حنايا الجسد الصحراوي الناعم وربوات النبت الأثيث.

يابنت خونسو – بَشَنّس طارد الشياطين أم هو ملاذها ومثواها؟ ياعابرة الليل في صلابة مسيرتك التي لا تحول.

قالت له: ياحبيبي، أنا سعيدة لأنك جئت. سعيدة قبل ذلك لأنك توجَد، ولأنني التقيت بك.

ثم ابتعدت عنه، في خُطَى رقصها المجنّح. وعندئذ سمعها تناجي: خونسو، هل أنا جاريتك الوامقة أم سيدة أمجادك؟

انفتحت الأبواب الثقيلة، وانطلق منها الصقرُ الهائل الجناحين بريشه الذهبيّ الذي يلمع ويرتعد تحت هبّات نسيم الليل المضيء، وطار بعيداً يخترق تلك السماء التي كانت تلوح له مسدودة.

صعدت رامة على صخور الهرم الهائلة، قدماها الغضّتان لاتكادان تمسان خشونة الحجر الأبيض، وغاصت في تلك الفتحة التي صنعها رجال الخليفة المأمون.

كانت الشموع موقدة، صغيرة الشعلة لكنها ثابتة الوهج على جانبي المرقى الصعب وقد بدا كأنه يتسع أمام الباليه الفرديّ الذي تخطّه وتخطو على إيقاعاته المتنوعة، خافتة ومجلجلة، ودائما فرحة.

هل وصلت رامة في رقصتها إلى القاعة الملكية؟

قال إنها لم ترجع قط.

قال إن الرقصة لم تتم.

قال إنه انتظرها طول الليل، والليل لم ينقض بعد، الليل مظلم ليس فيه قمر.

قال إنه يموت، وهو عطشان، ولن يرتوي أبدا.

كانت هي التي تدير عجلة القيادة، بيد واحدة، ذراعها الممتلئة مرتكنة على النافذة، زادت بضاضتها بحركة الاستناد إلى حافة النافذة. رائحة الفولكس فاجن قد خفّت قليلا بانسكاب هواء الصبح السخن البليل إلى الداخل. أم هل كان ذلك في المساء، وكان اندفاع الهواء الآتي من النيل إلى يسارها، وهما متجهان، عبر شارع نوال، إلى ذلك الميدان الصغير الذي تتشعب عنه، في وسط العجوزة، عدة طرق مظللة الآن بأشجار البانسيانا المشتعلة بزهرها الأحمر وبنورمصابيح الشوارع المنصبّ على الأجمات الكثّة من الفروع الصلبة الأثيثة الورق.

هأنذا أنقض ماغزلتُ، وأنفي ما أثبتُّ.

لكنه يظل قائما، في وجه كل نقض، وكل نفي، لايزول.

بعد أن ملأت خزان السيارة بالبنزين من المحطة التي بعد مستشفى العجوزة وابتسم لها العامل ابتسامة عريضة، وهو يسلمها المفاتيح: «تفضلي ياست الكل» قالت له عندئذ:

- كل الناس تحب المحبِّين.

كان حبهما يانعاً غضا، لم يكد يعترف بنفسه.

كان قد طلب إليها أن توصله إلى شقة في العجوزة، لم يقل لها إنه يودع صديقه الرسام أحمد قنديل، فوجئت به يقول لها: «هنا، أنزل هنا من فضلك، أراك على خير»، ويأخذ يدها بحركة أشبه باندفاعة اختطاف صغيرة، فيقبِّلها بسرعة، في ذروة الشجر والليل، ويترك يدها فتسقط بصدمة جسدية خفيفة على وركها من تحت الفستان الحريري.

خطر له بعد ذلك بسنين أنها - ربما- صدمت، أُحبطت شيئاً ما، فلعلها كانت تنتظر منه- في أوائل أيام حبهما- أن يذهبا معا- ليس وحده- إلى شقة في العجوزة، إلى لقاء غرام لم يحدث عندئذ قط.

أم أنها كانت تنتظر ذلك، بالفعل؟

أكانت براءته- يعني سذاجته- عندئذ، مما لايخطر على بالها؟ هل كانت هذه البراءة هي التي أغوتها منه إلى حدٍ ما؟ لاداعي أن تقول البكارة، ومع ذلك فقد كانت بالفعل بكارة منه، بمعنى ما.

كان - وما زال- حبا غريبا، غير مفهوم.

حبا لم يكن ضروريا أن يناجيه بمثل مافعل رصيفه الهذلي القديم، أن

يزيده– هذا الحب – جوىً كلَّ ليلةٍ، ولا كان ضروريا أن يهتف بسلوة الأيام أن موعدها الحشر، فلا سلوى حتى عندئذ، ولاسكون الدهر للقلب الجياش المتقلب بالحب المكتوم الذي لايستنيم بعد مرور الأيام، وبعد أن ذهبت الحياة.

ذلك مما يدهشه قليلا.

عاد إليه مشهد عشق جاء بعد ذلك بكثير، كأنما تعويضا وتجريداً له من براءة، أو بكارة معينة، وكأنما كانت ممارسة العشق حنكة وصنعة، أليست هي كذلك دائما بالفعل، على غير مايخيل إليه من أنها إلهام، أو فطرة روحية، أو اشتياق الجسد إلى الفناء في الجسد الآخر، أليست تلك خيالات منه، وحمقاء قليلا؟

قالت له: أنت لاتتكلم أيضا. قل لي: أقوى؟ أبطأ؟ أكثر ضغطا؟ هل أنا قريبة منك أوثق مما تريد؟ أم أبعد قليلا. قل لي كيف، ماذا تريد، أنا طوعك.

قالت أنا أستمتع بمداعبتك. هل لديك مانع أن تداعبني أنت أيضا؟

كأنما في سؤالها نفسه دعابة، أو دعوة مغلقة بسخريةٍ طفيفة حسنة النية.

كم من خبرات. كم من رجال. كم من أهواء المعاشق وغرائب أوضاعها وتنويعات موسيقات الحب. كم؟ يظل يسأل– في غير ماضرورة الآن، وفي غير ماجدوى، وبلاقيمة حقيقية على أي حال– يطوف به أحيانا أن تلك أيضا من شطحات خيالاتها، وأن قصص وحكايات غرامياتها ليست إلا فانتازيات، لماذا كانت تحكيها له؟ أكان ذلك من براهين حبها الذي يختلف –في تصويرها– عن كل ماعرفت هي من قبل، أو تقريبا؟ أكان ذلك منحة ولاء، وذبيحة قربان، مثلا؟ أو كان استفزازا، على نحو ما،

وتأليبا وتهييجا لانفعال فوّار ليس بحاجة إلى تحفيز أو تأريث؟

حكت له إنها سافرت في بعثة حكومية إلى نيويورك لحصر آثارنا في المتروبول، ومتحف بروكلين، تمهيدا للمطالبة بإعادة مايثبت سرقته من البلد أو تهريبه، أو وصوله بطريق غير مشروع.

انتهى ذلك كله إلى لاشيء بالطبع، لم تستطع الوزارة أن تطالب الأمريكان بشيء.

قالت إن رئيس البعثة كان رجلا في السنّ التي تشارف فيها الرجولة على آخر اندفاعاتها. دون كيشوت، على نحوما، كهل يتشبث بما بقي له من فتوة. قالت إنه لاحقها طول الوقت برعايته الغزِلة قليلا،وقربه الجسديّ الذي يوشك أحيانا أن يكون مقتحما.

قالت إنها كانت في غرفتها في فندق تيودور الذي حجزته الوزارة للبعثة كلها، كانت حرارة نيويورك قابضة ورطبة، والتكييف يخبط جدار غرفة الفندق بصدمات خافتة رتيبة، لايبعث على راحة بقدر مايشيع الملل، عندما انفتح باب غرفتها، ودخل الرجل.

كان هو يعرف أنها تترك دائما باب غرفتها غير موصد، مادامت وحدها، حتى في نيوريوك، رغم كل تحذيرات وتوجيهات الأمان والتحوّط من اللصوص.

قالت له: لاتحاول. لن أقول لك اسمه. ليس هذا مهماً في النهاية.

قالت له: كان واضحاً منذ اللحظة الأولى إنه سكران. عند تلك الدرجة من السكر التي لايفقد فيها الواحد صوابه تماما. ولكنه لايتحكم في نوازعه، ولايستطيع أن يقاوم انطلاق المكبوت.

قالت: كنت في قميص نومي. لم يكن عندي وقت أضع فيه الروب عليّ.

نهضت نصف جالسة على السرير لكنه وصل إليها قبل أن تقوم، وجلس، بصوت هدّة طفيفة، بجوارها، ومد ذراعه يحيط كتفيها ولما يكد يجلس. رفعت يده برفق، دون أن تصدمه بحركة مفاجئة لاتعرف عقباها في حالته.

قال بصوت الضياع والإلحاح الذي يأتي في السكر: أريدك. أريدك يارامة. أموت فيك. أنت جننتني.

قالت له: كان من السُكْر في حالة تسمح له أن يمضي إلي النهاية في عملية اغتصاب، بالعنف، لو أنني قاومته بعنف. وقدّرت أن السكر أعطاه قوة جسدية لم أكن أملك معها أن أمنعه بمجرد القوة.

قالت له: أشكرك، صحيح. وأنا مقدرة لشعورك، ولكنني أنا لا أريدك، الآن على الأقل، دعنا نفترق على هذا، دعني أستوعب الموقف أولاً، طيب، ونترك الحكاية الآن، مؤقتا،من يدري ماذا سوف يحدث بعد ذلك.

كل شيء ممكن، أليس كذلك؟

قالت: حاولت أن أثنيه عن عزمه بالحجة، والعقل، والهداوة. كان واضحا انه لايسمع حتى.

كانت تحكي له القصة بالانجليزية، كما لو كان صعبا عليها أن تقولها باللغة التي يعرفان الحب بها، لغة الجسد، لغة طفولة الجسد.

قالت: اشتد عنفه قليلا، وازدادت حركته هوَجا، وتصميما في الوقت

نفسه، أوشك الموقف أن يصل إلى نقطة الحَرَج. وعندئذ سطع في ذهني مرة واحدة ماذا يجب أن أفعل. وقررت.

خلعت قميص نومي بحركة واحدة، عارية تماما، وتمددت على السرير، بلا حراك. قلت له بصوت بارد، محايد، لاهو معاد ولافيه أدنى رجاء أو تضرع :«هأنذي عارية تماما. تريدني؟ تريد أن تغتصبني؟ طيب، تفضل. لن أقاوم. لن أتحرك. سأنام، كما أنا، كالجثة، كالميتة وأتركك تفعل ماتريد. أهذا ماتريد؟ لن أقول كلمة. لن ينّد عني صوت، ولا حركة. ميتة أمامك. تفضل اذن.

قالت إنه أفاق عندئذ فجأة، وارتد عنها، وخرج من الغرفة مندفعا دون كلمة، دون أن ينظر اليها.

هل كانت على السرير الضيّق في الغرفة الضيقّة، محتشدةً بجسدها الفيّاض المتدفق بنسوية عارية وعارمة، متاحة، مهدرة، وصوت التكييف يتردد دون عقل، يصطفق، وأنوار نيوريوك تتخايل من بعيد، وراء الزجاج السميك.

قالت له: في الغد بدأته بالتحية، قلت له صباح الخير. قلت له:تعرف، أمس لم يحدث، لم يكن هناك أمس، سنظل صديقين، وزميلين في العمل، وننسى تماما كل ما حدث، لأنه لم يحدث، ببساطة، أليس كذلك؟

عندها أمس لم يحدث قط.

قال: أذلك كله من شطح خيالها؟ هل حدث فعلا؟

قال: أحقاً أمس لم يحدثِ؟ تلك المحبة التي عصفت بروحى وجسدي، تلك النشوات التي لاتصدّق، نوبات الشقاء والألم الذي لايوصف، متعات التحقق والسكر بخمرِ إلهيةِ، لم تحدث؟

قال: ونحن، هل نبقى صديقين فقط؟ أممكن هذا؟ حتى بعد انقضاء العمر؟

قال: أليس هذا ما رفضته دائما، وأرفضه؟

فهل هو كل مايبقى؟

أم هل بقي، حتى؟

كانا يفطران في إحدى رحلاتهما للتفتيش في الاسكندرية، كان مطعم «الأتيريتش كوتاج» القديم، قبل تجديده، فسيحا وخاويا في الشتاء، لوحات أحمد صبري الزيتية بمسطحاتها الزرقاء الخضراء الشاسعة وضربات الفرشاة الحمراء الداكنة توحي بعالم آخر، صرخات النورس تأتي فجأة من النافذة المفتوحة على هواء صباح منعش مشبع بأشعة شمس يانعة الدفء، محملا بملح البحر وطعم اليود تتفتح له حنايا الصدر.

قالت: هل أفطرنا معا، أول مرة، في سيسيل؟ هل نزلنا سلالم دائرية ووصلنا إلى ذلك المطعم الذي فيه ماكنات كفء فعالة لها وشيش، وأوان زجاجية ضخمة مستديرة سميكة الجدران تتقلب فيها عصائر ملونة، البرتقال والليمون والسحلب الأبيض الكثيف، لها بقبقة وفقاقيع بفعل تيارات داخلية تولدها أنابيب كهربية خفية.

أما هو فقد قال: إن السلالم التحتية المفروشة بالسجاد الأحمر كانت تفضي إلى قبو هادئ معتم الضوء قليلا، على جدرانه البيضاء الناصعة نحت بارز الموتيفات، ومشاهد يونانية قديمة باللون الأزرق الخفيف، وكانت الستائر شفافة ومنسدلة الطيّات تتخايل وراءها نوافذ حديدية طويلة تطل على مايشبه المنوّر أو الممر الضيق فيه صفائح - أو براميل - مستديرة كبيرة مغلقة.

لم يتفقا على شيء. كانت الذاكرة مراوغة وخوانة. ولم يعرف إلا فيما بعد أن أول لقاء بينهما كان في شارع جانبي اسمه شارع ابن الفارض، سلطان العاشقين الذي مات جوى إذ لم يطق الحياة بعد أن تجرعت حبيبته الطفلة تقريبا سمّ الراهب الغريب، بدت له ميّتة، خارقة الجمال في موتها،لكنه فقدها إلى الأبد، وعندما تيقظت من سباتها كان قد قتل نفسه بخنجره، فماتت هذه المرة، بين ذراعيه، أهذا ما تجري به القصة أم أنه كان آخر إمام للعاشقين؟

قالت له: لاتغضب. سأسافر الآن، غصباً عني والنبي.حسن جدا أننا استطعنا أن نلتقي. وحياتك انت كان عندي مأمورية عاجلة أجلتها ساعتين مخصوص من أجلك.

في الفترة الأخيرة كانت نادراً ماتنطلق معه —في لحظات التلاقي الحميم—على سجيتها، تترك العنان لجسمها ان تهزه شعشعات الحب وآلام متعته الخارقة، كما كان يحدث قديما. لم تعد تنهج، أو تلهث من الشهوة والتطلب والتحقق، تظل صامتة تتركه يفعل ما يشاء، تسلم له جسمها، كأنما هي بعيدة، تتفرج، لا ترفض، لاتنطوي على نفسها، هي معه، تشاركه، لكن دون أن تتقد ولَهاً جسمانيا، ثم فجأة يحسها تشتعل، يخيل إليه أن ذلك يجيء على نحو آليّ، كأنما لاتملك منه شيئا.

قال: لا، هذا ظلم مني كالمعتاد. ليس هذا صحيحاً.

ثم قال: الارتواء الكامل هو يقين العطش.

قال: في تلك الأيام الاخيرة كانت تسلك سلوك العشيقة الصديقة الزوجة تقريبا. قال: طبعا، هذا من طبائع الأشياء، قال: لا، أما أنا فلا أعنو لطبائع الأشياء. أريد ما أعرف أنه مستحيل، البكارة كل مرة، الجدة، المفاجأة

هبَة لفحة الحب الذي كأنما يكتشف ذاته على غير انتظار، اندفاعة العناق على شوقٍ من اللهفة كأنه يأتي بعد يأس الفراق.

قالت له: أنت طاغيةٌ ياحبيبي.

قال لنفسه: ياسلام يا أخي!

كانت معه، حقا، على سجيتها، دون إغواء، لا تتصدى له لكنها لاتصده. كان إذ يستشف منها هذه الأُلفة- كأنها أُلفة الزوجية- ترين عليه كآبة جسدية ويرتد إلى هموم قديمة، قناع الاعتيادِ له ألف وجه، كلها غير شائقة.

كان يحدثها من التليفون العمومي، في شارع ابن الفارض.

كان الصباح هادئا، والسماء فيها سحب بيضاء قليلة، استيقظ مبكرا، ونزل فقط ليحدثها في التليفون. لماذا لم يذهب إليها مباشرة؟ كان يعرف أنها سترحب به، أم هل كان يعرف؟

الشارع الذي يرتفع قليلا بانتظام فوق ربوة متصاعدة نحو القلعة، عريض خاوٍ، هل كان ذلك صباح الجمعة؟

كان الحديث متوترا، متقطعا.

تركها بالأمس، بعد منتصف الليل، قالت له: اذهب الآن، أو انزل عند الفجر، قبل الساعة الثامنة، تلاميذي الذين أعطيهم دروس اليونانية القديمة يأتون إليّ في تمام الثامنة صباحا.

أحسّ إن خطأ وإن صوابا، لايعرف، أنه- بشكلٍ ما- غير مرغوب فيه.

عاد إلى إنْ استراحة الآثار تحت سفح القلعة، بالليل، ولم يعرف أن ينام

حقا.

قال لها في التليفون: «طيبٌ نترك لأنفسنا إذن فرصة، لايرى أحدنا الآخر يومين ثلاثة لغاية ما نروق، ونفكر بهدوء». ردت بخفوت وكأنما بحسم: «ويومين ثلاثة ليه؟ خلّها على طول» هبط قلبه، ولكنه قال بصوت يرجو أن يكون باردا وغير متورط: «يعني إيه؟» قالت، كأنما تستدرك على الفور: «أعمل لك إيه؟إذا كنت أنا طول الليل، عمليا، تحتك.. يعني معك.. وتقوللي الآن يومين ثلاثة، نفكّر..» قال:« أنا في الطريق إليك الآن» قالت: «هذا هو..لماذا لم تأت من الصبح؟»

كانت الساعة التاسعة والنصف. لاتفارقه نوستالجيا الطريق إلى شارع الشعرى اليمانية، والبيت القديم الجميل الذي عرف فيه سعادة خرافية لاتصدق. الطريق، محطة بعد محطة، الذي رسمه حب لايضارع.

قال لنفسه: أنا الذي طلبتها. أنا أطلبها، هل كنت مخطئا؟ أم أن ذلك هو بالضبط دور الرجل، أن يطلب، ويطارد، ويقتفي الآثار؟ أفي ذلك طراد وقنيصة؟ أليست هنا ندّية كاملة؟ هل كانت، في الحقيقة، تقول لي «لا» تحت قناع ما، أم كانت تدعوني للمبادرة؟ أكان في ذلك امتهان لكرامته- كرجل- واستهانة بها إلى حد ما؟ «اذهب الآن..أو انزل مبكرا، حسبما تريد..» هل في هذا سخرية قليلة من رجولته؟ أم دعابة استفزاز لهذه الرجولة نفسها؟ أم هي فعلا وقوف منها على قدم المساواة تلك التي يريدها منها؟ أفي الحب كرامة، أو امتهان؟ قال:نعم، نعم، فيه طبعا، فيه كل شيء.

أي فرق بين ندائها، وإلحاحها، ولهفتها، زمان، في الأيام القديمة، وبين هذا الرفض الرقيق المهذّب، أولاً، كأنه ليس صداً ولا امتناعاً، ثم القبول الصامت، بنوع من الكرم والتسليم؟أكان ذلك، حقا، دون حماسة؟

فعل الحب الصامت، ليس فيه كلمة إعزازٍ واحدة، ليس فيه صوت المحبة، ليس فيه حركة حنان.

قال: وتلومني أنا على صمتي عن الكلامِ، أحيانا، بينما هي تلوذ بصمت كامل بإزاء صرختي المشعوفة الملهوجة، كأنها لم تسمع إذن هتفة الجسم المتلوي شغفاً، كأن كل ما أقول، وأفعل، شيء خارجيّ عنها. كأنما تضع بنفسها، بيدها، عمداً، حاجزا حجريا ثقيلا — كأنه الهرم الكبير- محكم الأحجار.

قال: أليست هذه الصرخة متصلة، حتى الآن، هل فعلتُ شيئا إلا أنني صرخت فهل سمعتني، حقا؟ هل سمعني — حقا- أحد؟

قال : لعلني أفهم. لعلها لاتريد أن تتورط في العذاب الذي لاشأن لها به، في النهاية، الذي لن يؤدي إلى شيء. الذي هو شأني أنا وحدي.. طبعا، ليست فى ذلك مخطئة، مازالت الغربة — والغرابة- قائمة.

قال: مازلت غير مفهوم، وغريبا جدا، كما كنت أُحس أيام صباي الأولى، ومراهقتي المضنية.

قال: ألا يحس ذلك كل أحد؟ ما الغرابة فيه؟

قال: طبعا عندها حق. ألست أيضا أجهد في أن أضع بيني وبين كل ذلك الألم حاجزا مصمتا لا أريد أن أنفذ إلى ماوراءه، لأنني لا أطيق أن أنظر إليه الآن، ولو من بعيد، لأن الألم ليس رومانتيكيا ليست له صفات روحية، ولا هو يسمو بالإنسانِ، كما يقال، ولا يحفز على شيء، إلا الحبوط. بل هو ألم، فقط. ألم خامٌ نيئ وقبيح. لابد من نسيانه، أو استيعابه، أو تحمُّله بصمت، من غير صرخات طفلية أو شبه شاعرية.

حكت له حكاية من ماضٍ لم يعرفها فيه – قال: «لا أعرفها في ذلك الماضي، لا أعرفها في مستقبل قد جاء». عندما جاءتها نوبة الصمت الطويلة، والانسحاب، ورفض العالم، ورقدت على الصوفا في غرفتها المسدلة الستائر، خافتة الأنوار، لاتكاد تأكل شيئا، لاتكاد تتكلم بالفعل، لاتكاد تقوم لأي شأن من شؤون الحياة.

قالت: كان البيت خاويا. حسن كان في المعتقل، وكنت وحدي أواجه العالم، من غير سلاح، الولد والبنت يذهبان إلى المدرسة، ويعودان،دون أن أحس بهما تقريبا. نعيمة كانت تعد لهما ما يطلبان أو يحتاجان.

قالت: في ذات ليلة، بعد أن ناموا كلهم، فعلت مالم أكن أتخيل قط أنه سيحدث، طلبت الدكتور شريف ابن عمي بالتليفون، وسألت عنه، كيف أنت؟ ماذا تفعل؟ ثم أقفلت السكة.

حكت له: قال لي شريف بعد ذلك إن صوتي كان غريباً كأنه يأتي من فراغ، هكذا قال، ليس فيه نأمة حرارة، كأنه تسجيل.

قالت: ذهبت إلى الحمّام، خلعت ملابسي، رقدت في البانيو، لم أفتح الماء. أخذت شفرة من باكو الأمواس الذي تركه حسن في صندوق الأجزخانة البيتي الصغيرة، فوق البانيو. كان حد الموسى على يدي باردا، ليس حادا، ليس فيه أي ألم. كأنه لم يقطع شيئا.

كانت – وهي تحكي –تتلمس عنقها، وتتحسس جيدها المنبسط بأصابعها المفرودة، وبحركتها المألوفة تنزل إلى جانب صدرها تدعكه برفق، دون أن تحس ماتفعل.

قالت: أخذتُ أرقب قطرات الدم تسقط ببطء على أرضيّة البانيو، وعلى

جسمي، قطرة، قطرة، مدورة، داكنة، صوتها إذ ترتطم بالبانيو يختلف عن صوتها إذ تسقط على جسمي. عندما استيقظت وجدت نفسي على السرير، في قميص نوم واسع ونظيف من الدولاب. كان نور الصبح الحارّ يلوح من الصالة،بينما كانت غرفة النوم معتمة ومزدحمة بالأثاث ولها رائحة طيبة من صبغة اليود والكولونيا ورائحة أخرى كان لها طعم الأسبرين، ويدي مرمية إلى جانبي، مربوطة بالشاش الأبيض، وكأنها مخدرة ولكنها تؤلم ذلك الألم الكامن المستتر وراء التخدير قال لي شريف: لحقتك في آخر لحظة. صدمني صوتك في التليفون قلت فيه حاجة غريبة. كان الأولاد نائمين، وفتحت لي نعيمة على الفور. ولحسن الحظ جاءت عليّة من العيادة على الفور، ومعها زجاجة الدم من الثلاجة، وفصيلة B كمان يا ستي. لم يحس أحد تقريبا. كنت نائمةً ومطواعة وهادئة جدا في الغيبوبة، وحبّوبة كالمعتاد.

ثم صمتت فجأة، كأنما، سقط أذان الديك على شهر زاد، على غير انتظار، وابتعدت عنه، قليلا، وهي مع ذلك لصقه، وعيناها في أفقٍ داخلي شاسع وموحش.

عندما انتهت من حكايتها، أخذ يدها برفق، أعطتها له كأنما دون أن تحس، وقلبها على ناحية الكف الرخصة، وتلمس الندبة البيضاء الرقيقة لاتكاد تستبين في بضاضة رسغها السمراء اللدنة، حداً رفيعا وصغيرا، رفعها إلى فمه، قبلها بصمت، وبطء، وطويلا، يريد أن يبرئها، يريد أن يمحو ما حدث، يلغيه، يحذفه، لم يحدث قط.

طوقت عنقه بذراعها الأخرى، وضمت رأسه، بهدوء، إلى صدرها الوافرالوثير.

قال: ألم تكن خطيئتي الأساسية أنني لم يغب عني شهودُ ذاتي في الحب؟ أنني لم أنس اسمي قط؟

وكأنما قال: غير صحيح أيضا. غبتُ عني، فعرفتُ الحضور، لأنها لم تغبِ عني، قط. أين يمكن أن تغيب، وذكرى قبلتها في فمي، متجسدة، محسوسة، مازالت، لاتريم.

«فما حالَ في سرّي لغيرك خاطري، ولاقال إلاّ في هواك لساني»

قال لها: أتذكرين يوم سافرت معك إلى الاسكندرية؟ قلتِ لي يومها إنك مسافرة في ديزل الساعة اثنين. سألتك هل حجزت؟ ما رقمَ مقعدك؟ وعندما جئت وجدتني في المقعد المجاور لك– أكنتَ قد حدست ما غايتي من سؤالي؟– وشربنا بيرة، ودار رأسي قليلا من الشرب ومن حضورك، وأنا أنظر من زجاج نافذة الديزل السميك. من داخل واحة التكييف، من داخل نشوة خفيفة، وأرى الغيطان والأشجار والترع التي وجدتها كأنها مرسومة بالباستيل الجاف، كأنها فقدت نضارتها ورفيف خضرتها اليانعة، ولم تبق إلاصورة تعاستها وبلاويها، من [illegible] إلى المبيد، من البلهارسيا إلى موتِ طيور أبيس، من [illegible]

قال لها: عندما نزلت في سيدى جابر، سلمت علي وبقيت أنا لغاية محطة مصر، لم تعطني عنوانا ولا رقم تليفون، ولاشيء، كأنها قطيعة قصيرة، تستسلف انقطاعات، وفراقات كثيرة.

قالت وهي تنظر إليه بما يشبه القسوة: لا. لا أتذكر.

قالت: أنا سعيدة لأنك جئت.

ثم أخذت يده لتقبّلها بحركتها القديمة القديمة، غاية الهدوء، وغاية الحنان. هل كان قد نسي هذه الإيماءة منها التي يهبط لها قلبه ويضطرب، كل مرة؟

قال: لم أنس، لحظةً واحدة، عينيك.

قالت: لحسن الحظ، عيناي باقيتان. مهما تغيرت أنا، مهما تقلبت بي الأيام.

قال: أنت تتحدين الزمن

قالت: الله يخلّيك. هذا لأنك تحبني. الأشياء الكبيرة هي التي أتحداها. أما الزمن؟ منْ يتحداه.

قال: أنتِ.. أما أنا فإنني أذهب.

قالت: أنتَ تبقى كما أنت، على راحتك. مهما حدث.

ثم قالت له: تعالَ. تعال إلى حضني.

فكّت الشريط الأزرق الرفيع الذي كان يربط شعرها الغزير، أيامها كانت ترسله، فانسدل على كتفيها المدملجتين السمراوين، أمواجه السوداء عبقة بحرافتها، كانت فيه خيوط رمادية بيضاء وقليلة غارقة في غمار تهدّلات الشعر الجميل.

قالت له: أريدك أن تَقْبلَني، كماأنا، عندما أشيخ، وأشيب، ويصبح شعري كتّانة بيضاء.

قال: أنت جنونيّة.

ثم قال: أقْبلك وأُقبّلك، في كل أحوالك.

قالت كأنها ترد مجاملة، كأنها لاتتقبل عبادة: الله يخليك.

فهل وقعت القطيعة؟ وانطوت الصفحة؟

ما أظن انطواءها واقعاً أبدا.

قالت له: لاتنسَ أن الجنس مع ساحرةٍ أمرٌ لا تؤمن عواقبه.

قال: تقولين لي أنا؟ اسأليني، أنا، أدلك.

ثم قال:هذا الحب من جنس القتلة. دؤوب، مصمم، لامع العينين، صلب لايرجع عن نيته. فإذا كان قد انتوى أن يدّمر، ألم يقض مني لبانته؟ خيط الزمن المتصل هو الجحيم. كَسْره و عد مراوغ بالجنة. التي لاتأتي أبدا.لأنها سطعت ثم انطفأت. لكنه لاينكسر.

انتصبت مئذنة جامع سنجر الجاولي، من أمام نافذتها العالية، ترتفع قاعدة المنارة الحجرية المربعة، في شهوة الخلود والتوحّد، شبابيكها ذات عقود مختلفة المنازع جياشة الأشواق، يمسد شعرها المتهدل بيديه ويحس تدوير نهدها على صدره حيرة متصلة وأسئلة لانهاية لها، ضوء النهار يخايل العتمة الرقيقة الغضة لايجلو خضرتها الهادئة المترقرقة، بابها معقود، علام ينفتح؟ إلى مثوى فناء أخير أم هو بقاء لادثور فيه؟ تسلم المنارة تربيع صدرها المليء إلى مثمنها المتصاعد، هضيم الخصر، يخترق السماء، وتخترقه، عليه خوذته المضلعة المهاجمة المستندة إلى ترسها المكين، وتحتها – معها – الإيوانات والخلوات المنادر والمقاصير ونوافذ الحجر المفرغ، بزخارفها الموشّاة كالدانتيللا في جسد دافئ بض من الخشب الأسمر، أفاريز مفوّفة هفهافة تحت القبّتين الصلبتين لدنتي اللحم، تصبو يداه إذ تحيطان الآن باستدارتهما أن تمسكا باللانهائية.

في المساء، قبل أن يسافر في مهمة طويلة للإقامة في الأقصر وتفقّد مقابر البّر الغربي، قالت له: لاأملك أن أتحلل من وعد قطعته على نفسي من زمن، قبل أن تجيء. كنت وعدت مصطفى الحجار أن أتعشى معه الليلة،

هل أحتاج أن أشرح لك مثل هذا الموقف؟ لا أستطيع أن أتصل به وأعتذر، لأنه سيأتي من السفر مخصوص. أنا طبعا كما قد تتصور لاأهجرك الليلة ولا حاجة. لاتذهب بك هواجسك كل مذهب، كعادتك.

ضحك في غير اقتناع، وقضى ساعات تعيسة تحت نباتات الظل الليليّة، وضوء المساء يتسلل من المشربية إذ تتبدى من خرومها الدقيقة نجوم باهتة لامعنى لها. يحاول أن يستمع إلى موسيقى دينية من مونتقردي، فلا يجد في نفسه اهتزازاً ولا استجابة، وحتى دقات موسيقى الجاز التي جرّبها بعد ذلك بدت له مملة رتيبة الصخب لا تغمر قلقا ولا تبددمضضا. كانت عقودها النحاسية والكهرمان وحلقانها المدورة الكبيرة وأساورها المعدنية والفضية السميكة - كأنها خلاخيل- ملقاة كلها بإهمال مدروس على الشكمجيّة المنقوشة بنباتات وتفريعات داكنة وقديمة، تبدو له فجأة لاحياة فيها، هي التي كانت تسري فيها من قبل أنفاس قوية، حية، من حرارة نسويتّهاوحسّيتها.

وعندما جاءت بعد منتصف الليل، متفتحة متضرجة منفعلة من الأكل والجو الفخم والنبيذ المنتقي بخبرة، في مطعم لاكافتيير الخاص الغالي الذي لايتعشى فيه إلا الصفوة، كأنهم من أصدقاء «الشيف» الفرنسي المدور الوجه الذي يفيض بالترحيب لزبائنه المختارين بعناية، من نزلاء الميريديان أو من ضيوفه على السواء.

فهل كانت كآبته ليلتها، وغضبه، وتوتره، هو سر فشل تلك الليلة الأخيرة؟ أم كان ذلك منه - على نحو لايقصده بل لعله لم يدركه إلا متأخرا جدا- على سبيل العقاب الذي ينزله بها- وبنفسه أساساً- لأنه سمح لها أن تتركه ليلتها، أيا كان السبب؟

استيقظ من نومته القلقة، كأنه مخدر - نصف يقظ ونصف غافٍ

لايملك في غفوته شيئا من أمر نفسه، يبحر في موج الليل المضطرب على قاربٍ مهتز لايعرف كيف يوجه دفته.

كان عليه أن يسافر بعد ساعة أو نحوها، وكانت طقوس اليقظة في الفجر ملهوجة وعلى غير طواعية في الوقت نفسه. قالت له: صحّ النوم. وجدها يقظة منذ فترة، كما هو واضح، تفعل أشياء في البيت. وكأنما تأخذ عليه أنه نام، وهجرها، هو هذه المرة، لاذ بنومه وأوى إليه. هل عرفت – هي – وحشته في غيابها؟ فانه الآن هو الذى يغيب عنها، عن غير عمد أم عن قصد مكنون؟ – فلعلها تعرف وحشتها في غيابه، أو شيئا من هذا القبيل.

جاء خليل عبد الشهيد يزورها في شقتها في شارع الشعرى اليمانية، على غير ميعاد، فاجأهما في تبذلهما المعتاد إذ يكونان معا، وكانت هذه الزيارات المفاجئة شيئا لايكاد يحدث معها، لأنها لابد أن تنظم وقتها، وترتّب أعمالها، وتنسق بين رجالها أيضا.

لكنه جاء مستنداً ربما إلى تاريخ طويل منذ ١٩٥٩، عندما قامت هي بدور أساسيّ في تهريب خليل عبد الشهيد من مصر، حتى لايقع في قبضة رجال عبد الناصر في تلك الليلة المشهودة ليلة ٣١ ديسمبر ١٩٥٨، مع الآلاف الذين وقعوا في أسره عندئذ.

كانت قد لبست الملاية اللفّ، وحملته على أن يرتدي زي الصيادين في بور سعيد، الصديرى اللميع المخطّط بأزراره الكثيرة المدوّرة الصغيرة المتلاحقة، والسروال الواسع، وجاكتة كاكي من مخلفّات الأورنس الإنجليزي، وبذلك استطاع أن يخرج في مركب صيد إلى ميناء صيدا، نزل منه إلى القلعة الأثرية، ومن بيروت بالطائرة إلى باريس، حيث طَلَب، ومنح، حق اللجوء السياسي، كانت معه أوراقه وجواز سفره ودولاراته القليلة

الضرورية، واشتغل في باريس، وألف الكتب في الثناء على جمال عبد الناصر ونظامه العسكري الوطني التقدمي.

قال: هل لذلك أعطى نفسه الحق في أن يخبط على بابها دون ميعاد، حينما كانت في مباذلها نصف عارية، وكنت معها، أشارت إليّ فخطفت ملابسي الملقاة في فوضاها على الأرض، ودخلت غرفة النوم، ونسيت ساعتي على مسند الصوفا العتيدة، تحت صورة المولد بألوانها الحمراء المشرقة الحافلة.

قال لها: هل تصدقين ما حدث؟ لم اكن أتصور! غفوت بالفعل، وأنا أسمع من وراء باب غرفة النوم المغلق عليّ، همهمة الصوت المتراوح في حديثكما، صوته الأخنّ المرتفع قليلا وصوتك الناعم المهدهد الفياض بالأنوثة. كان الديك الأحمر فوقي فاتحا منقاره بلا صوت. أفقت على صوت باب الشقة يصطفق مغلقا. هل سمعتك تقولين: إلى اللقاء إذن، خلنا على اتصال طبعا، ضروري إلى اللقاء.

قالت له: أين ساعتك؟

قال: ياخبر!

قالت: وضعتها بسرعة تحت مرتبة الصوفا. لكنه كان قد رآها. ولم يقل شيئا.

قالت: صحّ النوم!

هل كان في صوتها أثارة، هبوة، من عتبٍ أو مرارة وهي تعطيه ساعته المنسية. قالت له: نعم. لم يسأل، ولم يكن في نيتي على أي حال أن أشرح أو أبرر شيئا.

كابوس صباحيّ تيقّظ عليه، وهو يتفصد عرقا رطبا ولزجا. ياه!، ألم يبرأ بعد من هذا التوتر الجسميّ الذي يرفضّ له عرقه كلما ألمّت به محنة روحية؟

قال لنفسه. أم هل كان الكابوس هو الذي يقول:

- ما صورتي الآن عندها؟ ماصورتي دائما عندها؟ كيف رأتني، زمان، كيف تراني الآن؟ تلك النظرة الإكلينيكية المتفحصة الصاحية، سطح ثلج مخضرّ صقيل، تتأمله بصمت. ضعيفا متخاذلا؟ كاذبا ومخادعا؟ غادراً نَكَث بعهده وولّى عنها؟ قبل منها مالا يقبله الرجال في بلادنا، البطاركة الذين لايفهمون من المرأة إلا خضوعها المطلق وولاءها المطلق؟

أم هل أغوتها صورته القديمة: الهادئ في عزّ الأزمات، المتمكّن، رئيسها في مصلحة الآثار ثم في هيئة الآثار، صاحب أياد في أنه دفعها إلى الأمام- ولو قليلا- في حياتها العملية، كما كانت تدأب أن تقول إذ تعرّفه لأصدقائها، زمان؟ المعلّم الذي لعله أعطاها دروساً أو إيضاحات للعناصر الرئيسية- تجاوزتها بعد ذلك بأشواط - في أوليات الترميم وعلاج الآثار الدقيقة المعطوبة واكتشاف الشروخ المهددة بالخطر أو الدقيقة المحتملة بلا ضرر حقيقي أو منظور، على السواء في معمار الأعمدة والهياكل؟ صورة الصادق الصدوق الذي لايتوانى عن الاعتراف بالخطأ، على الملأ، دون تردد، حتى يتسنى تداركه؟ صورة الواثق، الصامت حتى اذا انضوت إلى رئيس الهيئة في حملته الخفيفة عليه، لايتبس هو بحرف حتى لايناقضها، ومن ثم لا يحرجها، رعايةً منه لها وحيطة عليها، بينما لايتورع أن يقارع رئيس الهيئة الحجة بالحجة، بوضوح وتصميم؟

أية صورة بقيت له الآن عندها؟

هل بقيت له أيةُ صورة؟

في ذلك الصباح، وحتى يطرد شبح الكابوس، راح يصغي إلى آلبيوني: كونشيرتو للترومبيت والأوركسترا، ولكن السؤال لم يتوقف، وإن كان قد تراجع قليلا إلى كمونٍ مؤقت، يعرف أنه يظل متربصا به، يترصده، مثل مسخ حيواني لاتغمض عيناه.

الفصل الثاني

دخان معلق في الهواء

قالت له : كنت قد جئتُ من سدْمنت الجبل، فاكر، المهمة التي أوفدتني أنت إليها، من أسبوع، قضيتَ اللَيل بطوله في قطار الصعيد، كما تعرف، نصف نائمة نصف مكَومة على مقعد الدرجة الثانية.. لاتسمح اللوائح بأكثر منها حسب استمارات السفر المعمول بها.

أومأ إليها دون أن يتكلم.

قالت: في أول ضوء للنهار، كأنتا في عملية عسكرية، كان كل شيء على أهبة الاستعداد. كانت التوابيت الخشبية الثلاثة راقدة، في المقبرة، تحت ركام الهدد، واضح أنها منتهكة، ومنسيّة، هُجرت على عجل.

عندما أزاح العمال الصعايدة أكوام التراب والحجارة عن أول تابوت – تحت توجيهات المعلم سيد زهران، تعرفه حضرتك، أليس كذلك– كان واضحا أن المومياء قد نهبت، اختفي كل أثر لها، لكن النقوش الداخلية كانت مازالت نضرة الألوان، ما أجملها. وجدنا ثلاثة أربعة تماثيل خشبية صغيرة، أهملها اللصوص القدامى، لاقيمة لها عندهم، طبعا.

كان ينظر إليها فقط، دون أن يتكلم، أخذ سمته، كرئيس، ومع أنهما كانا وحدهما، كانت تدعوه «حضرتك» وتجيد الدور بل تندمج فيه حتى لتكاد هي نفسها أن تنسى أنها تُخفي أسرار لياليهما معا.

قال: أعرفتِ من أية أسرة؟

قالت، بكل جد وتقريرية: نعم يافندم. بداية الأسرة الثانية عشرة، بعد سقوط الدولة القديمة طبعا، يعني بعد انتهاء عصر الأهرامات، كما تعرف.

قال: اكتبي لي ميزانية تقريبية، وسأكتب المذكرة لاعتماد المبلغ اللازم لاستكمال الحفائر. هل تريدين أن تواصلي الإشراف على العملية؟

قالت بلهفة وسرعة: لا، اعمل معروفْ،. كفاية علينا جداً الكشف. وعلى ناس المنطقة الوسطى أن يكملوا الشغل.

ثم استدركت: ألا ترى هذا أيضا، حضرتك؟

رأى في عينيها الخضراوين الواسعتين تألقاً حيّره تحديدهُ قليلا، هل فيه شيء من سخرية خفيفة، يعني، على سبيل المداعبة والمعرفة المكنونة بأن طلبها مجاب على أي حال، أم أن فيه توقّد الرجاء حقا؟

قال: عندما تُعلّق كل شيء- أو الكثير جدا- على شخص آخر، على إنسان آخر، على امرأة أو رجل، في هذا النمط الغريب الحميم من علاقات الأنوثة والذكورة، عندئذ تتعرض للأذى والإحباط، لامفر، عندئذ. لامناعة لك، لأن هذا الآخر - مهما كان قريبا إليك، مهما خيل إليك أن الفواصل بينك وبينه قد سقطت، مهما عرفت معه نعمة أن تتخفف من وحدتك الأساسية، مهما كان كريما، - يظل مع ذلك آخر.

أي يظل ضعيفا، وغير مكتمل.

غير مستجيب، وربما غير عارف.

أليس مأثورا ومجرّبا أننا نعيش في تلك الجزر الإنسانية الضيقة المشهورة

التي تكلم عنها – ومنها – الكثيرون؟

ماذا نعرف نحن عن أقرب الناس إلينا؟ في صميمهم أعني؟ ماذا نعرف عن الألم، والوحشة، والشوق، والغضب، والنفور، والبغضاء التي يحسها المحبوب– في وقت ما– ونحدسها عنده، ولكن لانعرفها – يعني نعرفها – أبداً، معرفة حقيقية؟

هل نجرؤ – أو حتى نعرف كيف – أن نسقط هذا القناع، هذه الدروع، هذا السور؟

قال: أما كفاك هذا الكلام الرثّ القديم الذي شبع تكراراً والذي لاتني تعيد فيه وتزيد، مهما كان صحيحا، وجارح الصحة؟

قال: الكلام ليس عليه جمرك.

ولا الحلم.

في ١٥ فبراير ١٩٩٤، من نافذة مكتبه في «الخليفة» وقد أصبح عمله الآن استشاريا بحتا، بعد سنّ المعاش بكثير، رأى أن قلعة صلاح الدين قد اقتطعت من بين خاصرتيها، وحلّقت في الفضاء، منزوعةً من جذورها، سبحت في سحاب ملوث بالزرقة الكامدة، كان طيرانها فوق القاهرة غير مرئي لأحدٍ غيره، وهو ينظر إليها دون دهشة، بل بشيء من الملل. ورأى في مكانٍ انتزاعها من الأرض أثداءً نسوية منطرحة على جسد التراب المبلّل قليلا، مبتورة ولكن بضّة باللبن المحجوز الذي لاينسكب. قال قاهرتي أحاطت بيديها عمودي المنتصب تحت قباب البطون الخمرانة، حبيبتي التي لم تقل لي قط: «أحبك» هكذا باعتراف، دون مواربة، بل كانت تقول «حبيبي» كما تقال كلمات الإعزاز – وربما الحب– في غير سياق الحب،

ضربتنا كهرباءُ الزمن البطيئة – قال– أما أنا فأقول، هأنذا أقول، دون مواربة «أحبك» لأنني لا أستطيع أبداً أن أقول: «وداعا».

كانت قد كتبت له، من زمان، وريقة، مررتها إليه في المكتب، خلسة:

«أفتقد لمستك الناعمة، وحبّك الرقيق».

قال، كأنها لاتفتقد الخشونة أو الصلابة أو الاقتحام في هذه العلاقة؟ هل أزيد فأقول أيضا إنها لاتفتقد نوعاً من عنف الذكورة؟ ألأنها لم تتوقع منه ما أسمته مرّة رذالة الرجّالة؟ أم لأنها تجد عند غيره تلك الخشونة التي تشفي على الاستهانة، ذلك الغضب تقريبا الذي يعني أخذ أنوثتها مأخذ المبذول المتاح المسلم به؟ كأنها تخاطب كيانا رقيقا، حنونا أكثر مما يجب، يجيد معها صنعة حب ناعم الحواشي.

قال لنفسه: ياشيخ. حرام عليك. كيف تحوّل كلمة إعزاز رقيقة إلى بؤرة مكثفة من الهواجس الغريبة؟

الغريب أنه عرف، فيما بعد ذلك بكثير، أن هذه الوريقة قد صُوِّرت في المكتب، وأن بهية فخري، سكرتيرة وكيل الوزارة، قد احتفظت بنسخة منها– كانت الورقة موقعاً عليها بالحرف الأول فقط من اسمها: حرف الراء – ثم أرسلتها بهية إليه بالبريد، غفلاً، دون إمضاء، في غمارٍ عابرة من محن المؤامرات المكتبيّة والمكائد المصلحية المعتادة، كأنما تريد أن تقول له: «حذار، عندي مستند يمكنني أن أُشهره عليك، إذا اقتضى الأمر.» لكن شيئا لم يحدث، لم يبالِ بها شيئا، ومرت العواصف كما مرت السنوات، دون أية أهمية لكل ذلك.

قال لنفسه، أم قال لها: أن أراكِ مرة واحدة، وربما أخيرة، لا أدري،

حتى لو كنت تمقتينني، وأن لك في هذا بعض الحق على الأقل، إذا كان الأمر كذلك، وحتى اذا كنت لاتبالين كثيرا – وهو الأرجح فيما أتصور – فإنني مع ذلك أريد أن أمر بأصبعي على حاجبيك، بحب، كما كنت أفعل من زمان، مرة واحدة وربما أخيرة، أن أمسَّ بشفتيّ وجنتيك الناعمتين، وأن أقول لك: أُحبك.

كان أبو منصور قد قال: حويت بكلّي كلَّ حبك..

كما قال: سكنت قلبي، وفيه منك أسرار

لم يقل قط إن الاكتمال هو الانتهاك.

ولا إن عدم الاختراق – عدم الاغتصاب النهائي – قصدٌ مخبوء، حتى يظل الوجد – ربما – مشبوبا وحيًا.

لم يقل إن المتحقق، المخترَق، المنتهَك، إنما هو مبتذَل ومنته.

ليس الاكتمال هو التمام. أليس كذلك؟

لعل النقصان – الرقصة التي لم تتم – هو نفسه الكمال.

كانت قد قالت، في جلستهما مع نور الدين الضبع، في كازينو كليوباترا:

– انني مدينة له، أبديا، لأنني من خلاله تعلمت أن أقبل نفسي. كنت من قبل أمقت نفسي.

ومن زاوية، كان قبولها لنفسها عندئذ، لأنه – هو – تقبلها كما هي، بكل ماهي، دون تحفظ ودون شرط، بكل ما تفعل وكل ماتقول. على أن ذلك كلّفه بطبيعة الحال آلاما لاتكاد تطاق، وأوشك أن يحمله – هو – على

احتقار نفسه تقريبا، لكنه لم يفعل ذلك قط، لأن قبوله إياها كان حقاً وكاملاً، لم يشعر من ذلك لابزهو ولا بازدراء.

ومن زاوية أخرى فإن قولها: «كنت أمقت نفسي» يمكن أن يتضمن غواية ما، محجوبة، يمكن أن يكون عرضا لنفسها من طرف خفيّ. تمقت نفسها لأنها تبذلها، من غير أن تصون أو تحجز شيئا.

قال،مع ذلك: الغنَى الفادح في تذكّر وجودك. أنك وُجدتِ. وأنني أحببتك - وأنك أنت تقَبلتني - هو وحده الذي يقيم وجودي.

كان قد قال لأعز أصدقائه - نور الدين- إنه يريد أن يقابله بها، يريده أن يعرفها، كأنما كان في ذلك فرح محبّة مضيء وشامل على نحوٍ ما، ودهش صديقه قليلا- كما أحس هو - ولكنه وافق على لقاء ثلاثي في كازينو كليوباترا.

قالت إنها مدينة له أبديا، وكل ذلك، ولم يقل هو شيئا. كان عطر «لافام» يهب منها عليهما، نفثته خفيفة عابرة في الهواء الحار، أنثويته مثيرة، وهي في فستانها الحريري المشجر بالأخضر بذوق مرهف، فتحة الجيد واسعة قليلا، وصدرها الغني مكين فيه، هو إلى جانبها، ونور الدين أمامها، كان نور الدين يعرف قصة آلام صديقه، كلها، وينصحه - أحيانا- ضدّها، قال له مرة:

- لماذا تتصور قط أنها تحرص عليك؟ فكّر قليلا. أنت لاتساوي شيئا عندها، ولا في سوق الرجال على أي حال، لامال، ولا مركز الآن بعد أن تركت الوزارة والهيئة وأصبحت يعني - مثلي - مجرد مستشار. لست وسيماً بصفة خاصة، يعني، ولا أنت في ريعان الشباب، كما يقال، ولامن عائلة، ولاشيء، خلّ بالك.

كان صديقه عندئذ قد شرب قليلا ،هل أطلق السكر الخفيف مكبوته ؟

أم أنه كا يريدأن يوفّر عليه شقاءً أو ألماً لاجدوى منه على أي حال؟ في النهاية ؟

أما الآن، على البحر، فقد دخل معها نور الدين في حديث تقني طويل ومفصّل، بالانجليزية غالبا وبالعربية أحيانا، عن أساليب صنع الحب، هكذا، وأوضاعه الخلفية والأمامية وعلى جنب، في الآداب الشبقية الهندية والعربية، وفي المنمنمات الأيروسية، بنبرة صوت تبدو محايدة مترفعة وكأنها علمية تأخذ الأمور مأخذ المفترض المسلّم به، وكان ذلك كله مفاجئا وغريبا، كأنه – هو – لايوجد. وتكلم طويلاً عن الكاماسوترا، والشيخ النفزاوي، والماركيزدي ساد.

قال: رأيت شيئا كأنه ملاك الرب يسقط كالبرق من السماء، ثم تردّى في الماء، وقد احترق واسودّ.

قال: لم أنس ذلك منه قط، قد أكون غفرت له ولكني لم أقبله قط، في دخيلة قلبي.

كان مركبٌ كسول بشراعه الأبيض المفرود ينزلق من بعيد على الماء، كأنه لايترك أثراً فيه، وكان الشراع يبدو مرقعا بقطعة كبيرة ملتبسة اللون، رمادية قليلا، ضاربة إلى اخضرار كامد.

وانتبه فوجدهما يتبادلان حديثا تقنياً آخر عن الأوبرات، ومغنيّها، وموسيقاتها، ومهرجاناتها، في فيينا وباريس وأدنبره والقاهرة، كانا قد غرقا، لحظة، في استرجاع ذكريات وفي مناقشات عن أوبرات فاجنر. قالت: إنها تحب «تريستان وايزولده» بينما قال إنه يراها تجنح إلى العنف حتى أكثر من «سيجفريد» و«عشق الآلهة» ثم عقدا مقارنةً سريعة بين «ماكبث» كولينجوود

و«ماكبث» ڤردي، وتكلما عن أوبرات موتسارت فقال نور الدين إن «الناي السحري» مازال يسحره، أما هو فقال: لا. أحب «دون چيوفاني»، فلم توافقه تماما وأشارت إلى الظرف والخفة في «زواج فيجارو» مما ذكَّرها كذلك بروسيني وحلاقه الذي في أشبيليه، وقال نور الدين إن قليلين يعرفون أن ستراوس كتب «هيلين المصرية» و«اليكترا» وأنه سمعهما فقط على اسطوانات، فردت عليه بأنها لاتنسى فاوست لبرليوز، وكأنهما– حبيبته وأقرب أصدقائه إليه – قد نحياه عنهما، أو كأنه هو قد اختار أن يتنحّى.

قالت لنور الدين عندئذ: إنها كسبت وزناً – كما يقال– امتلأ جسمها ثلاث مرات في حياتها، منها الآن، هذه المرة ومنها عندما اعتزلت العالم تسعة شهور كاملة رقدت فيها على الصوفا في بيتها القديم، لم تكن تخرج أو تفعل شيئا، أخذت أجازة طويلة، والمرة الثالثة عندما طلّقها حسن. قالت كان ذلك اغترابا عن النفس، مرة، المرة أخرى عندما ملت القيام بدورها الماترياركي الأمومي الأبدي، وطفح بها الكيل من تقديم قرابين متصلة للآخرين، حتى لو كانوا أقرب الناس إليها.. أما هذه المرة...

أكان ذلك تبرير امرأة لنفسها أمام رجل؟

هل كان اعتذاراً، أم زهواً بجسديتها الكاملة؟

هل كان اعترافا حميماً، أم عرضا حميماً؟

سألته بعد ذلك، مرة واحدة أو مرتين: كيف حال صديقك؟ ما اسمه؟ نور.. نور الدين؟

أجاب بابتسامة مبتسرة: «كويس» ولم يزد.

يومها. في كازينو كليوباترا، أفاضت في شرح ما أسمته ظاهرة سَمَر

وجدي، الراقصة الشهيرة، وفي وصف جسمها، وابتذالها، واعتبرت أن كل شيء في مصر هو هذا الابتذال، الشيوع، التفاهة، قالت إن جسمها أشبه شيء بالأخطبوط، متعدد الأطراف، متموج، يهبش ويقبض ويعتصر، كأنما بالرغم منه، هو كالرشوة، والفساد، والانفتاح، جسم لزج محيط ينزّ، مدور وملفوف، أطراف رقيقة ولكن قوية كاسرة، جمبري طويل يهتز في موج الشهوات والجشع، هكذا قالت، وله شعر منسدل وشائك وسام.

هل كانت تحدس، ببصيرة العرّافات، أن هذا الفساد، هذا التفسخ، سوف يلبس أبيض، ومن خلف الحجاب والخمار، سوف تحاضر الراقصة في «فلسفة» الموت وعذاب القبر والثعبان الأقرع.

كانت وهي تتكلم ترفع ذراعها المدملجة البضة السمراء، على رسغها أسورة فضية كثيفة النقوش، سميكة، يعرفها من أيام شارع الشعرى اليمانية، والشكمجية الخشبية الكبيرة تحت المشربية، وتهب منها نفحات خفيفة من «لافام».

ثم تكلمت عما أسمته «الرجل العجوز القذر» الكامن في كلّ منا، رجالاً ونساء، المهرّج البذيء البّصاص الطفيلي، الذي يقبله الجميع، ويرتضونه، ويسلمون له قيادهم، الذى ينظر، ولعله يرى ولا يفعل شيئا، ليس بمقدوره أن يفعل شيئا.

هل كانت في تلك الجلسة الغريبة مجرد متعة الحديث المثّقف المتحرر من زمت المواضعات الشرقية، المترفع عن المحظورات الغبيّة؟

أم كان فيها تحرش شبقيّ من طرفٍ ومن آخر؟

أم كان فيها، أخيرا، شيء من الأمرين معا؟

أما هو فقد أحس نفسه أغلب الوقت صامتا، كأنه مُخرَس، يعيش

لحظات غير مفهومة.

قال لنفسه، في قسوة غير مبرَّرة كأنما أسدت إليه مكرمة، أو لعلها أوفت حقاً، عندما قالت لصديقه إنها مدينة له - هو - أبديا، لأنه قبلها كما هي، وعلّمها كيف تقبل نفسها.

ثم عاد فقال لنفسه: لماذا لايكون ذلك هو حسها الصادق به، حس لم يكن ممكنا لها أن تقوله مباشرة له؟ ثم قال: ولم لا؟

عادت في تلك الجلسة الغريبة على شط الماء تحيا نفسها من جديد. تتلمظ بالكلام الشائق، غير المألوف، المدهش في لماحيته وذكائه، الذي تفيض منه مع ذلك أنوثة لايمكن أن تحجز أو تكبح - ولاضرورة؟- كأنما في شبقية التلفظ بالكلام إشباع، أو إغواء - مرة أخرى؟- وكأنما ثمّ متعة بحسيتها الصراح في إدارة الشفتين واللسان بالكلام المصنوع، في رقة وفي رهافة وفي جرأة وفي تمهّل وفي لدونة ونعومة، الفم الدقيق المتحرك واللسان اليقظ الفعال ولحم الشفتين غير المصبوغتين المضرّجتين بدم داخليّ متدفق، لحم نضر تتقلب ذبذبته التي لاتكاد تحس في حميًا وتحكّم معا، إذ ينطبق وينفرج، ينضم وينفتح، يمتلئ باللفظ ويفرغ، يمتد هينًا هينًا، حيناً وينقبض، وهو يرقبها مسحورا بأداء شبقيّ يخايل بأنه بذيء ولكنه في غاية البراءة والنظافة، في النهار، على البحر، اذ تتذوق حديثها نفسه وتتمطق به، كأنه بديل عن التقبيل أو الأخذ والإمساك والتحسس والرشف بالشفتين. لم يكن فنّها في اختيار الكلام البارع الشيق مفاجئ النكهة فقط، على جرأة خروجه عن المواضعات المألوفة في أحاديث الناس، بل كان الفنّ الذي تحذقه أيضا هو ابتلال الفم بالألفاظ وامتلاؤه بحشوها الحار ثم اندفاقها منه، وضبط تخريجه وتنويع نغمه والتلذذ بانسيابه أو توقفه وحلاوة جرسه الطريّ مرّة، الحار مرة أخرى، المتلهفّ، أو المتأني سيان، تعلو به جهرةً لا خفاء

فيها ثم تهمس به – تقريبا– كأنما تسره أو تُجنّه أو تُحرز عليه، تتغنى تقريبا وتكاد تغنج، ثم تتصلب ويشتد أزر الكلام في تراوحٍ محسوب يلوح كأنما هو عفو قريحةٍ وثابة أو حصاد فطرةٍ غير مدروسة ولا متعملّة.

ثم جاءت منال، وقد كبرت الآن، تزوجت، وخلّفت عزة، ومات زوجها في حرب ٦٧، وتزوجت مرة أخرى وخلفت أخاً لعزة، منال البنت الغريرة التي دخلت عليهما مرة – وهي في الثانوية العامة، زمانٍ – وهي ترفع قميصها الداخلي البناتي – من القطن الأبيض المشجر بوردة بمبي صغيرة جدا وباهتة من كثرة الغسيل– انكسفت راجعة وهي تشهق وتسدل القميص على فخذيها الطفليتين تقريبا وتضحك، أصبحت الآن امرأة ضربتها السنوات والتجارب، وجهها الخزفي المصقول بلاخدش يبدو محايدا، هبتّ عليه رائحة سريرها الطفلي تقريبا، عندما كانت صبيّة بعد، كان قد آوى إلي غرفتها ذات ليلة– لماذا لم تكن هي في البيت ليلتها؟ ولماذا دعته رامة إلي ذلك البيت، قرب الفجر، بعد سهرة طويلة من العمل في مطبعة الخواجا يني ياكوميديس، للانتهاء من مراجعة البروفات الأخيرة لكتاب عن مصر الهلينية، عشية السفر مبكرا إلي مؤتمر في دلفي عن «الهيلينية في البحر المتوسط»، واكتشف بعد ذلك أن زوجها كان في البيت ليلتها، هل كانت تتصور أن البيت سيكون لهما؟ أم كانت تدبر شيئا آخر؟ كان قد نام – من الإرهاق – والتوتر – في ملاءات سرير هذه الصبية وتحت بوستر عن چيفارا، وبالإنجليزية: «Make love do'nt make war» وقرأ صفحات من كتابها المدرسيّ عن تاريخ نابليون بالفرنسية، وأخرج من غرفتها قطيطة صغيرة كانت لابدة بين كتبها، على رف مكتبتها الصغيرة، تموء بلا انقطاع، متى كان ذلك– أسئلة كلها لا إجابة لها– قال– ربما في أولى سنوات السبعينيات؟

رحبّ نور الدين بمنال– التي هبطت على الجلسة على غير انتظار–

كعادته بكياسة وتأدب يكاد يشفي على السَّرف والكاريكاتير، مع كل جديته ورصانته، قبل يدها، وأشرق وجهه بابتسامة عذبة، ثم دعانا جميعا على الغداء، دون تمهيد، كأنما كان ذلك أمرا مفروغا منه، وجاءت أطباق الستيك المفلفل نصف النيئ ينضح بعصارته الشهية المتبّلة البنّية المحمّرة، والجمبري المشوي بطراوة لحمه متماسك القوام وطبعاً البطاطس المقلي والزواق من الخضار السوتيه، مع رابع أو خامس زجاجات الإستيللا المثلجة. كان الهواء المبلول المشبّع بغبشة مائية لاتكاد ترى، وحده، يحمل إلينا نشوةً مضافة إلي السكْر بالحديث الجريء قليلا - بل كثيرا- إلي أبعد مما ينبغي، هي موضة الجباه العالية المفروض أننا جميعا من نخبة أصحابها، «ولاّ إيه؟ - وطبعا دفع نور الدين الحساب، وأغدق على الجرسون بالبقشيش السخيّ أكثر بكثير مما ينتظر - ومن غير ضرورة، وكان الصيّاد الوحيد الذي يرمي شبكته - تحت - مغروس الساقين في الماء تبدوان صلبتين، جافتين، كغصنين يابسين، على رأسه البرنيطة الكاكي غير النظيفة، وجاكتته الزرقاء الچينز القديمة مفتوحة على الصديري الأسود الكالح المزرر. كان قد جهد في أن يطلع بشيء، وشبكته مازالت خاوية.

كان نور الدين في غمار الحديث والبيرة والأكل والصداقة الأنثوية الجديدة وهبات الهواء المبتل قد طلب منها عنوان بيتها. في شارع الشعري اليمانية كان ذلك، أم على كورنيش المنيا؟ وبشكل أو آخر لم يحدث، ربما لمجرد أن أحداً لم يكن جاهزا بورقة أو قلم، وربما لأن أحدا لم يكن جاهزا لمغامرة غرامية معقّدة العقابيل، فيما يبدو، قال لنفسه، وهو يذكر ذلك كله ربما بأقوى مما يذكره أي أحد، وربما لسبب آخر.

أي الطرائق أصح، سأل نفسه، الطراد من أجل الفوز بليلة، أو أكثر، مع امرأة، أيا كان الثمن، أو المعنى؟ وامرأة منْ؟ امرأة أقرب أصدقائك إلى

قلبك، بلا شك. والذي ظل أقرب أصدقائك إلى قلبك، مع ذلك، أو أن تنأى— أنت— بجانبك، مترفعا عن رمي النفس في حلبة المنافسة الذكورية المأثورة؟

كانت قد قالت له : أنت لم تتغير... هواجسك القديمة التي لامعنى لها هي هي.

كان قد قال لها: أنا طبعا شيء إضافيّ في حياتك، أعرف هذا، ثانوي وربما جاء بالصدفة أو على سبيل التغيير مثلا، أو الاحسان مثلا، لابأس به مادام هناك على أي حال. لكن طبعا يمكن دائما الاستغناء عنه..

قال: أنت عندي ضرورة، وجوهر، وحتّم.

قالت له :أنت لم تتغيّر.

قالت: السنوات لم تنَلْك بشيء، فلتتقدم بك السن، كما تشاء، على راحتك، تظل أنت كما أنت، كل شيء يتغير، ربما، الاستثناء الوحيد عندي هو أنت، وبنتي، لاينال منكما العمر، ولا أي تغير.

قال : ياليت. أهذا، حقا، صحيح؟

قالت : هل مازلت يحمرّ وجهك، كأنما يتضرج حياء، كما عرفتك من أول يوم، وأنت الرئيس، صارم الوجه وجادّ جدا، أنا الوحيدة — ربما— التي عرفت كيف يتدفق الدم إلى وجهك في لحظاتٍ معينة.

صمتت ثانية، ثم قالت، مداعِبة: وغير وجهك.

زمان، في اسكندرية، كانت السماء يسبح فيها سحابٌ سابغ الألسنة، ذيوله المنسابة تراب زعفران مشعشع مضرّج، أحمر وأصفر، متوهجاً بأشعة

الغروب، وراء قلعة قايتباي العريقة، من ورائه شمس متقدة، قانية، قرصها كامل الدوران كامل اللهب، لاتنال، لايمكن القبض عليها، وكان هو يغوص، يندفن، كجمرة المغيب هذه، في مياه حنانٍ عميق، عميق، لاينتهي أبدا إلى قرار.

قال : كل شيء لم يتم. فهل اكتمل شيء؟

قال: أضمُّ بين يديَّ وفي حضني ثروةً فاحشة من حبك، من حبي إياك، لا أعرف ماذا أفعل بها. حبي إياك جعلني أغنى الناس طرا. ثروة فادحة مخيفة، أريد أن أوزعها على الناس جميعا، ستغمرهم وتغرقهم وتظل – طبعا– دون انتقاصٍ مهما أغدقت منها. موسيقى هذا الحب لانهاية لروعها.

عندما أراد أن يأخذ قميصا نظيفا لنفسه، من دولاب ملابسها، في بيت شارع الشعرى اليمانية، لم يستطع أن يقاوم فضوله، ففتح الدرج العريض التحتيّ، قال: ليس هذا اقتحاماً، ولا مجرد فضول، وبررها لنفسه، فلسفيا، يعني: هذا من صميم طبيعة الحب، المعرفة. حيث كل شيء –كل شيء– مشروع ومسموح به بل لا مفر منه.

فيما بعد، تصور أنه رأى ذلك القميص الرجالي المنسي، عليها، صدرها العاري تحته ناهدا، متمردا، ناصع السمرة والنعومة، القميص غير مزرر، طبعا، لأنه ضيق قليلا، في أول ليلة لهما كانت قد قالت له: «ضع يدك على صدري» وتصور أن هذا القميص أيضا قد ذهب إلى رجل غيره، قال لنفسه «توقف» ، لاتتماد في تصوراتك، هواجسك، توقف.

رأى كولاچات بشاي أبسخيرون التي يعرفها، موضوعة تحت قمصان نومها المطوية بعناية، ثم رأى على جنب كومة مهوشة من ملابسها الداخلية الشبقية، الكيلوتات والسوتيانات والشرابات، منها ماهو ملفوف على بعضه بعضا، ومنها مكور كأنها قد نضته عنها بالأمس فقط، أو نسيته هكذا من

فترة طويلة، كما هو، كما كانت قد خلعته عنها بلهفة وكيفما اتفق.

وكان كونشيرتو فرانسيس بولانج للأرغن والوتريات والإيقاع يترامى إليه من الردهة– عن الوحش الموسيقي الهاي فاي بأزراره وأضوائه ومصابيحه الصغيرة الخضراء والحمراء تومض وتخبو، والأسهم التي تهتز على أوجه الأقراص المضيئة المرقّمة كالساعات أو البوصلات، تحت نباتات الظل الوارفة السامقة، وكأنما تهدهد الخضرة الغضرة الداكنة، صادرة عن الموسيقى أم عن النباتات، من غلواء لواعج الأرغن عميقة الصدى.

قال : الحب ليس هو – وحده– أبدا.

هو دائماً شيء آخر. بل تتجسد فيه دائما أشياء كثيرة أخرى، ملتبسة، من معاني الحياة نفسها، بل الوجود. تركيبات داخلية مكنونة – طبعا – ولكن أيضا ميثولوجية، وثيولوجيّة.

هل الفيزيقيّة المباشرة الصريحة– كان لايني يتساءل – هل الجسدانية البحتة هي النقية الخالصة لذاتها، وبذاتها، من غير أن تتمثل شيئا آخر، من غير أن تسري فيها وتلوثها تشوبها وتكثفها معانٍ أخرى، من غير أن تعني شيئا آخر غير ذاتها؟

أم أنها تظل تتحمل، بشكل أو آخر، رواسبَ المعاني والدلالات المغايرة؟

صحراوات الأحلام الفسيحة القاحلة، ماذا تخفي، ماذا تُكِنّ؟

الغولة السحّارة العاشقة ترقص الآن رقصتها التي لم تتم، تحت الهرم، حول مواقد نيران قد انطفأت، كانت قد أكلت عليها عشاقها، مازالت بقاياهم من العظم والدم وفلذات أحشائهم لزجة متلوية على الرمل، تنتفض.

كأنها مازالت تنبض، لها رائحة حريفة من طعم الرماد واحتراق اللحم ولذعته.

على شفتيها المتلمظتين باللذة دمُ العشق والمقت معا.

الوجه المدوّر والعينان الخضراوان العميقتان وجسدها ملء السماء والأرض، الهرم الشامخ قد هبّ صاعداً من صخر الجرانيت الوردّي المطواع وذاب في نسيج السماء، أسنانها الصغيرة حادة ومصقولة، الفرجة الدقيقة بين سنتيها الأماميتين لاتكاد ترى، سمع لثغة جرْسها الخفيفة.

قالت: لأنك كنت ضالاً، وشريدا، وتبحث عن جوهرتك، طلبت مني شربة لَبَنٍ- أم أنني التي طلبتك، وسقيتك؟ - ألقمتك ثديي فشربت منه الرحيق المسكِر الذي دخلت به زمرة الأوليمبيّين، وحرمت عليّ، عمرك، ونجوت.

قال: أما هي فلم تبزّ لي لبنهاَ قط. وبذلك استحلّت عمري.

قال: وكان فيك تلفي. فهل كان فيك - أيضا - بقائي؟

قال: ذلك - على أي حال- غير صحيح.

كانت شمس أكتوبر، في صباح الصعيد، رقيقة ولكن قوية وراسخة.

لم يكن عليه الا أن يرقب مايجري، من بعيد، لا أن يمارس عملاً محددا.

ربما لجأوا إليه -فيما بعد- يستطلعون رأيه أو - يعني - يسترشدون بخبرته الطويلة. دار ببصره. كان العمل قد بدأ، منطقة هرم ميدوم تبدو قاحلة وصخرية، كابية الرمل، كيمان الحفريات تبدو وكأنها تلال النمل الأبيض

الدؤوب – كما رأى صوره في المجلات – العمال الصعايدة، ناحلين وأشداء، يتحركون ببطء وثقة، والمعلم سيد زهران، مازال يمسك الدفة بحزم في هذا المركب الوعر، بدا له شبحا الآن، ولكنه أبويّ، حانٍ، مع أن وجهه صلب كأنه قاس، شاربه الأبيض كثّ، نازل على فمه، وصوتُه مازالت له سطوة: «حاسب يابوي. دير بالك انت هناك ياولد. بجولّك انت. وجّف هناك دلوجيتي. طيب.. على خِيرة الله ياولدي..»

كانت الشروخ الطويلة في الهرم تلوح خطرة تتعرج داخل الكتل الحجرية وفي صلب جسمها. تأملها ببطء.

بدا له مبنى الاستراحة غير بعيد عن الموقع، جناحاه منفصلان.

على العصاري كانت أم برهوم قد أعدت العشاء على وابور البوتاجاز النقّالي الذي ينفع أيضاً مصباحاً إذا انقطع النور، سلقت دجاجة سمينة، بجوزة الهند والحبّهان والمستكة والفلفل الأسود، وحمّرتها بالسمنة الصعيدي وعملت على شوربتها الكثيفة ملوخية، وعمّرت طاجن رز باللبن في الفرن البلدي الذي بنته بيديها وكانت تخبز فيه العيش، وتشوي البيض، للعمال.

ذهبت إلى جناح الباشمهندس، وتركت له منّابه، على الترابيزة الصغيرة، جنب أوراق الرسم الملفوفة اسطوانات منسقة، إحداها فوق الأخرى، والكتب، والبلوك نوت، والمسطرة الحديد الطويلة التي صدئت قليلا.

وجاءت لها بمنابها في جناحها – غرفة نوم، وصالون فيه طقم كراسى خشب، ومائدة طويلة، التواليت الأفرنجي زيّ الفل –وهي تخطو بحرص على الكليم الأسيوطي.

قالت لها : تسلْم إيديك ياخالة أم برهوم. هوانا تايهة عن أكلك. زي الشّهد. الواحدة تاكل صوابعها وراه. اتفضلي انت بقى مع السلاَمة.

ووضعت في يدها الجافة المعروقة المتحركة بحياة خاصة، ورقة بجنيه، بحالها.

قالت له، وهو يرقبها صامتا: هلكانة من السفر والشغل ونفحة الشمس، هنام الليلة بدرِي، الصباح رباح.

ثم همست له، تُراضيه: يسعد مساك ياحبيبي.

وعندما طلبها في التليفون الداخليّ، على وش الفجر، قالت له وصوتها مازال نائما، كسولا ناعما:

– تعالَ زيَّ ما انت كده، تعالَ على طول، زيِ ما انت كده.

سمع عواء الضباع، في الجبل، من بعيد، موحشاً في طلعة الفجر المبهم.

طسّ وجهه بالماء، سرّح شعره، حلق ذقنه بسرعة البرق، وعندما تسلل في غبشة الفجر الندي الذي فيه نفحة طراوة، إلى الجناح الآخر، أخذته في حضنها، ثم قالت له: «الله.. انا مش قلتِ لك تيجي زي ما انت.؟» عاتبةً، شاكية، فقط. لكن قلبه هبط، تصورَ في نبرة صوتها رفضا، وإدانة. همد. ركد دمه. وخزل.

لبد في حضنها قليلا وهو ينظر إلى الدبّ البنّي الصغير المعلق على رأس السرير، لا تفارقه، كان قد اشتراه لها من المنشية الصغيرة في اسكندرية، زمان. قال:

- طوطم أم فيتش؟ تعويذة وحجاب أم دمية تعوضها عن طفولة مفقودة لعلها لم تكن موجودة أصلا؟

درّصدره بالحنان المكتوم. ثم قال لها:هيا بنا، قالت له: لماذا؟ لماذا أقوم؟ماذا ينتظرني؟ ماذا أنتظر؟ اللعبة القديمة نفسها. هذه الرمال والحطام والشروخ. وماذابعد؟ماقيمتها يعني؟ أي فرح هناك؟

فلم يجد رداً، أي رد، يصلح في مثل هذا المزاج. لأنه، كان بشكلٍ ما يوافقها. مامعني هذا كله؟ قبلها بسرعة على شفتيها، دون أن تنتبه تقريبا، كأنه يريد فقط أن يقول لها شيئاً. وعاد.

كانت غبشة الفجر قد بدأت تنجاب قليلا، والعمال نائمون دون حراك على الرمل، غير بعيد، ملففين في الشيلان والأحرمة والتلافيح وبطاطين ناصلة وخيش الشوالات. رآهم من نافذة الممر المغلق المسقوف الضيق بين الجناحين، كأنه يحس بالاختناق فيه.

أدرك، فيما بعد بكثير، أنها كانت تريده، أن يأتيها مباشرة من نومه، سُخنا، لم يتيقظ عقله بعد، العقل الذي تكرهه وبجذبها معا، تريده أن يجيء إليها من عالم فطريّ، عالم الوحوش الأليفة والغاب الضارب في السماء، وبحيرات الماء الصغيرة كالمرايا، والنمور المبتسمة، والنساء العاريات بين سيقان المسوخ الوديعة، لاتغار منهن، لأنهن هي، متعددات ولكنهن هي، قال لنفسه عالم روسّو الجمركيّ مثلا، وكهف ديلاكروا الصحراويّ معا، وابتسم ساخرا قليلا من المقارنة.

عاد فتمدد على سريره الخشن، ألواح الخشب صلبة تحت مرتبة قطن جافة، لكن الملاءات نظيفة جدا، قال لنفسه، كأنما يأخذ لنفسه صوتها، كالعادة: «تسلم إيديك ياخالة أم برهوم..» ولبث يقظان متوتر اليقظة، نصف

ساعة، ساعة، أو أكثر قليلا، ثم قام، بالقميص والبنطلون مازال، ونادى: عم سيد.. ياعم سيد يازهران.. يالله ياعم. لِمّ رجّالتك! على خيرة الله يابوي!

كانت له دالّة على الرجل العجوز، حُكمْ العشرة الطويلة في الشغل، حُكْم العيش والملح، مع أنه الآن لم يكن في موقع السلطة أو الرئاسة الفعلية، ولا يملك عمليا أن يأمر أو ينهى.

دبت الحياة –كما يقال– في الموقع.

بالطبع لابد من ترميم هذا الجزء – هناك – من كساء الهرم الخارجيّ، واضح، لن يحدث ذلك أي تأثير في جسم الهرم نفسه، وطبعا يعاد استخدام كتل أحجار الكساء الخارجيّ الأصلية في أماكنها، بعد الترميم. وياليت ترفع أكياس الأسمنت هذه وتبعد بعيدا، عارف، عارف، طبعا لن يستخدمها أحد. لكن لا أكاد أطيق أن أراها هنا.

كان يرقب الدكتور طارق حسن، رئيس القطاع، وهو يصغي إليه بنصف أذن، فساورته فكرة بأنه مهموم لأن سلطته، باعتباره الرئيس الفعلي للقطاع، لابد أن تتأكد، أن يسلّم بها ويعرفها الجميع.

كانت رامة تقلب النظر إليهما، سأل نفسه: هل هذه الحياديةالمعلنة، السافرة، حقيقية فعلاً، أم ظاهرية ؟قال لنفسه: هي دائما تنحاز إلى الرئيس الفعليّ، عن اقتناع ياترى، أم عن تقيّة، ومراعاة للمظاهر، وتنحية الشبهات؟

في ثوبها الأفريقي السابغ الفضفاض، خفيفا ولكن محتشما كما يتطلب الصعيد، يخفي، ويفضح، طيات جسدها المليء بالحيوية والأنوثة، كأنها عبرت أزمة الفجر، الآن دخلت إلَى النهار وروحها تتفزز بالنشاط والاقتحام، وجسمها صاحٍ عارم اليقظة.

قالت، بذلاقة ودربة، لاحتواء خلافٍ – أو صراع – تبدو نذره في

الأفق:

- المشكلة الحقيقية يادكتور، إذا سمحت أن أبدي رأيي المتواضع، هي أنّ الواجهة ستتعرض للتعرية، وعوامل الجو القاسية، أنت سيد العارفين والأمر بين يديك طبعا.

قال طارق حسن وقد رضي وتطامنت مخاوفه: نعم، طبعا، هذه مشكلة تُعالج، وأيضا إزالة الرديم من هناك، من الناحية الشمالية، نقوم به بسرعة، في الوقت نفسه.. نجرب أولاً حتى نرى هل يمكن بعد ذلك رفع الرديم من أمام باقي الواجهات ونحن نجري الترميمات في الوقت نفسه.

قال: اقتراحي واضح وعمليّ. نقيم مصدات للرياح على مسافة أربعة، ثلاثة كيلو مترات من جسم الهرم، ونحقن الشروخ - من غير أسمنت - وأن يقيم مهندس مرمم بصفة دائمة لايبرح الموقع.

أومأ الدكتور طارق برأسه، كأنما على الرغم منه، وقال شيئاً عن الميزانية اللازمة، وطريقة تدبيرها.

فأكمل: وأعتقد أنه لامفر من نقل غرفة الكهرباء من أمام الجهة الشرقية للهرم إلى الموقع الجديد الذي أوصت اللجنة بإنشائه على أرضية منخفضة عن أرضية الهرم، وعلى بعدٍ كاف.أما الاستراحة فلا بأس، ليست قريبة جدا ولاهي مصدر للذبذبات والارتجاج.

قال لنفسه: أهذا صحيح؟ أي نوع من الارتجاج والزلزلات؟

قال لنفسه: ومع ذلك فإنني شديد الخجل من نفسي. لكنني لست خجلا من حبي بل فخور به - كما ينبغي أن يكون الأمر، أليس كذلك؟ الشيء الوحيد الذي أنا به فخور، من غير أدنى تحفظ.

قال: أما عملي، أشعاري التي أكتبها خفية عن كل أحد أحتفظ بها في البلوك نوت الصغير القديم، تاريخ نضالٍ ثوري قديم كدت الآن أنسيه تماماً، كأنه من تاريخ رجلٍ آخر، كأنه أضغاث ذكريات، مع أنه ضارب في عمق نفسي، كامن هناك، كأنه ذئب، مثلاً ياسيدي، مادمت تضرب الأمثال، ذئب في أحد جحور الجبل، وراء الهرم.

قال : أكل شيء موضع سؤال؟

قال لنفسه : حبك إياها ليس موضع سؤال. نعم. أما هي، فإن ما قالت إنه حبها – هل قالت ذلك قط؟ – ما قالت إنه حبنا.. تساءلت هل يمكن أن نحوّطه، أن نصونه، من سطوة الزمن؟

«متاع قليل من حبيب مفارقِ» أليس كذلك؟

ابتسم لنفسه – ساخرا أم مؤمّنا ومسلّما؟ – إذ وجد نفسه، كأنما رغما عنه، يقول مع الرضيّ: «وإنما هواك ضجيع القلبِ، وحلمه».

أذلك ذئبٌ آخر – مثلاً– كامن في كهف أعمق، ولعله أكثف عتمة، وأغور كِنّاً؟

قال : نحن نظل ذئاباً لأحدنا الآخر، مازال القول المأثور صحيحا.

قتّالة؟ ذئبةٌ هي؟ نعم. بلا شك، قتّالة، دم ضحاياها يقطر من يدين ناعمتين بضتين، أظافرها معني بها، مصقولة بالمانيكير اللؤلؤي الفاتح له أثر فعال على أصابعها السمراء المدملجة، لكنه دمها أيضا.

أذئبٌ أنا؟

نحن نفتح أذرعتنا – كلينا – لأحدنا الآخر، جلاديْن وضحيتيْن في

الوقت نفسه، في اللحظة عينها. ألايمتزج الضحية والجلاد. ألا يتحد الوحش والفريسة في كيانٍ واحد؟ هل هي لحظة عابرة؟ أم هو جوهر باق محرّز عليه ساطع، لايطيق أحد منا أن ينظر إليه في عينيه؟

أموت، وأحيا، ودائماً، بالتناوب، بالتعاقب، في الآن نفسه معا.

أهلك وأُبعث حياً من قبري الجديد، مومياء تتيقظ، على حب وافتقاد، بنفس الحماقة القديمة ونفس المجد القديم.

قال : هل هي تذكرني، أطوف بذاكرتها يعني، من وقت لآخر؟

قال : هذه الرغبة اللاعجة عندي في أن أعرف كل شيء عنها، في كل وقت، وأينما كانت، رغبة محكوم عليها، طبعا، بالإحباط، بحكم الضرورة. من يعرف ولوشيئا قليلا عن الآخر؟ حتى عن أحب الناس إليه وأعزهم عليه؟ منْ؟ شيئاً حقيقياً أعني؟ مَنْ؟ أريد – كم أريد، وكم أردت –لو أنها شاركتني في لحظات حياتي الحارة، خاصةً قبل أن أعرفها، قبل أن أحبها.

لماذا؟

ولماذا؟ – من ناحية أخرى – تنفي أنت ذلك، وترفضه؟

لماذا لا تأخذها بين ذراعيك – وتغيبّها في حضنك، بكل حضورها، كل حضورك؟

ولماذا – من ناحية أخرى – لاتريد أن تتحمل –هي – عبء حريتها، وثقل حياتها، فماذا أنت بقادر أن تحمله عنها؟

يكفي – هل يكفي أبدا؟ – أنك حمّلتها على أن تقبل نفسها، كما

هي، كما قالت.

قال : هاقد وصلنا إلي أخطر العقائد على الإطلاق – وربما أصحها – وأفدحها: أن الإيمان قبل الفعل.

قال : هذا يجب أن يُكرّس بالدم نفسه، لا أقل.

قال : فهل أنت على استعداد؟

قال : نعم. أما هي..

دم العشق مباح، من زمان، ولعله مبذول، ولعله بلا ثمن، ولا قيمة.

قال : ليس هذا كله، على أية حال بصحيح.

في ذلك الصباح، كان ممددا على السرير الضيق الواحد، في استراحة الأقصر، وكان كل شيء هادئا، ،والمبنى خاو تماما.

فتح المبنى بالليل بمفتاحه الخاص، وضَبَ من الخفير أن يروح لأهله وعياله تلك الليلة، كان قد جاءا بسيارتها الڤولكسفاجن، عند ماهبَ الخفير من نومه على نور السيارة، أطفأ الأنوار كلها، ، وسلط الكشافات على القامة الطويلة النحيلة، والبندقية الميري القديمة، عشي بصره وقال : «مين ؟ مين ؟ سعادة البيه؟ يامرحب!»

كيف غامرتْ بالمجيء معه إلى الاستراحة النائية؟ قال لنفسه: كان ذلك مما يندرج في خط سلوكها.

في نور الصبح الداخل من الشبابيك المردودة، كانت ساقاه إلى جانب ساقيها المكتنزتين.

قالت له وهي تتأمله، برضى وشبع: أنظر.ساقاك بلون أفتح قليلا من

ساقيّ.

قال : أبداً. في الشتاء فقط هذا نور الفجر المراوغ، بعد شهور الصيف تجدينهما محروقتين.

كان حس ساقها المدملجة الملتصقة به ناعما ومطمئنا وفيه رسوخ، وكأنما لن يزحزحها شيء عن هذا الموضع.

استيقظت، يومها، عليه، وقد جاء إليها، وأخذها إليه، وكانت الدموع تنساب، بلا خجل، على وجهه، لايملك منها شيئا.

لم تكن قد رأته يبكي قط. ولن تراه يبكي بعدها، أبدا. كانت دموعه دائما في خفية عنها وعن كل أحد. كأنها شيء يخصه وحده، لاشأن لأحد بها، أيا كان. كأنه يخشى - بل هو موقن - أنه بالدموع لايستدرّ شيئا من أحد، ولايبتزه بشيء. ثم كأنه يخجل منها قليلا، في نهاية الأمر، على أنه يعرف تماما أنها لا تنم عن ضعف ولا حاجة، وأنها ليست كالمزعم الشائع مما لايليق بالرجال إلى آخر ذلك كله.

تيقظت عليه، بعد غفوة قصيرة، مفزوعة. قالت:

- ياخبر! ماذا حدث؟ أهذا ممكن؟ بعد أن نتام معا، في سعادة وبهجة حقيقية، أستيقظ على دموعك؟

لم يقل شيئا.

لم يقل ما كانت تعرفه تماما: أنه يبكي الآن، توقُّعاً لأحزان سوف تحملها إليه أيام وشهور وسنوات طويلة قاحلة، يفتقدها فيها ويجد أنه قد انقطعت به السبل إليها.

في ميدوم صوت خبطات صغيرة حريصة على الباب الخشبيّ المغلق

عليهما. كانت هي عارية تقريبا، والملاءة البيضاء سقطت على الكليم الأسيوطي، تحت قاعدة السرير.

كان يعرف – من خبطتها على الباب – أنها أم برهوم جاءت بالإفطار. قام وفتح لها الباب من غير أن يفكر، فدخلت وقالت : يصبحكو بالخير. اسم النبي حارسكو. النهاردة الفطار جاهز فضلة خيركو: دحي مجلي، وعسل نحل، وعصيدة بالسمنة الصعيدي، والحليب طازة سخن من بز البجرة.

أين كانت تخفي هذه البقرة ؟ والفراخ البيّاضة؟ هل تبيع البيض، واللبن الطازج للعمال؟ أو تصنع منه جبنا، وتمخضه زبدا؟

هل كانت لها عشة، وزريبة ومبات في الوقت نفسه وراء مبنى غرفة الكهرباء، معمولة بالبوص والخيش وألواح الخشب؟

كان الطبق المفلطح الواسع –صيني به نقوش زرقاء، على حافته شطوف قديمة وكسور رقيقة تثلمت بفعل القدم وبهت لونها، ماركة قديمة، سيفر يمكن، من مخلفات عزّ قديم، من أيام الاستراحة عندما كان مفتش الآثار انجليزياً، ربما – به ست بيضات مقلية مشرقة، شموس صفراء بيضاء صغيرة عائمة على بحيرة من السمن الشفاف،وطبق أصفر من نفس الماركة، سليم يكاد يكون جديدا،به عسل نحل تتربع في قلبه قطعة شهد شمعية يسيل منها الرحيق متماسك القوام، شهيا، والعصيدة في سلطانية فخار سوداء عميقة، تتصاعد أنفاسها الحارة، مغوية.

وضعت الصينية النحاسية الكبيرة على المائدة المدّورة غير ثابتة السيقان، جنب السرير.

لم تلحق رامة أن ترفع إليها ملاءة السرير من على الأرض.

كانت أم برهوم عجوزاً مخددة الوجه نحيفة وكلها نشاط وخفة حركة، تلف شعرها الأملح بطرحة سوداء مترية الأطراف دائما. وعلى كتفيها شال قطيفة قديم قلاّب الألوان، بنفسجي أحمر أزرق في تقلب النور واهتزاز أهداب القطيفة الناعمة، عيناها غائرتان في محجريهما، صغيرتان جدا وثاقبتان، لامعتين باستمرار من غورهما الداخلي. وكان على صدرجلابيتها السوداء عقد كهرمان، طاف بذهنه أنه مسروق من إحدى المومياءات، حبّاته الكبيرة الصفراء المحمرة كأنها مشّعة من الداخل، وفيها نفحة غامضة، أو هكذا تصوّر. وكانت كتوما، ورؤوما، وصامتة المحبة والرعاية.

قالت أم برهوم، تتمتم تقريبا وهى تغطي فمها وأسفل وجهها بطرف من الطرحة، كأنما هي التى خجلت من عري حضرة المفتشة: «ربنا يخبّزلكو، عاد، ويهدّي سركو، ويهنيكو ببعض يارب، ويكتب لكو في كل خطوة سلامة».

وخرجت، وردت الباب وراءها بحرص.

قالت له: تركتها تدخل عليّ وأنا عريانه! لِمَ لَم تأخذ منها الصينية من على الباب يا حبيبي؟

لم يقل لها: كأنني -أنا- فخور بجسمك العاري؟

قالت له في التليفون:

- تعال. سوف أسمعك كلاسيك -باخ الذي تحبه- وأشرّبك ويسكي. وسوف تراني. ماذا تريد أكثر من ذلك؟ تريد أن تنهب، ولاً يعني تنهب.

فرحةُ التشوف إلى لقائها كأنها تفوق فرحة اللقاء نفسها.

يقظة الجسم، اهتزاز الروح بالشوق، خفةٌ في الاقبال على الحركة، بل على الحياة. لم تأته هذه الفرحة منذ متى ؟كأنها من سنين. والتاكسي يشق به شوارع الخليفة والقلعة، عند العصاري.

عندما فتحت له الباب، صَدَمَهُ جمالُها وأنوثتها – دائما يصدمه، كل مرّة، كأنها أول مرة، وسواء بعد العهد بها أم كان منذ برهة وجيزة.

وكان في ابتسامتها له حفاوة، وتواطؤ، وفي لمعة عينيها الخضراوين الداكنتين الآن في أول الليل مايشي بسرور ترحيب حَقيقيٍّ ، سرور فيزيقيّ أيضا يعرفه الجسم وحده.

لكنها لم تعطه شفتيها، على الباب.أتاحت له صفحة وجنتها الناعمة المشعّة بدماثة داخلية، قالت له:

– عزّة دخلت تنام من دقائق فقط. جوّه.

وهي تسلّم عليه كان ذراعاها السمراوان البضتان عاريتين ناعمتين تحت بلوزة من نسيجٍ يشبه الحرير، رقراقة وملونة ومرحة التشكيل، على بنطلون جينز يحبك استدارة بطنها وردفيها وساقيها، فيكتسب القماش خشن المظهر لدونةً أنثوية، وكانت حافية.

قالت: قهوة أولا، أو اسكوتش على طول ؟

جلست على الصوفا بجانبه، بعد أن جاءت بالصينية الزجاجية المنقوش عليها بالأبيض، في لحم الزجاج، تخطيطات قلاعٍ قوطيّة وأنهارٍ ومروج، وعليها الماء المثلج والسطل الطافح بمكعبات الثلج المضيئة المتشرجة بخطوط بيضاء في قلب شفافيتها الكريستال، والبلاك ليبل ١٢ عاما الذي يحبه.

وتزلت بهما الصوفا قليلا تحت وطأة جلستها. تناول ذراعها، وأدارها، ووضع فمه ببطء، بما يشبه الاستماتة، على الطيّة الدافئة من الداخل عند المفصل بين العضد والساعد - لم يكن تفصيل الموضع تشريحياً، في باله - كانت عيناه قريبتين جدا من كتفها عند فتحة البلوزة، ورأى وأحس بنفح جانبٍ من صدرها الوثير، بكل مجده السرّى، تحت حردة النسيج الواسعة قليلا.

واجهة هرم ميدوم الشامخة تصعد من طيات رمل الوادي إلى السماء. قضاء إلهى ورحمة الهية.

لم يكن قد رآها من أيام رحلة التفتيش،ومن اليقظة في الاستراحة أمام الهرم المشروخ. وتردد في مسمعه صوت أم برهوم ربنا يكتب لكو في كل خطوة سلامة، فابتسم، ونظرت إليه متسائلة بابتسامة مستجيبة، قال لها: فاكرة أم برهوم؟ وضحكا في انطلاق كأنهما صبيان بعد في غرارة الشباب الأول، وهيّ ديِ حاجة تتنسي ؟ وهيّ ديِ ست تتنسي؟ وشرّق الكلام وغرّب، وإيقاعات سوناتا الفلاوت والها بسيكورد مقام سى صغير، مصنف ١٠٣٠ ، تتردد أصداؤها مترقرقة، قليلة الارتفاع حتى لا توقظ عزّة، ونشوة تخفّ بجسده، تفقده ثقله وارتباطه بالأرض، يأخذ بيدها برفق، ويضمها إليه، وينزل إلى الأرض العارية الخشب، الباركيه اللامع المصقول كأنما يتلقاهما بدفء خاص، وإذا هي على الأرض العارية وقد انقلبت على بطنها، وجهها على حجره الذى يحسه الآن ملآنا ومتضخّما بالرغبة، وهى تضغط فخذيها على البَاركيه، بحركة مكبوحة، تحتك بالخشب الدفيء الناعم، لكنها تردّ يده بلينٍ ورفق ، ولكن بحسم، وتهمس، عزّة .. جوه..

تستكين إلى حضنه بطوعها لحظة، وهي تمسك يده بقبضة قوية، ثم تنفض واقفة، وجهها مضرّج السمرة بدمٍ تشتعل له وجنتاها، وعيناها، على

غيامهما، متقدتان، فيهما عزم، ورفض كأنما على الرغم منها، بل بالتأكيد على الرغم منها.

قالت له دعنا نجلس عاقلين الآن. ألا نستطيع؟

لم يرّد.

الفصل الثالث

جسدٌ ملتبس

«حيِّ الغداةَ برامةَ الأطلالا، رَسْماً تَحمَّل أهلُه فأحالا»

أهذا ما أفعل؟ لكنه لم يَحُلْ، رسمُها.

هذه الأطلال صروحٌ مازالت، شامخة وقائمة الأركان، حتى إن كان أهلها قد رحلوا عنها.

رامة مازالت. ليست رسماً دارساً طوَّحت به عاصفاتُ الليالي، بل هي حضور. وليست هذه تحية يسديها طائفٌ ملُّم إلى أشباح حائلة. حتى لو كنت على وشك الرحيل، فإنني لست أبارح هذا الحضور، ولا يبارحني.

ياجريراً، خلِّك أنت في حالك، وخلِّني.

مازالت ڤينوس الواندالية تجوس في البيت القديمِ، شبه عارية، ممتلئة بخصوبة منسالة على خشب الباركيه المصقول، مهدرة حتى عندما يحتويها حقواي وتتشبث بها ذراعاي لاتكادان تحيطان بخصرها المسحوب فوق ردفيها الهائلين، يكاد يغرقني فيضان لحم نهديها. لا مكان لها في البيوت بين الحيطان، مكانها حقا غيران الكهوف البدائية في وديان الروح وجبالها غير المسبورة، تحت أحراشَ كثيفة الأغصان، متواشجة، متراكبة بالأشجان

أدغال الشهوة أرضها، دفق مياه داكنة متلاطمة، متدافعة اللجج، شلالات هادرة.

أصلُ خصوبة الأرض وعجينتها الحارة المليئة، خمرانة ونشوانة وثقيلة الأنحاء، لكنها في خفّة صقر جارح، حوريس المؤنثة عين الشمس المتّقدة يفيض منها البحر العظيم القديم بطميه الحبشيّ الأحمر أتمرغ على طياتها الوثيرة في ويليندورف وأشهق في حميا العشق طلبا للموت فلا طاقة لي على البقاء بعد، كأن الكون قد اكتمل، لماذا صرخة نداء التهلكة، لماذ الانسياق في غمرة الفناء بينما تضربني سورة الانتشاء؟

لماذا؟

قلتُ : لم أعطكِ شيئا، كنت أريد أن أعطي.

قالت : أعطيتني. لا أطلب منك شيئا.

قلت : ما يعقّد المسألة أنني لا أستطيع – حتى لو أردت – أن أعطيك.

قالت : ليس هناك تعقيدات. ليس هناك من الأصل «مسألة».

قلتُ : أريد أن أتجاوز هذه اللامبالاة.

قاطعتني عاتبة، غاضبة تقريبا: ليست هذه لا مبالاة.

قلت : أريد أن أتخطى رغبتك هذه، إذن، في السيطرة على الرجال.

لم تقل شيئا.

قلت : والتجربة، معهم، مرة بعد مرة، استنفار ما عندهم من حبّ أو من مجرد فحولة العشق، أو من انصياع.

قالت : متى تتخلى عن أوهامك؟ لماذا أجلس إليك لأستمع منك هذه الوساوس والهواجس.

قلت : لأنك تعرفين أنني أحبك.

قالت : ليس هذا كفاية. لم يكن أبدا كفاية.

قلت : نعم. صحيح. ومع ذلك فليس هناك ماهو أكمل ولا أشمل منه. غاية الكمال ليس كفاية المحبة.

يهجس هاجس ملحاح أنني على الحافة، على ذلك الشفير الزلق الذي يجتذب قدميّ، وجسمي كله، إلى هاويته الخاصة حيث تطبق عليّ فيها حلكة نهايةٍ لا وعي فيها.

هل تعرفين ياحبيبتى أنني أتوق إليك كأنني مازلت في أول أيام حبك، أن حرقة أشواقي إليك لم تهدأ، ولن تخبو أبداً، فيما يلوح، وأنني أحلم بكِ كما لم أحلم بك من قبل. هل تعرفين كم أحبك؟

كل ذلك – طبعا – مازال بلا معنى.

أين المعنى؟ ما – أو من – ذاك الذي يُعطي المعنى؟

ليس من معنى مُعْطى.

ذلك، في ذاته، هو المعنى.

«سُمِع صوتٌ في الرامة، بكاءٌ وعويل مرير» قال القديس متى الذي كان عشاراً وحكى الحكايات.

أطلالُ رامة القائمة على ربوة عالية، على طريق بيت الله، طريق على

حافة الهاوية لايفضي إلى أي بيت، بل تذبح على جانبيه القرابين وتُسدَى طقوس السورات القدسية، طريق معلّق بين ربوات السحب الهشّة، تمخر عبابها الساجي أشرعة الصوارى الحادة، رامة التي تنازعها الملوك والعشاق حقبة بعد حقبة فتحت لهم ذراعيها البضّتين وساقيها المكينتين، أغرقتهم بحنان أصليّ أو مصنوع على السواء، سبيّتهم وأميرتهم، أمتهم ومولاتهم، تحت قدميها سقطوا وسوّرهم الإسار وفي وهمهم أنهم تبوأوا قبتها، إليها آبوا فإن إليها دائما المآب، منها تمزقت قلوب وذبلت وجفّت، قاسية هي، وحانية معا، فيها صعدت من صخور السماء آهات النحيب الذي ماعاد يطيق أن يظل مكتوما. سمعت صوتها في التليفون، تؤوده رنّه حزن ثقيل غير معترف به، كأن فيه الآن مالم يكن فيه قط: هبوط التسليم ويأس من العالم، ألم يخدعها العالم؟ألم يخنها الحب؟ مع كل أمجادها سقط تاجها المعقود من الشوك والعقيق الساطع بناره الداخلية المتّقدة لا تنطفئ، دفن في عمقها الأنبياء والشعراء والمعطوبون الذين أفاضت عليهم بحنان شبق لم يكونوا ليعرفوه لولاها قط، رامة مدخل الملكوت الذى يسفر عن خواء مقيم، يخايل بأنهار اللبن والخمر والعسل، بل يجريها على فخذيها كأنها لن تنضب قط، ويتكشف الفردوس عن يباب جديب، خضراء غضرة وصحراء لانهاية لتيهائها، رامة التي استلمت الجسد المسجي في أسمطة الستر والأسرار، وباسته فانسالت يبوسته. من أزاح الحجر عن الجسد الملتبس القائم من سراديب هاديس؟ جسدي أم جسدكِ يا رامة بعد أن امتزجا كأنما لن ينفصلا إلي أبد الآبدين، ثم ضربت بينها الفرقة القاصمة، أيتها السامقة بين الربوات، أيتها الرفيعة، لاتسقطي أبدا، أرجوكِ، لا تسقطي. لن أحتمل لا ترددكِ ولا تردّيكِ.

ما أشد احتمالي.

الحس المروّع مع ذلك بأن صرخة حبك المنتزعة من لحمي لن

يسمعها أحد، لن يسمعها أحد، ولن تسمعيها، كالمعتاد.

قلت لكِ : إنني لست فيزيقياً، أساساً، لست حسياً.

قلت : أنتَ؟

قلت : ومع ذلك فإنني أحترق بالرغبة الفيزيقيّة.

مازلت.

وهي ليست فقط فيزيقيّة، زعمتُ لنفسي، بكل ما وسعني من صدق، وأنكرته.

أما بذخها الفيزيقيّ فهو يذهل الخيال.

وانفعالُها الفيزيقي إذ تشهق وتنتفض ويسيل جسمها وعيناها الواسعتان المكحولتان أبدا متألقتين بنارهما الخضراء.

ماذا يقابله عندي؟

الانكتام.

أو الانطلاق الحوشيّ كأنما هو التهامٌ لمباذخ الجسد شامخ الربوات.

قالت له : أنتَ صنعتَ مني شيئا كأنه عاهرة ممجّدة.

لم يقل لها : أين كان خطئي ؟ أفي جانب الممجّدة أم في جانب العاهرة؟ لأنه أحس أن هذه الكلّية الممزقة لنفسها، عنده، تشارف هنا آخر حدودها.

لم يقل لها : هذا العهر ليس أنصع منه براءة وبكارة، عبادتك للجسد

تجعلك، فعلاً، مقدسة، ونقية وإلهيّة.

لأنه أحس في هذا التمجيد غلّو العابدين الذى يشارف الكفر، أو أن فيه سنتمنتالية لم تعد مقبولة في هذا العصر والأوان.

قالت مرة: قرأت ما كتبتَه في مذكراتك. أعطيت لنفسي هذا الحق ياحبيبي، كما تعطي لنفسك الحق في أن تفتح دولابي وتقلّب في ملابسي الحميمة. نعم، قرأت كلمتك، أنت على حق، لن أستطيع أن أسعدك أبدا.

قال : أنا ؟ أنا كتبت ذلك؟ رامة، هذا دورك في التوهمات والهواجس. لم يدر هذا بذهني قط، دعك من أنني كتبته.

قالت : لا، صحيح، ليس هذا من فانتازياتي كما تحب أن تقول. كان ذلك مكتوبا بالفعل، أسود على أبيض، بخطك الدقيق الميكروسكوبيّ تقريبا، على ورق خطابات من فندق في بانكوك، شفاف، أبيض لبني، مموّج الخفّة، للورق صوت خفيف عندما تمسكه. كتبت: «لن تستطيع أن تسعدني أبدا» أنت على حق. لكنني أعطيتك لحظات سعادة، ولو كانت قليلة؟ أليس كذلك؟ اعترف، السيدة في ظهرك، قل نعم..

قال :ماذا أقول؟ من غير حلفان، أعطيتني ملء سعادة لم أكن أتصورّ أنها موجودة، حتى.

قالت : الحقيقة، بقي، أني كذبت عليك عندما قلت «أعطيت لنفسي الحق» إلى آخره، كله جاء بالصدفة، وقعت عيني على الورقة بالصدفة، وأنا أبحث في قاموس الهيروغليفي – الانجليزي، مدسوسة في قلب المجلّد الضخم، لم أملك إلا أن لمحتها، أغلقت القاموس على الفور، وسقطت شهوتي للترجمة.

قال : غريبة! أنا لا أكتب هذه الكلمة «السعادة» قط، لا أعرفها، ليست

في معجمي، أنا أعرف النشوة أو التحليق أو المجد أو التحقق إلى آخره. لكن حتى مفهوم السعادة ليس من عدّتي الفكرية أصلاً، صدقيني.

نظرتْ إليه بصمت، طويلا.

قال: وما دمنا في حديث الفانتازيا، أريد أن أعود إلى نقطة قديمة، نقطة دم قديمة.

ضحك، كأنما يداري حرَجا.

قال : عندما كنا في أسوان، قلت لى إنني أدميتك، خدشتك هناك، تحت، تركت عليك نقطة دم. ياستي لَم يحدث. والله العظيم لم يحدث، أنت ليلتها، بعد أن انتهينا، يعني، نمت منّي، سقطت فجأة في النوم للحظات قلائل، هذا يحدث معك، تعرفين، كنت عارية – كَعادتك– وجميلة ولم أستطع أن ألمسك، قاومت نفسي، رغم كل لهفتي لم أستطع أن أحيطك بذراعيّ، كان نومك عميقا وبريئا إلى حد موجع، ثم قمت فجأة، ولبست قميصك النايلون الأبيض، وخرجت من عندي، دون كلامَ، وعلى الأخص دون أي نقطة دم.

قامتْ من جانبه، ضمت عليها قميصها الأزرق الفاتح المفوّف بوشْي ملفلف من نفس نسيج القميص، قصيرا على فخذيها السمراوين البضتين، وذهبت للمطبخ، التفتت إليه بعد لحظة، وهي خارجة:

–حان الآن ميعاد القهوة. أعمل لك معي؟

قال دون تعليق : نعم

لماذا هذه الفانتازيات منها؟

أم أنني أنسى؟ أنا الذي تسقط على وعيه ستُر وسُدُفٌ فجائية في مواقع

غير متصوّرة، لأسباب غير منظورة؟

- ربما ..

-مستحيل..

كانت سوناتا هايدن رقم ٦ ، مقام ري كبير تترقرق بتموجات رنين البيانو،كأنه اصطفاق كريستال مرهف وعقلي جدا، باهتزاز نسمات نورانية تقريبا، ودخان المحرقة يصعد من داخلي، من غير دعاء، من غير استجابة من شيءٍ ولا من أحد.

قال لها : تذكرين سائقة التاكسي التى وصّلتنا للمعادي عندما أحضرنا لك الهاي فاي ستريو، الوحش الموسيقي الرابض أمامنا هناك؟

قالت مبتسمة قليلا من التذكر :نعم، طبعا.

قال : والكلب الوولفّ الهائل الرابض جنبها، بعينيه الوديعتين؟ يمكن كانت أيامها سائقة التاكسي الوحيدة في مصر.

قالت : تعرف ؟ على رغم صوتها العالي وما قد يخدعك..

قال : يخدعني أنا؟

قالت : لاياسيدي. أقصد يخدع أي أحد. الله! هذه طريقة في الكلام يعني.. منذ متى تدق على الكلمة؟

قال : طول عمري.. يرجع مرجوعنا..

قالت : أيوه ياخويا ياحبيبي يانور عيني.. يرجع مرجوعنا.. كنت أحاول أن أقول إنه على الرغم من صوتها العالي، يعني، بخليك تتصور أنها خشنة الطبع، فهي في صميمها رقيقة، بل تكاد تكون غير منيعة قابلة للتهشيم

بسهولة، زيّ كل الولايا..

لم يقل لها : عمّن تتكلمين ؟ الست أم دنيا أم الست أم منال؟ هل هذه بهية شعبان أم رامة ناجي؟

بل قال : ياه..لابد أنها بقي لها أكثر من عشرين سنة في هذه الشغلة.

قالت : هل تعرف أنها حكت لي حكاية حياتها، يومها، بينما كنت قد دخلتَ تسأل وتخلّص الورق؟ لا أعرف لماذا يحكي لي الناس قصة حياتهم، بمجرد أن نتبادل التعارف تقريبا، يفتحون لي صدورهم ويسكبون عليّ مافي قلوبهم، هكذا دون حساب..

قال : أنا أعرف لماذا. لأنك ياحبيبتي عطوف، بل حارة الانعطاف. لأن فيك حنانا داخليا لا تعرفينه - ربما- ولا تعرفين كيف تكتمينه، أو تحبسينه، يعني، وأحيانا، يمكن، تعرفين جيداً كيف تستغلينه، بمعنى من المعاني، على كل حال، يرجع مرجوعنا..

قالت: دعك من هذا، أنت تقوله لأنك تحبني.. وحبيبك يبلع لك الزلط، المعقول أكثر أنني ساذجة، أن الناس يهيلون عليّ شكاواهم، وبلواهم، لأنني صيدة سهلة للعواطف..

قال :أنت، صيدة؟ أنت - أكثر - الصائدة الأولى، ديانا الإلهيّة، إيزيس قنّاصة العقاربَ.. المَهم احكي لي أنتِ، بقى، ماذا قالت لك الست أم دنيا، يومها؟

قالت : أبدا، حكاية مألوفة وقديمة. مات أبوها وأمها وهي تلميذة في الإعدادية، كان أخوتها الكبار، على حدّ قولها، أخذوا طريقهم في الحياة.. إشي مهندس، وإشي صيدلي، قال، وأختها مديرة في شركة، وأخت ثانية متستتة في بيت العَدل - عقبى لكل الولايا يارب! - وتقول لي فانتازيات!

شوف ياسيدي الشغل على أصله، كل أحلام البورجوازية الصغيرة كما كنا نقول من زمان، الشاهد.. الست بهية شعبان كان نفسها في الغنى السريع والفلوس الكثير، نفسها وزتها تبقي سواقة تاكسي، قال إيه؟ قال دي شغلة تكسّب دهب، وبعدين فرّت الأيام، أيام تشيلها وأيام تحطها، لقيت نفسها لا هي غنية ولا هي تقدر تعمل حاجة ثانية، عقدت على الشغلانة، مصير سواق التاكسي —أو سواقة التاكسي يعني — واحدة من اتنين، إما الموت في حادثة على السكة، وإما السجن في حادثة ثانية أو بقي العجز والتكسير والعياذ بالله.. آدي الحكاية، بسيطة وعادية ، ومحزنة قليلا.

قال : ليس في الحكاية جديد يعني، إلا في طريقة حكايتك لها، أنتِ، بصوتك، بكل جسمك، شهرزاد مازلتِ..

قالت : انتظر أكمل لك. «في يوم وقّف التاكسي ولد حليوه، طلع، لما حس إن قلبي انفتح له، قال لي تسمحي؟ وطلع قعد جنبي بيني وبين ركسّ، جرئ، الكلب بدأ يزوم لكن هدأته، والكلب باختي فهم، وسكت، زيّ ما يكون اطمأن له، هوّ كمان. قصره.. كان في آخر سنة في كلية البوليس» .

قال : شووفي..!

قالت : وعنها ياسيدي تكلموا، والعيون تكلمت، وحصل المقدر والمكتوب.. قالت لي يومها إنه عندها رنده في سنة ثانية ابتدائي، وزوجها وصل لرتبة كبيرة في البوليس، وهي تظل فخورة بعملها، لم يحاول أن يمنعها عنه. قالت لي: «مهنة شريفة، والحمد لله ربنا أكرمني، عندي تاكسي ملِك اشتغل عليه لحسابي ولا إمارة أصحاب العربيات» .

قال : امرأة قوية.

قالت : يعني.. نعم، من غير شك، وهشة جدا في الصميم، أيضا. الكلب الوولف الضخم، المسدس الذي لم تره أنت، قالت إنه لايفارقها ليل نهار، حتى في البيت تضعه تحت مخدتها، بحكم العادة، بحكم لاتقدر أن تقاومه، ولم تستخدمه قط، قالت لي: «ياختي الكلمة الطيبة أحسن سلاح.. إحنا ولايا ونفهم بعضنا. الكلمة الناعمة تخلي أجدع راجل ينخّ.. مش كده ياحبيبتي؟»

قال : عارف.. عارف.. تقولين لي؟

قالت : تكلمنا عن الست بهية شعبان كثيرا.

قال : أبدا.. كالعادة لم نتكلم إلا عن أنفسنا. هل تكلم أحد أبدا إلا عن نفسه؟

قالت : هل سمعت آخر أخبار القضيّة؟

قال : قضية سرقة التمثال من منطقة الأهرام؟ أليس كذلك؟ التمثال الذي كان معروضاً في زيارة حسني مبارك والقذافي سنة ١٩٩٣ ؟

قالت : اتضح أنهم هربّوه في طرد فيه تماثيل مقلّدة، اصطناعي، وقالو عنه تمثال غير اثري، من غيرأي قيمة، تعرف هبّروا كم؟عشرةآلاف مارك ألماني، أصل الطرد راح ألمانيا فعلا، وألف وسبعمائة جنيه مصري.

قال : اتمسكو؟

قالت : يوه .. واحد هرب، الثاني كبير مفتشي آثار سقارة، وبعدين واحد مخبر سري، وتاجر آثار، وثلاثة من مفتشي الآثار في المنطقة، نيابة أمن الدولة العليا حوّلتهم على المحاكمة.

قال : أنا نسيت الحكاية. كل يوم، كل يوم حادثة. مافيا الآثار لا تقل عن مافيا الإسلام. كله متاجرة ، ومزايدة ونهب وتلويث لقيم عليا هي كل مجد هذا البلد.

قالت : الدور والباقي على الغلابة. الفلاحين في الصعيد أو في الشرقية. ياسيدي وصلت الهيئة تقارير عن مقبرة فرعونية اكتشفوها داخل بيت واحد فلاح في قرية اسمها قرية مرعي في الأقصر. المقبرة كانت في الحوش البراني للبيت، حسب الوصفة التقليدية: بهو عرضي بعده ردهة طولية ومنها إلى بهو عرضي آخر فيه أربعة أعمدة. على السقف كان فيه آثار رسوم وكتابه ممسوحة وفيه فتحة تؤدي لسرداب حلزوني منحوت في قلب الجبل بطول ٤٥ مترا، تصوّر، من جوه البيت تطلع الجبل، وفي الآخر غرفة الدفن، كالمعتاد «أنوبيس» هو القائم بالتحنيط، بين إيزيس ونفتيس اللتين ترعيانه، وأيضا في التربة خرطوش ملكي لتحتمس الثالث، وبقايا عظام وأجزاء من جمجمة ملفوفة بلفائف كتان التحنيط، مشبعة مازالت بالقطران.. كل ذلك في بيت الراجل، طيب هو ذنبه إيه؟ الراجل وعي على بيته من أيام أجداده، فيه تربة ملكية يمكن، هوّ ماله؟

قال : ليست هنا قضية على ما أظن. إلا إذا كان يخفي التماثيل أو الحليّ؟ يمكن لأنه لم يبلّغ.

قالت :من الذي يبلّغ؟

قال : على رأيك.

كانت الأباجورة على الأرض، نورها يصعد إلى أغصان شجرة القشطة الوارفة، المشربية يتخللها آخر نور المغيب ويعيد إليها ترف دانتيلا الخشب المخروط بتفريعاته الدقيقة المتواشجة متكررةً بلا نهاية تحمل لا نهائية

المعني الملتبس الذي لم يستطع قط أن يصل إليه مهما شارفه وكانت وجنتاها الناعمتان تتحددان بقوة في لعبة النور والظل الصاعد من تحت، وهي على الصوفا، فخذاها الكبيرتان اللدنتان على ساقيه، والعمود منتصب في غير حدّة، وشعرها الكثيف منسدل على جانبي الوجه، ثابت لايتحرك، قناع مومياء ملكية، قال لنفسه: «ياساتر! أعوذ بالله! لماذا تطوف بذهني صورة مومياء حتى لو كانت ملكية أو إلهية؟» قال لنفسه: «الإلاهة لاتموت. ليست لها مومياء. نضرة أبدا، وبكراً أبدا، أريدها كما هي الآن ساكنة حقا ولكن متوفزة بحيوية مكتومة بالكاد، سوف تتفجر الآن - كما أتفجر -بعرامة شهويّتها وحسيتّها ووهج لذتها. كان أنفها الصغير المرهف في الظل، النور تحته، مكتّن في عتمته الخاصة، يبدو وحده، مثيراً للرغبة. مفتاح عنخ الفضي على جيدها، قد نزل في شق الوادي الخصيب بين نهديها اللذين ثبتا راسخين على صدرها لايحجزهما شيء، حريتهما كامنة.

قال لها: أتعرفين يارامة، مهما رأيتك في أوضاع النور والظل - فلست أنت موضوعا ولا أنت شيء مرئي. أنت تظلين تدأ، ورصيفة، واقعةً حية هنا وفيما وراء الواقع معا.

قالت له، وهي تنحني عليه ببطء قبل أن تبوسه بخفة: دعك من هذا الشعر الجميل، خلك معي أنا.

وكانت قبلتها بعد ذلك طويلة ومتمهلة، ترتفع حرارتها بالتدريج، أنفاسها تتسارع، يدها الرخصة تحيط بالعمود، في رفق أولاً ثم في تطلّب لايمكن أن يرد.

قال: أين هذا التجسّد - حتى لو كان تلاشيا - من الأشواق والحوارات والتصورات السرية التي تدور حول نفسها - في الصمت - بلا

نهاية.

مَنْ ينقذني من خياناتي السرية!

تضيق جنبات العالم بالشبق الطامي الذي يرتطم بالغضب، من غيرانتهاء.

كانت مُعْطَاة.

بحركةٍ من قدمها، وهي مازالت عليه، انطفأ نور الأباچورة، وانسرب إلى الغرفة الوثيرة ضوء المغرب الأخير، وحده، سمع فجأة خرير نافورة الماء الصغيرة على الفسقية الوسطانية، كأنما كان النور الكهربائي يحول دونه، ولمعت عقودها وأساورها الفضية الضخمة الملقاة بتناثر محسوب على الشكمجية، كأنما كان النور الكهربائي يطفئ هذه اللمعة الداخلية منها، وكانت رائحة نبات القشطة المحايدة عادة، قد سطعت فجأة، لها وجود ملموس.

هي الآن بين ذراعيه معطاة، كاملة بلا أي فقدان، تامّة الوجود وتامّة الغياب معا، لأن نشوة العشق قد استغرقتها حتى لم تعد هناك أدنى ثغرة في امتلائها بها، حتى لم يعد هناك إلا هذا الانتشاء وقد تلبّسها كأنه أزاحها وحلّ محلها، لكنها هي التي تتجسد فيها النشوة، في كل ثنية وكل طية من جسدها الباذخ المبذول، في كل التلاصق والتّماس الانصهار الاندماج، وهي مع ذلك بكتلة جسدها البضّة الصرحية كيان آخر، كأنما هو مقسوم بينه وبينها، واحد واثنان معا، هوذا العالم كله في حضنه يذوب فيه ويظل صاحيا لنفسه، هو. العالم، يشدد عليه أسره وقبضه حتى ليريد أن يموت.

يصرخ صرخة التحقق التي لامثيل لكمال روعتها وتمام سكْرتها، نشوة

تفوق كل ما يستطيع الجسد المجّرد أن يصل إليه.

الجسد جميل.

ليس هناك غير الجسد.

لكنه ملتبس، البيد القفار تعدو على نضرته، بداوة تغزو غضارته، عراقته الشامخة تتحات، أعمدة الكرنك مائلة وقبة البازيليكا الكبري مشروخة ينخر في أسسها سوس لايعرف غير الظلمة مأوى ومتاعا. كيف أطوّع جسدي ثنائيا بل متعدد الطوايا؟ الاتّساق لا الالتياث مطمحي لكن وهدة الوادي ترزح تحت حبوسٍ سلفية.

ياحبيبتى الساتورنالّية، شباك المعرفة مطروحة تحت أقدامك، تلتف حول أسفل ساقيك العظيمتين، بذخ الشبق ينفرط عن أوصالك الممنوحة للذبح ياباكانالّية تحت شارة الثور المؤنثّ تبذلين نفسك، تهبين جسدك للعابرين والمعطوبين، تستمتعين بأنوثتك المسكوبة وتمتلئين زهوا، لحمك الأنثوي ينبض على الأرض يخصبها بينما تحاصرك زبانية الصحراء يفوحون برائحة حريفة من السائل الأسود المتدفق هدرا. المعابد في إدفو والسيرابيوم والهيا كل المسماة على القديسين والبخور المحروق أمام أضرحة الأولياء الصالحين كلها تخلت عن أمجادها وسقطت في براثن التسطيح الإليكتروني أنت العارفة بالألسن قد استباحتك سطوة الكمبيوتر وتفاهاته المتقنة غاية الاتقان.

ياحبيبتي، هل تسقطين أبدا؟

قالت له :ياحبيبي. ياله من حنان. لا غرابة أنّ الحنان يوقف سورة العشق.

هل هي تتصوره هكذا وتحبه هكذا: حنوناً، معطاء، غير نهاب ولا مقتحم، أم العكس صحيح؟ ألم تقل له : «حبيبي لا توجعني» فهل كانت تراه – وتريده– عادياً مهاجماً بل جارِحا؟

قالت له : أنت متمهّل بطيء، تترشف خمرتك قطرة قطرة، ثم إذا بك منهوم تعبّ عبّا بلا حساب ولا تورّع، مندفع تتخبط بي وبنفسك في انطلاق شهوتك.

قال لنفسه : عادي. الناس مزاجات وأحوال. سبحان من لايتغيّر.

لم يتحمل أن ترتد سخريته عليها، بدلاً منه.

قالت له : حتى في عملك وليس في الحب فقط أنت تفشل عن الفعل، تتأمل، تنظر إلى بعيد، تحسب النتائج وتتخيل العواقب، يتصبب منك العرق وأنت جامد هامد بلا حراك.

قال : ثم أندفِع، أهوّج، أرعَن، قاذفاً بنفسي إلى التهلكة، إيقاعي – في العمل وفي الحب – ليس منساباً ولا سلسا، بل هو متوتر، متقطع، مفاجئ التوقفات، مفاجئ الانبثاقات.

أخذت رأسه، برفق إليها، وهي تبتسم نصف ابتسامة سرِّية.

خطر بذهنه خطفا : «كأنما تأخذ إلى نفسها صورة من نفسها، أو جانباً من جسمها نفسه، في أحد تشكلات هذا الجسم الغنّي العريق، كأنهما مثْلان، وما أشدّ تغايرهما في الوقت نفسه.»

قال : كنتُ هجّاما مقحاما وضاربا كالسهم. ما الذي أوقف السهم في طيرانه؟

قال حزقيال النبي : «إن هذا الباب يكون مغلقا لا يفتح ولا يدخل منه إنسان لأن الربّ دخل فيه فيكون مغلقا».

الباب قدسيّ. لايدخل فيه إلا روح الله.

قال : كل مرة أصعد إلى بيتك أتردد أن أولج المفتاح في ثقب القفل، كأنما لا أعرف - أو كأنما أخشى - ما يخبئه الباب وراءه، يهجس بي أنني سأدخل إلى بيت لا أعرفه، غريب عني غربة نهائية - وليس هناك في هذا العالم كله موقع أقرب وأحبّ إليّ منه - كأنني وراء الباب لن أجدك، وقد ضاع مني هذا الجسد الجميل، فقدت الروح القدس.

قال لها : هل تعرفين أنك تحبين جسدك بل تعشقينه عشقا مطلقا؟

قالت : بطّل أوهامك، بقي.

قال : حب الجسد بالمطلق، أعني. جسدك هنا ليس إلاّ جسد العالم، جسد كل الرجال كل النساء جسد كل الأشياء، جسد السماء نفسها، جسد النجوم والقمر والأحد عشر كوكبا، جسد الياسمين غضاً على شجرِه أو مجتثا مضروبا على ناصية شارع سليمان، جسد فرس البحر وبقر البحر والدلافين الذكية التي تشق البحار بحثا عن رفيق، جسد الدلتا مفتوحة الساقين على البحر المختلط بالأوشاب والأكدار والطميّ الخصيب، جسد الصعيد القضيبيّ المنتصب رمحاً سمهرياً لاعوج فيه، أو العوج يؤكد قدرته اللانهائية على الاختراق، هل أصابه الذبول بعد السدّ العظيم، أم كامنة فيه قوة أسره وطغيان سطوته؟ تشرد الجسد بين أجساد العالمين، تتناوبه وتسقطه لكنه يظل مطهراً بكرا وملؤه عجينة الأقدار الخمرانة بالمستحيلات. أنت تحدثين جسدك، ويحدثك. وحواركما لاينتهي، هل أنا فقرة، جملة، كلمة عابرة، في هذا الحوار؟ أم لعلني مجرد نبرة زائلة في تهدج الجسد وصلوات

تهجّده العذبة المرهفة؟ سلطة هذا الجسد مطلقة.

ومع ذلك فقد قالت له : اعملْ معروف، كفاية، أنا جتتي مش خالصة.

قال :نعم، جسدك خالص الجسدانية، لكنه غير مصمت، غير خالص الوحدانية.

قال لنفسه : هي أيضا تألفُ جسدها، تأنس إليه، ترتاح معه.

وهي عارية، أو شبه عارية، جالسة أو نائمة، أحس دائما أنها قريبة إلى هذا الجسد، مطمئنة إليه، بل سعيدة به، يعني سعيدة بمجرد وجوده، بمجرد عريه وتجرّده، وتحرره ونقاء معدنه المليء الكثيف المتطاير من خفتّه في الآن نفسه، طيّع ولدن وقابل للتشكل على ألف نحو.

قال : أما أنا فجسمي غريبٌ، عصيٌ عليّ، غير مطاوع، جامدٌ مفصوم. أذلك لأنه جسم صلب، جاف، أريده، مع ذلك هينًا رخيًا منسابا؟

قال : معها عرف هذا الجسم نفسه إلى حد لم يكن يتصوره من قبل. معها تسنى له أن يخرج عن صومعة رهبنته القبطية، أن يسلس له قياده بل أن يعطيه ملء الجموح في انطلاقه معها، وصاغ لنفسه شكلاً يوافق جسدها، فيما أرجو، على الأقل.

على فنجان القهوة المحوّج ع الريحة، حكت له سَفَرَها أمس، بمناسبة ترقيتها «مدير عام آثار المنطقة الوسطي» قالت إنها مرت بالمنيا في طريقها إلى تفقد موقع الحفريات التي تقوم بها البعثة البولندية.

«عم أحمد العربجي جاء إلى المنطقة، وبارك لي: «إلهي يعلّي مراتبك

كمان وكمان ياست رامة ياللي تتحطي ع الجرح يطيب، إلهي يدّي لك من نعيمه» كان وجهه في الحرّ مزروداً لكنه لم يخلع الجاكتة التي شكّلها ميري على جلابيته المقلّمة، في حرّ مارس الذي بدأ يشتد. كان مازال يلف الكوفيّة على رقبته، ولم يتخلّ عن طربوشه القديم الذي ينز جلده بالعرق على منديله الكبير حول رأسه المتين قويّ العظام.

كانت البلد تغلي. خطفوا أمجد وعادل من يوم الاثنين.

قال لي: عم أحمد العريجي: المقدّس عوض لبيب؟ مين ما يعرفوش عاد؟ من أخير الناس الجوادم في البلد. مأصّل عاد أباً عن جد. ناس مبسوطين منّنا و علينا، الله يجازي اللى عملوها بجى.

- عملوا إيه ياعم أحمد؟

- عتعرفي توّك ياست رامه. عهداً عليّ ما انا جايل شيء. ربنا يسترعاد.!

قالت : كان واضحاً أنه على قوة قلبه متوجس متحرّج بل خائف خوفا صريحا. لكنه أخذني إلى بيت المقدس عوض لبيب.

كانت أرض الشارع المترب الضيق منثورة بالحجارةوالطوب وأكوام صغيرة من الرمل. قبل أن نصل للبيت كانت أسراب الذباب الكثيفة تطنّ وتئزّ تكاد تغطي سحابتها الجهمة المتقلبة جثة حمار نافق مرمية أمام أرض خراب فيها تلال من الزبالة وقد جفت وتطاير منها الورق، في الهواء السخن، وبرزت منها قطع الحديد الصدئ وعلب صفيح مطبقة وخشب مسودّ وبقايا كراسي محترقة وشظايا مرآة كبيرة. أنت تعرف قوة احتمالي لكني لم أستطع، سددت أنفي وفمي، الرائحة لاتطاق. وكان وقع الشمس شديدا.

عرفت البيت على الفور.

كان يقع تحت أجَمة صغيرة من ثلاث نخلات ترتفع شاهقة وعريضة السعف خلفه، في خفاء غامض، وأمامه شجرة نبق ضخمة الساق وارفة ومعقّدة الفروع تظلل سقف البيت.

لكن الباب كان محترقا تماما، حلت محله عوارض من الخشب متصالبة موثقة بمسامير ضخمة على حلق الباب، الدور الأرضي نوافذه كلها سوداء ، وفاغرة وعلى الحيطان الخارجية ألسنة ثابتة من الدخان الأسود تصعد من النوافذ حتى الدور الثاني، ولمحت الغرف الخاوية على البلاط يضربها نورالشمس القاسي مازالت على أرضيتها آثار برك مياه داكنة لم تنزح بعد.

لم يفتحوا لنا – أزاحوا عارضة خشب قريبة من الأرض – إلا بعد أن ناديت : يامقدس. أنا مديرة الآثار يامقدّس، عايزة أكلمك إحنا كلّنا عيش وملح السنة البارحة مع الست أم أمجد ومعاك.

بصوتٍ عال.

دخلت من ممر ترابي ضيق أرضه مبلولة، إلى المندرة الخلفية الرطبة التي تظللها شجرة النبق الضخمة، في الممر كانت رائحة خفيفة حريفة من أثر الاحتراق، ورطوبة من المياه المسكوبة التي نشفتها الشمس، وأثارة من حلاوة ثمار النبق مبكر النضج.

المندرة مفروشة بطقم أسيوطي، والرجل كان ينتظرني وحده. تبدو عليه أمارات قوة آفلة وفتوة قديمة، ينظر إليّ بعينين خيّل إليّ أن فيهما دموعا لم تنزّ، وبنظرة خبيرة بالنساء في الوقت نفسه، اسألني أنا بقى عن نظرات الرجال، وجهه مدور غامق وبه آثار جدري قديم. عليه نعمة الغنى والسلطة ما زالت سيماؤها واضحة في الخدود المليئة، واللُّغد، والكرش الصغير تحت الجلباب الحرير والبالطو الكتان الخفيف. أما العمة البيضاء المزهّرة. زيّ

الفلّ– فهي بالضبط عمّة جدي – يعني أخ جدّي على الدقة، الشيخ أمين، هو أيضا كان من نجع حمادي.

قال لي : خطفوا أمجد.، كانوا سبعة ملثمين، ولكن اللحى طويلة سوداء. والجلاليب باكستاني قصيرة على سراويل ضيقة بيضاء، وأحذية لها شكل ميري عسكري كأنها جاية من مونة الجيش الأمريكاني وحياة المسيح الحيّ. بعد قليل رنّ التليفون في البيت، قالوا لنا : «سيبوا البلد، ارحلوا، اتكلوا على الله وسيبوا كل شيء والا حنحرقكم أنتم وكل ما تملكون بحول الله». أي و الله، طبعا بلّغنا البوليس، عينوا لنا قوة بقيادة الصاغ محمد حسين المناديلي الله يستره. لكن بعد صلاة الجمعة هجموا علينا ناس كثيرة. الرائد محمد كان على سطح البيت أمامنا، والقوة كانت صغيّرة وواقفة على جنب. أغلقنا الأبواب وطلعنا فوق. الرعب كان سيعمي الجميع. لكن العيال –عندي تسعة عيال، باسم الصليب وشارة الصليب.. -

قاطعتهُ : الله يخلي ..

استمر : كانوا يصرخون. نطّوا إلى السطح المجاور.تركناهم وديعة عند جيراننا عائلة الشيخ جابر المحمدي الله يسترهم ستروا علينا وعليهم وحطوهم جوا عنيهم. قلت للصاغ محمد «نردّ عليهم بالطوب والحجارة من فوق سطح بيتنا ؟» قال لي «لأخليكم عاقلين أمّال ، عليكم بضبط النفس وعدم الردّ، التعليمات كده». طيب. التزمنا الهدوء وضبط النفس لغاية ماحرقوا المصنع والمدشة والعربية البيجو والمخازن والآلات، والدور والباقي على البيت ، زي ما انت شايفة. كل شيء راح لحاله. منه العوض وعليه العوض، لغاية الوحتي ما اعرف فين أمجد. قالوا سلّموه للأمن المركزي، لاأحد اتصل بنا ولا أحد ردّعلى أسئلتنا. ستة أيام، لاهوّ ولا عادل باين لهم أثر..

لماذا خطفوه ؟ والله ما انا عارف يابنتي.قالوا كان يوّصل الطالبات إلى المدارس في المنيا، في العربية الملاكي».. طالبات من عائلات جيراننا ومعارفنا مسلمين وأقباط على حد سواء قالوا «لا» «لايصح للنصراني أن يوجدفي السيارة مع المسلمات» قالوا لابّد نرحل، لماذا نرحل ؟ لن أترك أهلي وناسي وبلدي، لن أترك لهم عظم أجدادي في ترب العائلة.ليست هذه أول مرة يابنتي، لم نترك لهم البلد عندما كانوا يعلّقون في أعناقنا صلبان الخشب الثقيلة ويرغموننا على لبس الزنار وركوب البغلة بالمندار، أنت أثرية وتعرفين التاريخ، كفاية الذين رحلوا، هاجروا، كفاية سرسوب الدم الذي نزف من أرض الوطن، وانسكب هدرا في الغربة».

قالت :هل أحتاج أن أقول إن قلبي أوجعني. قلت : لا.. مابدّهاش.. لازم أصل إلى قرار الموضوع، قلت أذهب أولاً إلى المطرانية في المنيا، أتقصّي، أطقّس.. بالقرب من الباب الحديدي الكبير دبابة صغيرة مدفعها موجه إلى الخارج يقف أمامهاجندي شاكي السلاح على رأسه بيريه أسود، وسيارة أمن مركزي سوداء يتكدس في مؤخرتها الجنود بملابسهم السوداء، يتثاءبون في الحر الخانق يستندون إلى أحدهم الآخر من الزحمة، كرسي خيرزان أمام الباب، في الظلّ، عليه ضابط شاب، ملازم أو رائد يمكن سألني دون اهتمام إلى أين ؟ قلت عندي ميعاد مع سيدنا قال الشنطة من فضلك، فتحت له حقيبة يدي.لم يكد ينظر إليها وأشار إليّ بالدخول.

الأنبا أرسانيوس، أسقف المنيا وأبوقرقاص، مع شيبته ولحيته الشهباء بدا لي في عنفوان رجولته، نظارته الطبيّة ذهبيّة الإطار على آخر موضة. لا تخفي وداعة العينين العميقتين بحكمة غير مألوفة، قال لي إن «المنشورات» التي أشاعها الإسلاميون تذكره بما ذاع من قبل : أنّ الطرح البيضاء للفتيات المحجبّات تظهر عليها صلبان يصنعها الأقباط، قال «نحن نعمل كل ما

يمكن لتهدئة النفوس وامتصاص الغضب عند أبنائنا بالاجتماعات الروحية والقداسات الإلهيّة، أملاً في إشباع الناس بروح الرجاء والثقة».

قالت : كنا في قاعة الاستقبال في المطرانية. الكراسي المذهبة القديمة أعيد تذهيبها وتنجيدها بقماش أحمر مشجر لميّع، داير ماتدور تحت الحيطان التي عليها صور مطبوعة للمسيح والعذراء ومارجرجس، في براويز زجاجية، وفي الوسط مائدتان طويلتان سيقانهما خشب مشغول بنّي غامق، وعلى كل مائدة بلاطة بلّور ثقيل ومفارش صغيرة مشغولة بالبروديريه على شكل صلبان كثيرة صغيرة.

قدموا لي ، دون سؤال، فنجان قهوة مذهّب الحواف وكركديه أحمر مع ماء مثلج زجاجه مندّى من البرودة، ولم يشرب المطران شيئا.

كانت النافذة الطويلة عليها قضبان حديدية واضح أنها حديثة التركيب تطل على فناء المطرانية الواسع أرضه رملية ممهدة تضوي في الشمس، وعلى مباني الكنيسة القديمة، وفي الحوش حركة مستمرة من القسس والشّبان يروحون ويغدون في صمت وهدوء.

أكمل المطران حديثه :«يابنتي كانوا يرسلون خطابات تهديد إلى أعيان الطائفة، يطالبونهم، هكذا صراحة، بما يسمونه «الجزية» من عشرة آلاف إلى خمسين ألف، فاذا تأخروا كانوا يفتحون النار بمجرد أن يفتح لهم الباب على كل من في الدار، ويختفون في الزراعات. الأمن لايصل إلا بعد ساعات، والقضايا تحفظ، تقيّد ضد مجهول، أو لعدم كفاية الأدلة، أو تأخذ مجراها سنوات وسنوات في المحاكم».

أجاب : «لا .. لا أعتقد أن الحكايات التي تقال عن الاستفزازات، والتدريبات العسكرية في الكنائس، أو تكديس الأسلحة في الأديرة، لها أي

أساس. نحن ناس مسالمون، قال لنا الرب «أحبوا أعداءكم باركوا لاعنيكم» هأنت ترين بنفسك، هل هذا مكان يشبه قلعة عسكرية كما يقال، أو مخزن سلاح؟ نحن على استعداد أن نعمل لك جولة في كل مباني المطرانية وأن نفتح لك كل الأبواب إذا شئت.»

قلت : لاياسيدنا.. حاشا لله.. غير معقول.

قالت لم يكن الأمر يحتاج إلى ذكاء أنه حتى لو كانت هنا ترسانة أسلحة كاملة فلم يكن سيتاح لي أن أراها بأي حال.

قالت: أصل الحكاية ياسيدي أن المنيا كلها كانت في حالة توتر أكثر من المعتاد.

قالت : أصلُه بعض المحامين والمدرسين، وزوجات كبار الموظفين يعني، أنت عارف هذا النوع، الذين كنا نسميهم، زمان ومازلنا «البورجوازية الصغيرة» أو «المتوسطة» حتى، اجتمعوا، لَمّوا بعضهم، في نادي الموظفين، في البيوت، في الكازينو تحت على النيل، وعلى الشاي والكيك والذي منه اتفقوا أن يضموا أعضاء من «جمعية أبناء العهد المقدس» ومن «جمعية الدعوة الخيرية إلى البر والتقوى» ياسيدي هم، كده، على بعضهم، بكل حسن نية وبروح الوحدة الوطنية اتفقوا أن يعملوا جمعية لرعاية الأمومة والطفولة، هذا الكلام من أسابيع، وطبعا جاء محافظ المنيا بنفسه، اللواء عبد الغفار رضوان، وافتتح الجمعية الجديدة، تعرف، في وسط مظاهر الاحتفال المعتادة: الموتوسيكلات، صفوف البوليس على الجانبين، حبال الأنوار المعلقة على الحيطان، اللافتات والشعارات على قطع القماش البيضاء المخرّمة الممدودة على الشارع، والخطب التى تعيد وتزيد في حكاية الوحدة الوطنية وخدمة أهداف المجتمع.

قالت: لأطبعا . كيف تسأل؟ لست طبعا ولايمكن أن أكون ضد الوحدة الوطنية. أنا ضد الشقشقة بالكلام، والاكتفاء بالخطب وتبويس الدقون ثم الانفضاض..

قالت: طيب أفوّتها لك هذه المرة، فقط، إوعَ بقى تكررها ياحبيبي. لأ أنا عارفة.. أنا عارفة.. المهم أن البلد فجأة غمرتها المنشورات وشرايط الكاسيت التي نزلت فجأة بالمئات: «مستعمرة صليبية في المنيا.. مخطّط نصراني تقوم فيه الجمعية الإسلامية بدور المنفّذ أما الجمعية القبطية فهي المموّل والمخطّط ورأس الحية المدبّر». لكن الأنكى هو أن المنشورات تحكي عن أن بعض «الصليبيين» يروجون مجلات الجنس، يديرون شبكات للدعارة، فيها بنات أجنبيات شقراوات.. خد عندك ياسيدي..

أخرجت من حقيبتها الضخمة المزدحمة بأشياء كثيرة والمفتوحة دائما عدة أوراق، يبدو عليها أنها كانت مكوّرة ثم بسطت، وأنها استنقذت من وسط نفايات مهملة، وقرأت بصوت يتهدج غضبا: «امسحوا العار يامسلمين.. بايعوا الله على محاربة النصارى الفجّار حتى الموت.. في صالة متسعة يدار ڤيديو بفلم جنسي خليع، يجلس في نواحي الغرفة كل صليبي مع عشيقته المسلمة الصغيرة، مدحت مع ميرڤيت، سعيد مع منى، أشرف مع حنان، حازم مع منال، وشريف مع هالة، وأخريات من طالبات الثانوية العامة والإعدادية، يشترك في هذه المؤامرة صاحب العمارة، وهو صاحب بوتيك «مونت كارلو» ومعهم عادل النصراني المشهور بالضبع.»

أو خد عندك أيضا بالنص «أشعلوها ناراً تزلزل الأرض تحت أقدامهم، وفق الله خطاكم، من قتلٍ دون عِرضه فهو شهيد له الجنان والحور العين..» وهكذا، الهوس الجنسي استبد بهم حتى الآخر، اسمع ياسيدي «أعراض المسلمين بين اليهود والصليبيين» المخدرات، المجلات الجنسية الفاضحة،

الضحايا ١٢ طالبة مسلمة وفوق البيعة حتى تصبح الحكاية مسبوكة واحدة مسيحية..

كل شيء عندهم يوظّف لإثارة مسائل الجنس بشكل معكوس، إدانة، وسخط هو نفسه تعلّق واتجذاب، يقرأون الكتب السماوية بغرائزهم.

ثم خذ أيضا، بالحرف الواحد: «ياجلادي أمْن الدولة.. وصلنا ردكم على مؤامرات النصارى باقتحامكم مسجد الجَمعية الشرعية وحراستكم للكنائس وتعذيبكم للمسلمين وحمايتكم للصليبيين.. كل ذلك ليس له معنى إلا الدمار والطوفان وعندها لن ينفع الندم، فإننا حددنا هدفنا ورسمنا طريقنا، دون مساجدنا وحرماتنا الدم والقِصاص.. فارتقبوا وإنّا مرتقبون».

بعد ذلك لم يكن غريباً ما حدث في البلد من تدمير أعمى، وجنون.

قال: لم نَحْتمِ بحبنا وحده من عصف هذا الجنون، من رعب إمكانات مستقبِل مظلم، بل كان الحمى والملاذ حقاً هو إيمان قائم راسخ، ربما غير مبرر عقليا بأن الوطن سيظل أبداً جسدا نقياً، مهما كان ملتبس التكوينات.

لذلك أوينا إلى الداخل في آخر ليلنا.

كانت قد كتبت له، في زمنٍ آخر:

«كيف بيتي الجديد إذن؟ في استراحة المنيا أنت وحدك فهمت مدى أهمية الانتماء إلى مكان، وكيف أسارع إلى إقامة قلاعي الواهية القوية معا حيثما ذهبت لأدرأ التنانين والأشباح. وهكذا فعلت. جئت وبحثت واكتربت. جئت بالسيارة في رحلةٍ استغرقت ساعات عديدة، حملت معي ملابسي وبعض الأغطية وبعض الدمّي ودبّتي التى تعرف، وعسكرت في البيت الشاغر لأشرف على طلاء جدرانه. تعال اذن لتراني، ولأحدثك عن

«الزمن الآخر» الذي عشته معك مرة ثانية.؟ ألا أتيت؟ أم آليت على نفسك الاكتفاء بالزمن المادي «خرونوس» وأوصدت أبواب الزمن «خيروس» فنفيته إلا من الذاكرة؟ تعال.»

ياحبيبتي جئت لكني لم أجدك. فكأنني لم آتِ. هل ظللنا بعد كل شيء – غريبين ؟ التباس الأزمان في جسدك كأنه ينحّيني ويجمّدني، كأنه أيضا يجذبني ويغويني. فإلامَ؟

بيداءَ معشوشبةٍ يبابُها باهر أبيض أصهب إطباق متراكب ابتسامٌ مبتئس بهرج شاحب ابتلاء بالمباهج بركان بارد التباس القلب بغياهب بدرية أيدأً الخصب في أعقاب البوار؟ بذل أو نبذ بلا أبخس رغبة في ثواب أو عقاب دعابة بالغة العبوس وتقطيب أبواب مواربة وقباب منصوبة بصر غائب للأبد.

قبطٌ ضربتهم بداوةٌ غريبة عن بَدَنِ التربة الكهباء ولكن لاغلاب لهم دأبهم دَأب باقي أبناء البلد لابرء لما بتره الأقربون لكن الرباط بينهم لا ينبتُ ولايبلي بكاء الأحباب morbid ومربدّ.

هرابيد الجنوبيين أبهى من عباءاتِ امبراطوريةٍ مذهّبة هم يهبدون تربة كيمي بحثاً عن هبات الآباء الخبيئة.

الحبُّ لاحساب فيه بطلان الحب مشوبٌ حبّاتُ العنب كحبيبات البن صلبة ورطبة الحبُّ بنية لا تبيد وبحرٌ لجب بعادك ياحبيبة مخربٌ يضرب على قلبي بغروب لا مهابة فيه محبوس أبدا في ذبذبة النبض والصبابة براري الغضب ملتهبة القضيب يشرئب على ربوته. تبوأت القبّة وما برحت يبرّحني اللوب ومع الخباط أسبل على الحوب البهيم مسبحات الصبوات تنسرب بدداً ووثبة الهبّات تبوء بالحبوط الصبا يصبو صوّب القبور والبربهبط ويخبو مكتوب على الجبين أمنبوذ أنا أم رابض في لبّ حبيبتي ؟ حبب الصهباء باخ.

أتقلّبُ على أطايبَ باطنيةٍ في غيبوبة رضابها المحترب. باطلٌ الأباطيل قَبضُ الهَبوبِ لاتبقي على رطبٍ أو يابس أم أبجدية مكتوبة للباه مبتذلاً ومبجّلاً باؤها ربّةَ الأرباب.

فينوس البدائية مُهدرةٍ لكلِ نظامٍ مستتب، قوة مدمِّرة بجمالها وسطوة أنوثتها، هي مع ذلك حاملة بذور الخصب والنماء، سماء الحلم تظلّلها، حبلى بالثمر والمرارة، شائكة الأطراف، فينوس التي تصعد من موج الشهوات فتصيب الرجال بالشلل أمام روعة تجلّيها في عنفوان الجسدانية وعرامة الطلَبِ، جمود الأوصال وتعويق الاقتحام وسقوط الطواطم في زلزالِ المحبة وتحطم أركانها الحجرية على أرضٍ مصوحة شققّها الجفاف.

قالت له : «تجد في الدولاب، على اليمين، فوطة المطبخ الجديدة، يمكن وراء برطمانات المربّى والسكر والشاي». ولما لم يجدها قامت، في قميصها القصير العاري، ثدياها يرتجان وبطنها متماسك قويّ في استدارته المحبوكة، وانطلقت دون تردد، لم تنظر إليه حتى، ولم تتكلم، في صاعقة غضبها الخاطف سريع الانجياب سريعِ الانطفاء، عندما رجعت إليه قدمت إليه، دون كلمة، تفاحةً حمراء كبيرة لامعة القشرة، شكلها طازج ومغوٍ، وقضمت تفاحتها بأسنان حادة صغيرة، وابتسمت له، بعينيها النجلاوين وهي تمضغ قضمتها، ابتسامةً لايمكن أن يخطئ فيها معنى المصالحة والمسالمة والملاينة وطلب نسيان الغضب.

لم يتسم، لم يتكلم، وجد نفسه دون أن يدرك، تقريبا، ويده تمتد إلى كتفها العارية، يضمّها إليه، شفرة الأخذ والعطاء تدور بين الجسمين – وما وراءهما – دون كلمات، بإفصاح الإيماءة الذي ليس بعده إفصاح.

كانت قد قالت له، مرة: هل أنا أخيفك قليلاً ياحبيبي ؟

انفجر بقهقهة ضحك عفوي - لعلها أُخذت به قليلا ولعله مَسّ مشاعرها أو أساء قليلاً إلى كبرياء أنثوية فيها، لكن ذلك كان خطفةَ حسٍ مرت بها مثل رعشةٍ استقر بعدها جسدها وارتكن إليه - وكانت ضحكته رداً نهائيا على سؤالها، بمعنى ما، كان حنّوه الأكثر من جسمانّي ينفى عنها كل رهبة، لكن مهابة الجمال وهالة الأنثوية تظلّ غير منفية.

قال : كيف تجتمع فيك طزاجةٌ أوبكارةٌ كأنها طفولية وعزةٌ الحنكة المتأنية عنْ خبرةٍ عميقة بالرجال، كأنها ملكيّة؟ كيف يجتمع فيه ما يشبه البراءة - بل هي البراءة فعلا - في الجسد العاري الصريح غير الخجل من نفسه بل الفخور بوجوده، مع مقدرةٍ خارقة على السفسطائية العقليةَ - السفسطائية بأحسن المعاني - أقصد يعني رهافة تحليل بل تفصيص الفكرة وتقصي جوانبها بكل هذا الذكاء وحدة الذهن؟ الجسد الذكي وبصيرة نافذة معا. كيف يجتمع ما يشبه الضعف والاحتياج والعوز النهائي إلي السند والدعم، مع ما يشبه الصلف المحايد المستقل بذاته وموهبة الاستغناء عن كل مددٍ خارجي ؟ كيف تجتمع فيك، رامة الواندالية، هذه المتناقضات؟

امتدت إليه إصبعها المكتنزة، برفق، ومست شفتيه مسًا رقيقا، دون ابتسامة، بكل جدية، بما يشبه الحنان الصارم، كأنما لتقول له ما قالته مرات لاعداد لها : لاتعذب نفسك، لاتعذبني، بكل الفروض والاحتمالات، التساؤلات والإمكانات. دعنا نصمت قليلا، دعنا نركن إلى أحدنا الآخر، بسكون العارفين، بثقة المحبين، ألا يمكن؟

لكنه قال : هذا الجسد لايُمتلَك، مع أنه قد انتُهك، طوعاً أو رغماً، مرات عدة. حتى هذا الانتهاك الأخير من العنف والظَلام، من عين السيكلوب الواحدة، هذا الجسد يظل وضيئا حتى إن كان غامض الوضاءة. كلُّ متملك غريب يظل ثانوياً على أحسن الأحوال وسوف ينحسر وينكص

على أعقابه.

قال : لست متملّكا، ولا منتهكا. أنا مقوِّم أساسيّ من مقومات هذا الجسد.

قال : فيم حرصك الدؤوب على أن تقرن الجسد بما تسميه ما وراء الجسد، طوال الوقت ؟ما عيب الجسد في كامل جسدانيته، ما الخطأ فيه ؟

ما وراء الجسد كامنٌ وحيويّ ومتخلّل في كل شِلوٍ من أشلائه، شئتَ أم لم تشأ، ذكرت ذلك – ياعمّ – أم أنسيته.

ففيم حرصك الدؤوب .. إلى آخره..

لكن تجاور طبقات أو مقومات جسدها، وانصهارها دون ذوبانٍ نهائي، ظل يرمضه ويمضه.

قال : ليس هذا الجسد الملتبس عندي سوأةً ولا مسبّة. تراكبُ وتعددية المستويات الجيولوجية فيه لايصل إلى نقاء البوتقة الكامل ولا إلى خلوص الجسد من الشوائب. كم مرةً قلت لي : «كفاية، أنا جنتي مش خالصة». ليست جسمانيتك خالصة قط، تمتزج فيها أعشاب الساقانا ونباتات الحَلفا على شطوط الترع مع الأشجار الموسمية الباسقة والوحشية وخمائل النَدّ والنسرين والياسمين، الصبّار السامّ في كثافته الفطرية مع رهافة فَوح الفلّ وحرافة الصندل، أنت رامة تحيلين كل شيء إلى تبركِ الخاص، حتى لو ظلت فيه شوائب التراب وشوه المسوخ. تظلّين برّاوية وحضرية، قاهرية صعيدية بدوية شرقية تحترقين في شمس صحراء قاسية وهانم من سيدات الأتراك تدخنين الشبوك العاج بمبسمه الطويل وتتكئين بكل ملء جسدانيتك على الأرائك العثمانلي الوثيرة في سحب ناعمة من البخور العطري

شكمجيتك المحلاة بسنّ الفيل والصدف والأبنوس مازالت مملوكية رابضة تحت ظلال مشربيتك وعليها عقودك المعدن السمينة والكهرمان الفلاّحي كبيرة الحبّات.

شمس رع التي تسطع على جسدك تحرق كلّ الزَغَب من على سطحه لكنها لاتصهر هذا الجسد العصيّ على الذوبان.

أنت لست صماء متحجرة مع أنك واحدة. أنت التي عبدت بتاح - رع - أمون الواحد تحت صور ألف إله من العقرب إلى الكبش ومن الثور إلى الثعبان، من الصقر إلى فرس البحر من الجعران إلى الحدأة المحلقة في أجواز سمائك القاتلة. في تأليه الجوهر الواحد بأقانيمه الثلاثة بنيت لنفسك ألف قبة من قباب البازيليك تقرع أجراسها في موسيقى متعاقبة منَ مياه الزرقة الساجية عند نهاية فروع حابي السبعة إلى جنادل الصخر الشمّ يصبغها الطين الحبشيّ الأحمر، في التوحيد الأخير أنت رفعت ألف مئذنة شاهقة تتردد منها أصداء التكبير والشهادة والدعوة إلى الفلاح والصلاح في ترتيل الخشوع العذب القديم. هياكل الآلهة ومزارات القديسين وأضرحة الأولياء متناثرة على طول جسدك، شموعها لم تنطفئ قط وبخورها لم يسقط قط، كلها متجسمة معا متجاورة ومتناغمة في جسدك الملتبس.

هل سرت فيك الآن لوثات المسوخ؟

هل تفشت فيك الآن شرايينُ الظلام؟

كل التحسر لن يشفي غِلَّ قلبي، ولعله لن يُجدى.

أتظلين أبداً، بالرغم من كل التباس، نقيةً حتى في تعددِ ألوان ظلالك؟

لن يغمرك الظلام يارامتي. قانون إيماني، وعقيدتي التي لاتحتاج إلى تبرير أو تفسير.

الفصل الرابع

رمح مكسور

ماذا قلت يا أوغسطينوس القديس؟

هل كان قولك هو الذي أقول عليه الآن؟

«عندما ذهبت إلى قرطاجنة كانت تفور من حولي، في كل مكان، قدرٌ تغلي بألوان الحب الحرام. لم أكن أحب بعد. لكنني كنت أحب أن أحب. ولأنه كانت عندي حاجة، ورغبة، عميقة الغور، راسخة، كنت أمقت نفسي لأنني لم أكن أحتاج، ولم تكن عندي رغبة. بحثت عن الحب، في الحب، مع الحب، وكنت أمقت الأمان، والطريق المستقيم المفضي إلى الخارج، أمقت الطريق الذي ليس فيه مصائد أو فخاخ».

قالت له : هل قرأت الصحف اليوم؟

قال : لا، ليس عندي أدنى رغبة في قراءة الصحفَ اليوم.

قال : فاتك لا أقول نصف عمرك، بل على الأقل بضعة أيام من عمرك

قال : كيف؟

قالت : كان عندي أمس ميعاد مع خبير أثري هولندي، في ردهة الشيراتون. ورأيت بعيني هاتين اللتين سوف يأكلهما الدود.

قاطعها : بعد الشر، سلامة عينيك..

استمرت : رأيت هؤلاء النسوان في ردهة الفندق.. أنت تعرف، الصيف والحرّ هجم، وسياح النفط شرفوا، زحموا الدنيا وغلّوها وشوهوا ما استطاعوا أن يهبشوا من البلد: الشيوخ الذين كحكحوا تزوجوا البنات في الخامسة عشرة أو أقل، تزوير الشهادات على ودنه، حاجة بيلاش كده، وعربات الحنطور اللفّة ربع ساعة حول الجزيرة بعشرة جنيه، الحريم المغلق عليه هناك، لابس هنا على آخر موضة، وآخر مكياج، شكلهم واضح وصارخ أحيانا. وأحيانا جميلات جدا بالسمرة الداكنة والشعر الفاحم الناعم الطويل.. قصره.. في ردهة الفندق رأيت النسوة، يتنظرن الصيد، المهنة كانت واضحة، بل صارخة: الزواق الفاقع، العيون بالكحل الثقيل، الشعر الكثيف، باروكات معتنى بها، والفساتين المحزقة بالفتحة الخلفية العميقة المكشوفة عن ظهور سرحة، ملساء، انت عارف. والكعب العالي جدا، وبقية العدّة، ع الآخر: الحلقان الضخمة تهتز على جانبي الوجوه اللامعة من البان كيك والكريمات والبودرة، والشفايف مصبوغة بالأحمر الغامق، أسود تقريبا، العربَ القدامى ماذا يسمونه؟ اللمى! والآن قرأت الخبر في «الأهرام» : دهم البوليس هؤلاء النسوة في ردهة الفندق، ولمّهن بربطة المعلم.. وفي القسم اتضح أنهن – أو أنهم – عاهرات رجال، يلتقطون أرزاقهم – أرزاقهن.. من السياح المغرمين بالصنف.

قال : والله وصلنا. ولا سوهو، أو بيجال. أو بردواي سكوير.

قالت : ياه.. من زمان ياحبيبي. ولسّه – ياما في الجراب ياحاوي.. ألسنا في مصر الانفتاح، والأخوة العرب.. نسينا أيام الوحدة العربية، جئنا لعصر الأخوة العرب...

قالت له، من غير مناسبة، في إحدى حكاياتها، إنها عندما كانت صبية

في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة يمكن، وكان صدرها قد نبت واستدار وخرطه خراط البنات، ذهبت مع أمها - وكانت عندئذ زوجة محافظ القاهرة، في زيارة لپولا الحوامدي، قالت إن پولا كانت ترسم عينيها، الواسعتين جدا، بخطين ثقيلين عريضين، مثل رسوم المصريين القدامى، رغم أصلها التركي، وكانت لها نظرة نافذة كحدّ سلاح مشهر دائما، وعميقة جدا. كان وجهها تكسوه طبقة خفيفة - وواضحة - من البودره تعطي محياها الجميل ايحاءً كأنها مومياء حيّة وسحرية لاتقاوم. وقالت إن شفتيها كانتا مخضبتين بما يلوح أنه دم قانٍ طازج. وقالت: ربما لهذا السبب أكره أن أضع الروج على شفتي حتى الآنّ. قال : وربما لأسباب أخرى. فنظرت إليه بسرعة وتجاوزت، وقالت إنها كانت تحكي لهما عن جدها الشاعر الشهير، أمير الشعر، الذي كان يغرق نفسه بماء الكولونيا الفرنسية Bien - être وخاصة في البانيو الرخامي الضخم الذي كان يملأ غرفة حمّامه، وإنه كان أحيانا - وهي جالسة على حجره، صغيرة بعد - يسرح وينسى أنها معه، وتسمعه يهمهم بكلام له موسيقى عرفت فيما بعد إنه شعره بارع الصوغ الذي طبقت الآفاق شهرته، قال إنه زار هذا البيت بعدما أصبح متحفا، ورأى في حجرة نومه، جنب السرير النحاسيّ الذي يملأ الغرفة، كتبا قديمة مجلّدة للشعراء القدامي، كان يملأهوامشها بخطه الدقيق شعراً يحاذيهم فيه - ويفوقهم صنعة أحيانا، قال: كأنما كان الشاعر يخشى الفراغ في كل شيء غرفه حمامه مملؤة بالبانيو الضخم، وغرفة نومه مملؤة بالسرير الكبيرة وهوامش الكتب القديمة مملوءة بشعره الجديد، حتى وقته المزجي ملأه بأغنيات عبد الوهاب وحبّ عبد الوهاب.

قالت إن پولا دخلت غرفة الاستقبال فرنسية الأثاث - لوي كانز - وهي مرتدية بنطلون الركوب، وحذاء عاليا جلديا يصل إلى ركبتيها، وإنها تركت على مائدة صغيرة مدوّرة على الباب عصا قصيرة، وإنها طلبت لها

شربات ورد – أبغضت طعمه وحرّمته على نفسها بعد ذلك طول حياتها – وطلبت لوالدتها قهوة مضبوط، وكانت تنهج قليلا، صدرها النحيل يعلو ويهبط، قالت إنها ركبت حصانها في الجزيرة كلوب، وجاءت بالأوتومبيل لتلحق موعد الزيارة.

قالت إنها كلمت أمها قليلا بالفرنسية، وانها – هي – فهمت مجمل الحديث عن «مأساة» زواجها الطفليّ تقريبا بأحد الذين كان يطلق عليهم «الوجيه» فلان، ولم يمكث أكثر من أسبوعين اثنين – وفهمت أنه كان وحشا سادياً في ممارسة طقوس جنسية معينة، لم تفقه – هي – معناها تماما وإن كانت قد حدست عنفها وغرابتها، ومن ثم جاذبيتها، وقالت لهما بولا الحوامدي إنها تعبد چورج صاند، كتابتها وسلوكها، وحتى ملابسها الرجالية على السواء، وانها تفضل اسمها الأصلي كاملا – هي – لأنه يصلح أيضا اسماً للرجال: إقبال.

قال لها: زرتُ، في الأربعينيات، الدور الثالث من البيت القديم، ٥ درب اللبانة، حيث كانت تقيم. كانت بولا قد تركت مصر عندئذ، لتوها، مع زوجها الشاعر السيريالي التروتسكي الملهم، ابن الباشا القبطي وارث الأبعاديات والآلافات الذى أشهر إسلامه لكي يتزوجها، وعاش معها بقية حياته في فرنسا.

قال إن الغرفة التي كان يقيم فيها عندئذ رمسيس يونان، كانت فسيحة، خافتة الضوء، لكنها كانت عبقة بحضور غريب من الأشواق والأهواء والصبوات التي لم تكن قد بادت بعد، شطحات العشق التي كأنها لن تندثر، المشربية المنمنمة، مثل مشربية بيتك في شارع الشعرى اليمانية، أو أصغر قليلا، والمشكاوات القديمة من النحاس والزجاج مدلاةً بسلاسل حديدية تهتز قليلا من عوارض السقف الخشبية السوداء بين النقوش التي كادت

تنطمس ألوانها، والشلت الطرية ناعمة القطن على الحصير المفروش، وزوايا أركان الحيطان العريقة لها مهابة تومئ إلى جلال من أقاموا هنا، أحبوا وصنعوا الحب هنا، غامروا بالروح، ثم غادروا البلد وإن لم يتخلوا عن روحها - أو هكذا أظن، قال، هل وصلوا قط مع كل حرارة قلوبهم إلى روح هذه البلد؟

قال : يومها، لا أنساه، كان صديقي، منحوت الوجه، ضاوي الجسم، زيتونّي المسحة من سمرة صعيدية لاتحول، ومتأجج العينين السوداوين، يكلمني، ببطء، وعناية، عن ضرورة مراجعة الماركسية سياسياً وفلسفياً -كنا في أواخر ١٩٤٦ فيما أظن- وعن ضرورة النظر بعمق أكثر في وجهيها المتناقضين : التحرريّ والإطلاقيّ، وقال، بحزن، إنه سيغادر البلد هو أيضا، بعد أسابيع قلائل. كان اسماعيل صدقي قد سجنه أيامها، مع جمهرةٍ من أبرز وألمع المثقفين والكتاب في هوجة لم تستمر ولم تسفر عن شيء.

قال لها إنه عاد مع ذلك إلى القاهرة بعد أن ضربت الطائرات الفرنسية والانجليزية والاسرائيلية بور سعيد والقاهرة، رفض أن يذيع من باريس ما رآه إهانة لبلده، واستقال من مورد رزقه هو وعائلته في الإذاعة الفرنسية، ترك بيته ومعاشه ومكانته، وأخذ بنتيه، وزوجته الفرنسية بولندية الأصل، ولوحاته - لحسن الحظ - ورجع خاوي الوفاض كما يقال، إلا من إيمان - ساذجٍ ربما وحارّ - بوطنه. أعطاه الناصريون ما يقيم الأود من أحاديث إذاعية، ثم ألحقوه بوظيفة مدير الشئون التكنيكية في إحدى المنظمات الدوليّة المقيمة في مصر، ثم منحوه تفرغاً لعدة سنوات، كانت أخصب سنوات عمره، أبدع فيها لوحاتٍ تحترق بلهيب الصعيد ولهب صخور روحه - أين ذهبت الآن هذه اللوحاتّ ؟ - ثم سحبوا منه التفرغ، وهو أحد أعظم الرّسامين المصوّرين المصريين، وقالوا له، وهو الفنان الملهم والمثقف النادر: «ترجم أندريه مالروصفحة بصفحة لكي تاكل خبزك يوماً بيوم». فمات. قتلوه وهو

في عز النضج. قتلوه، ببساطة، هكذا.

قال: پولا كتبت بالفرنسية كلاما جميلا، وزوجها كتب شعرا محلقاً وجائحاً وملهما، لماذا يحتفي الآخرون بكتّابهم وشعرائهم وفنانيهم، ولا ينسونهم؟ لماذا مصر تهدر أبناءها بلا حساب ؟ ألأنها ولود خصيبة، معطاء تثمر كل يوم عبقريات بلا حساب، فلا يهمها إن ضاع منها هذا أوذاك، مهما كان نادراً ولا يعوّض؟ هل الخصب يعني الهدر أيضا، بالضرورة؟

قال لها: زرته، بعد ذلك بسنوات في شقته الفسيحة الهادئة في شارع القصر العيني، كانت أيضا خافتة الضوء، مكبوحة نوعاً ما، وعبقة بحساسية مرهفة.

قال لها: كيف كان يرسم لوحاته المشتعلة بألوان النار القوية، ورماديّات الصخر العريق، ودمدمات كأنها تأتي من براكين مدفونة؟ ألوان مكبوحة أيضا تفجر عرامة مشاعر ضارية وصاخبة العنف، طاقات روحية مدّمرة لولا أنها موضوعة، بمقدرة، بيدين مسيطرتين، تحت ضغط عقل متحكم.

قال لها: ماذا حدث للبنتين اللتين تركهما صبيتين؟ سافرتا إلى باريس. هل التهمت العاصمة، التي لم تعد عاصمة النور، البنتين؟ حب فاشل بعد زواج فاشل بعد حب فاشل، أيام وأسابيع وشهور من الضنك الروحي والمادي. إحداهما أرادت، وقررت، ونفّذت، أن تنجب طفلا من غير زواج، لم تكن تريد رجلا بل طفلا. كأنها لاتريد أي رجل، بعد أبيها. أين أمّهما بعد نزع طويل في الانفصال عن مصر – عن شقة زوجها في القصر العيني، عما بقي من زوجها، عن لوحاته الثمينة التي لاتقدر – أين هي الآن، الزوجة واللوحات ؟ شاخت بلا شك، وتهدمت. الفنان الرهيف والمفكر الثاقب الذي كانت قد أحبته في باريس الأربعينات واتخذت مصر وطناً لها في حبه، يسقط الآن في هوّة النسيان المصريّ الذي لايرحم.

قال : أين لوحاته؟ أين هذا الكنز الروحيّ الآن؟

قالت : كم من كنوز روحية – كما تقول – قد راحت تحت تربة مصر، تحت رديم العصور السحيقة والحديثة سواء. كل عملنا – هل أقول رسالتنا أيضا ؟ لا أجرؤ أن أقولها – أننا نكشف عن كسر وشقَاف وشظايا منها. نحاول أن نرممها، نحاول أن نستعيدها. فهل نحَن نصل إلى شيء بالفعل؟

قال : هانحن نلف وندور لكي نعود إلى نقطة الصفر. نواح على البلد؟ متى نستطيع أن نفعل شيئا؟ نفعل، ولا نقول فقط؟

أخذته إلى صدرها الوثير، في جلستهما على الصوفا، بحركتها القديمة، كأنها تريد أن تدفن الألم، وتعرف أنها لن تستطيع، أبدا.

قال : في الحياة لاشيء له وجه واحد فقط، من الكريستال الصافي، لاشيء قطعي، نهائيّ، أبيض و أسود. النقاء ليس في الحياة بل في الفن وحده. هل يبدو لك هذا الكلام مبتذلا جدا، ومألوفا جدا. الأقنعة كثيرة ومختلفة، أليس كذلك؟ المأساة – أو غيرها – يمكن في الفن أن تكون خالصة، صرفاً، طاهرة إذا أمكن القول – ولذلك مطهرة، يمكن – في الحياة، أبداً، كل شيء مختلط وملتبس. المأساة – وغيرها – في الحياة أكثر ايجاعا، وأكثر اضطرابا لأن كل شيء هنا معجون بالخبث، والنفايات، والشوائب.

في الحياة.. في «الواقع» يعني، كما يقال، الواقع المعيش، تمتد الأشياء، وتهن، لاحسم فيها، تتطاول، وتتغير، تضعف – لكن لاتنقطع، تموت على مهل، أو تحترق على مهل، تخبو دون أن تنطفئ تماما، حتى بالموت نفسه. كلها مخايلة، كلها مشوبة، كلها مضروبة أو معطوبة أو متحللة الأوصال، ما أندر أن يكون في الحياة قناع صاف، نقي، مصقول،

مثل أقنعة الكابوكي اليابانية، ثابتة لاتحول، يرثها الممثل الابن عن الممثل الأب عن أسلافه القدامى، الرجل يحمل قناع المرأة، ويتخذ صوتها، دون أن يتخلى عن رجولته. المرأة طيف مراود ومراوغ في وقت معا. أما القناع فهو ثابت، دام. لكن هذا الثبات. هذه النهائية هي في الفن فقط.

قال : ليتني أستطيع أن أحسم، أن يتحد وجهي وقناعي، أن أعرف كيف أتخلّى. أن يكون لي عمل، وموقف، وإرادة – أيا كان ترتيبها الزمني – هأنذا دخان معلق في الهواء. لا أتخلّى ولا أنضوي، لا أستطيع، ولا أريد. أحبك.. دون تورط نهائي، ولا رمي للنفس في اليم.. حتى وإن كنت لا أعرف السباحة، أظل أحبك دون وفاءٍ لهذا الحب ودون تخلٍّ عنه .

هل أستطيع أن أتخلّى؟

لن يكون ذلك تخليا، ربما، بل لعله عقابٌ للنفس، أو لعله على الطرف الآخر قربان بالنفس. فإذا كان عقابا للنفس فلعله أذىً ضروريٌ يكفّر به عما سلف أن اقترفه من جرائم. هي نفسها تدخل في سياق – أو نسق – واحد، نسق البخل بالنفس عن تضحية الحب المستمرة الهادئة الصموت المثابِرة.

كأنما ينكر على نفسه حقّ السعادة، وحق الإسعاد.

ألأنه غير جدير بأي من هذين الحقّين، وهما – طبعا –لاينفصلان؟

الجرائم السائغة هي جرائم الصمت والأَثَرة، سابقة ومستمرة.

قال من غير صبيانية: لكنها هي أيضا تخلّت عني..

قال : كأن في ذلك عذراً أو تبريراً. طبعا ليس فيه أدنى مسوّغ.

رفضتْ. قالت له : اعمل معروف. لاتصنع أي شيء أحمق.. كفاني

ما أنا فيه، لاتندفع نحو أي شيء. أنت لك حياتك وعملك والسياق المألوف المستقر الذي تعيش فيه. لست أنا عندك إلا عابرة. لا أقول نزوة، بل بالتأكيد شيء عابر، سوف يمرّ، مهما تصوّرت فيّ خلودَ المقام.

هل قالت ذلك بالفعل؟

قال: هل رفضتني – كما قال نور الدين – لأنني لا أملك من حِطَامِ الدنيا شيئا، بالفعل؟ ولاشيء يغريها فيّ؟ أليس هذا إغراقا في تصوّرها نهزة، و «طبيعية» بمعنى من المعاني.

أم رفضتني لأنها تعرف في عمقٍ ما فيها أنني أريدها أن ترفضني – مهما كان تصوّري العكس؟

أو لأنها برفضها، تظل من خلالي جميلة أبداً، محبوبةً أبداً، مرغوبةً أبداً؟

أليس هذا ماحدث بالفعل.

قال: وعلى مستوى آخر لأنها تعرف أنه أيضاً، في عمقٍ منه، لن يقبل، أو سوف يهلك. حتى لو تقدم لها برأسه على صينية متوهجة بالحب، رأس يوحنا المعمدان لسالومي. لم ترقص هي رقصة سالومي. أو لم تتم رقصتها.

ولأنها لم تستطع قط – هي أيضاً، أو هي أساساً – أن ترمي بنفسها في هذه المغامرة، حتى النهاية.

كان يعرف في عمقٍ ما، في داخله، أنها سترفضه، سترفضه التزاماً نهائياً، سترفضه ارتباطاً معلنا لا حِلَّ منه، بل قد رفضته.

قالت له : إياك أن تفعل شيئا مجنونا. كفاني ما أنا فيه.

أما هو فقد كانت مغامرته هي الذبح. ووقف في لحظة ما، أمام المذبح..

هل كان إبراهيم يعرف أن الله لن يتركه أبدا يذبح إسحاق؟

لكن إبراهيم قد ذبحه بالفعل، سواء حزّت السكين عنق ولده أم لم تمسه، سواء كان ذلك لأنه عارف أم غير عارف. لأنه رضي بأن يذبحه. لأنه وقف به أمام المذبح، ومدّ يده بالسكين، ورفعها.

ماذا كان سيحدث لو أن الله ترك إبراهيم يذبح إسحاق، بالفعل؟

عندئذ كان العالم كله يسقط.

على حد هذه السكين الحادة المشحوذة أوجَد، وتوجد هي، ويوجد العالم، إلى الأَبد، دون حَل، دون ذبح، دون دم مراق ؛ ولكن كل دماء القلب استبيحت، وتستباح، كل يوم، على حد هذه السكين، لايجف تدفقها أبدا، ولا لحظة واحدة، الجرح مفتوح بلا انتهاء إلى نهاية الزمان، لا يبرأ ولا يلتئم. لايعود القلب كما كان، بدون هذا الشق العميق الذي لاينسدّ أبدا، أبدا. أحقا كانت هذه الروح سليمة كاملة من غير شق في أي يوم من الايام؟

عنقه – أبدا – ممدود على النطع، تحزه السكين، لاتقطعه ولا ترتفع عنه.

كيف نعيش، في الشارع، في المكتَب، والفندق، وساحة الترميم، ومحطات القطارات، بين الأعمدة، أمام الهرَم، في رواقات المعبد القديم

الذي انهار سقفه من زمان، في قدس الأقداس المهدوم، وقلبنا مفتوح، مشقوق، يدمي. دماؤه على أيدينا، أيدينا مبلولة بالدم والمنيّ.

الدخان يصعد من الذبيحة التى تحترق الآن على السفود، على نار بطيئة، قربانا لأي شيء؟

لأي شيء؟

ليس للحب، بالتأكيد ولكنه بالتأكيد أيضا قربان.

الدخان العبق الزهِم يرتفع قليلا ثم يرتد محسوراً، خطاً متلوياً تقلّ كثافته تدريجيا وتنفصل خيوطه عن بعضها بعضا وتتشعب وتتقطع، على خلفية المباني الرثة، والأوتوبيسات المزدحمة والسيارات المتلاحقة في الشوارع، بين أسطح العمارات وكسور السماء الملْصقة بين أطراف البنايات، وعليها خطوط الهوائيات المتشابكة وأقراص الدِشّ المقعّرة وفتات النجوم المبذور بالليل.

لا يصل الدخان إلى شيء. ويظل معلقا في الهواء، ولكنه لايتلاشى تماما. تظل ذيوله راكدة وطافية على وجه هذا الغمر المحتشد ببضاعة كل يوم.

قالت له : في تلك السنوات – في الاربعينيات؟– التي تحكي لي عنها، كنت أنا في الاسكندرية، كما تعرف. ودّوني المدرسة الثانوية الداخلية – فكتوريا كولدج – كانت مدرسة مشتركة، صبيان وبنات، وكنت قد تركت الثلاثة عيال الذين كانوا يحبونني في المنيرة، وأنا بعد عيّلة، ليس عندي شيء.

ومرت بيدها، بسرعة وخفة، بحركتها القديمة، على صدرها العاري

المليء الذي يبدو له ساطعاً وناضجاً بسمرة لدنة نديّة، وضحكت ضحكتها المهموسة تقريبا.

أكملتّ: وكانوا - هل حكيت لك؟ - يرسلون إليّ الخطابات سرا، ثلاثتهم، كما لو كانوا يكتبونها معا، توصّلها لي صديقة مشتركة كانت أيضا تحبهم، وتحبني، بشكل ما.

نظرت إليه نظرة خاطفة، فيها رضى خفي، ونوع من الدهشة:

- لا تقل لي إنك تَغير عليّ، الآن، من هؤلاء العيال؟ بعد كل هذا الزمن ياحبيبي؟ غير معقول، نسيتهم، بل نسيت حتى أسماءهم.

المهم أن الناظر عندئذ، مسترهارولد باتي - هذا أذكر اسمه جيدا - كان على علم بشكل ما بالخطابات المهرّبة، وكان، في حكمته، يغض النظر.. ماذا نقول الآن ؟ يطنّش، يصهين؟ وكنت، في غرارة صباي، أعتبر ذلك انتصاراً لي، بشكل ما، وكنت ممتنة له أيضاً، خِفيةً عن نفسي، جدا.

بعد حرب ١٩٥٦ أُبعد مِسترهارولد باتي عن مصر، رُحِّل بالقوة بينما كنت أنا في بور سعيد المحاصِرة، أشارك الضباط المصريين المتخفّين. وأتخذ اسم فاطمة، وأشتغل في تهريب السلاح، حكيت لك كل هذا، أليس كذلك؟

ولك أن تتصور إحساساتي المتناقضة بين حبي للرجل الإنسان الذي عرفته، وفهم عنّي، مثل أبي، وبين بغضي للإنجليزي، العدوّ، أو على الأصح الذي ينتمي إلى بلدٍ عدوّ يضرب بلدي بالقنابل، ويقتل أولاد بلدي، ويحتل أرضا عزيزة، وأُقاتله، بما أستطيع، وبقدر ما أستطيع.

قالت : وعيناها تلمعان قليلا، نديتين قليلا:

—لم أعرفه إلا سنتين أو ثلاثة، يمكن، ولكنني وجدت فيه، بشكلٍ ما، أباً آخر، بينما كان أبي مشغولاً جداً عني بغرامياته ومغامراته، ومشروعاته، ونسوانه.

قالت : عاش مستر باتي أربعا وثلاثين سنة في اسكندرية، بلدك، ومات وعنده ٩٥ سنة، وظل حتى آخر لحظة - كما عرفت - محباً لمصر.

قال، وهو يضمها اليه أكثر قليلا :

– ما أصعب التفرقة بين الانسان من لحم ودم وأشواق ومتناقضات، وبين الانسان الشفرة، الإنسان الرمز، أو الإنسان باعتباره قيمة جبرية في معادلة عقلية، يعني!

قالها، متردداً، متوجساً من أن يكون تفلسفُه في غير محلّه، أو أنه لايقول الا المكرور الشائع المبتذل حتى. لكنها تعلقت به، بحركة شكر، وقالت:

– نعم، نعم. عندك حق

قال لنفسه، وقد شرد مجرى هواجسه وانحرف إلى طريق آخر:

– كيف تريد لي أن تحكي لي عن محباتها – وأعمالها— مع الرجال الآخرين، وكأنها تطلب مني أن أتعرف ذلك كلّه باعتباره أعمال حبٍ لي أنا؟

عبؤها على حياته، مثل ثقلها على جسمه.

كانت فخذها الجسيمة وهي نائمة قد جاءت عليه، أحس من غير تململ، بل بترحيب، هذا الضغط، والحمل، والوطء الرفيق، من غير أن

تعي هذا الذي تفرضه عليه، فيزيقيا، ومن غير قصدٍ منها.

كان غطيطها خافتا ولكن رتبيا، منتظما، وكان حنوّه عليها – في هذا الغياب منها عنه، والحضور الرازح معه، في الوقت نفسه –مما لايكاد يحتمل. ودّ لو أخذه إليه، كلّه، هذا الجسم الحاشد في نومته العميقة.

كأن حبه لها غير إرادي. يكاد يكون قوةً فيزيقية – وروحية – غلاّبة، لا ردّ لها، ولاصدّ، كما كانت تحب هي أن تقول، ضاحكة، عن أشياء أخرى لاعلاقة لها بهما.

قال : منتهى الحب هو كسر كبرياء الحب.

قال : شبعتُ ورويتُ، نهلتُ وعببتُ، مازلت ظامئا، الملِح على شفتيّ.

كأنني في الحلم، حيث تنقطع الصلة بين الحافز والفعل، بين ما أريد وما أقترف، بين العلّة والنتيجة، بين الرغبة والحركة. أمد يدي، متوترة، متلهفة، مشدودة الأصابع، فلا أمسك بشيء، الثمرة هناك، الثمرة في متناول قبضتي، لكنني عندما أُطبق عليها كفّي أجد أن في يديّ خواء. أجري، ساقاي ترتفعان وتنخفضان تذرعان المسافات وتقطعان الآماد. فأجد نفسي في مكاني لم أبرحه لم أتزحزح قيد خطوة، كأنني مع ذلك أطفو في الهواء، بينما أشد على صخرة الجسد الأنثوي، أحيطه بذراعيّ، باستماتة، وأجد أنني معلق في الفراغ، أطفو فوق بحر ساجٍ هادئ أسود اللون لا رقرقة فيه لموج، كأنه رصاص، وهو مع ذلك طيّع، مائي جداً، لا كثافة في قوامه، ومظلم، أطفو على رمث مسطّح من البرديّ المجدول، ليس له حوافّ، والصمت حولى مطبق، النجوم بعيدة جداً وصغيرة، نورها خافت

مشاع، غير مهم.

كأنما منارة تومض وتنطفئ من بعيد. أعرف أنه لاوصول إليها، وليس في يدي مجداف ولا دفّة.

هل هي معي؟ لماذا لا أراها؟

أم هي هذا البحر الليليّ نفسه؟

قالت له : «خرجت من عند المطران، يومها، إلى شيخ البلد، عم حسن فاضل. ذهبت إليه في مبنى مجلس محلي المدينة، حجريّ عريق، عقود البوابات واسعة والجدران عريضة سميكة والنوافذ مستطيلة وعالية. مررت بمكاتب مزدحمة بالملفات والكراكيب والموظفين المكدسين ينظرون إليّ بتساؤل وكسل.

الرجل واضحٌ أنه من الإخوان، لم يسلم عليّ باليد - حتى لا أنقض وضوءه طبعا - وكانت لحيته الشهباء، وشيبته، وسكون طيره تتسق كلها بشكل جميل مع وجهه ذي الملامح السمحة الوسيمة عريقة المحتد. وواضح أنه طيب القلب وطيب النية. وقال لي: «لابد أن نتصارح» ثم استطرد: «يابنتي إخواننا الذين تقولين عنهم متطرفين هم إخوة لنا، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر بأيديهم، هذه درجة من الإيمان. نحن نقول بالحسنى، هذه درجة أقل، هم بأيديهم. نحن نختلف، لكن لا نعتبرهم خارجين، تصرفاتهم - نعم - قد تسيء للإسلام . لأن الإسلام لم يأمر بالعنف. وعلى كلّ حال فالإسلام يحلّ لنا تناول طعام أهل الكتاب ويحل تناولهم طعامنا، تطميناً للنفوس واستجلابا للمودة والرحمة، بل يبيح التناكح بالزواج الشرعي بين المسلم والكتابية، ولها حق البقاء على دينها دون أدنى

حرج، للأبناء والبنات من هذا الزواج عمومة في المسلمين وأخوال وخالات في المسيحيين. كلنا من خلق الله. أوصانا الله بهم وأن لهم ما لنا وعليهم ماعلينا، لكن الأحداث الصغيرة يابنتي تراكمت حتى انفجرت. خصوصا بعد شقة المنيا.»

قلت له : «ياشيخ حسن، هذه إشاعات لا أساس لها.»

قال لي : «يابنتي الله أعلم».

كان في لهجة كلامه مايوحي أنه مقتنع تماما بأن ما حدث في تلك الشقة الموهومة أمر حقيقي، لكنه استأنف : «أنا لست متعصبا، والله شهيد. هناك حلّ لكل هذه المشاكل، بالتأكيد وبعون الله، أن نجلس مع قياداتهم- المطران والقسس وأعيانهم -وجها لوجه، نطرح كل شيء للمناقشة دون خوف أو حرج. لأن الجرح إذا قفل على فساد لن يخف بل سينفجر مرة أخرى. المسكنات لا تنفع.

صحيح أن الدين عند الله الإسلام يابنتي، لا تنسي ذلك، لكن لهم علينا حق الذمة وحسن الجوار. الرسول صلى الله عليه وسلم أصهر إليهم، وأوصانا بهم.

قال: يابنتي أصول التوتر تعود إلى السبعينيات. كانوا يبنون الكنائس دون ترخيص، أو في مناطق معظم سكانها مسلمون، يذيعون القداسات بالميكروفونات بأعلى صوت، ليس في الكنائس فقط، بل من البيوت، من الدكاكين، في الشوارع.

قال : حكوا لي إنه في كنيسة العجايبي في بني مزار أقيم معسكر للكشافة القبطية، وصوروا نشاطهم فيه. ذهبوا لتحميض الفيلم عند صاحب

استوديو مسلم، ارتاب في الأمر وسلّم لنا الصور. كانت التدريبات عسكرية على الرماية وإطلاق الرصاص، سلمنا الصور لمباحث أمن الدولة في القاهرة، ولم يتحرك أحد.

قلت : ياشيخ حسن أليس هناك أصحاب استوديوهات من الأقباط ؟

قال : هذا الذي قيل لي، والحكاية الأخرى أنه حدثت مشاجرة عادية، مما يحدث كل يوم بين طالب مسلم وطالب مسيحي أبوه قسّ في بني مزار أيضا. القس أطلق النار على الطالب المسلم. النيابة أفرجت عن القس دون ضمان وأمرت بحبس الطالب المسلم، وأيضا في أبو قرقاص اعتدى مدرس مسيحي على أربع تلميذات مسلمات، فض بكارتهن بإصبعه، هذا ثابت من أوراق النيابة.

قال : لا .. طلب الجزية لايجوز شرعا، هذا إثم، الجزية لايمكن أن يطلبها إلا خليفة المسلمين، وبسقوط الخلافة سقطت الجزية. هذا تهويل منهم، أتحداهم أن يثبتوه.

وخرجت من عنده ومازال قلبي موجوعا.

قال : خسارة. المنيا؟بلد طه حسين والشيخ على عبد الرازق، وهدى شعراوي.. يحدث فيها هذا؟

قالت : هي أيضا بلد خالد الاسلامبولي، وشكري مصطفى وعشرات غيرهم.

قال : كم حبلٍ التفّ حول أعناقهم، ومازالوا يتوالدون.

قالت: طبعا ياسيدي. طالما ظل الفقر والقهر والفساد الذي ضرب في

عصَب البلد. انظر ماذا يحدث عندنا في الآثار.. سيطرة المافيا لاتقاوم، فجرهم وجشعهم فاض به الكيل، صلافة التبجح لاحد لها.. هؤلاء الأولاد في النهاية هم أبناء هذا الفساد، وهم في النهاية كما يقال، قلة منحرفة.

قال: أبدا. صحيح أن الناس الطيبين هم الأصل وهم الأمان، لكن صحيح أيضا أن مناخ الدروشة والتضليل قد ضرب صميم الأرواح. ياستي أنا أرى الستات المحجبات يصعدن الترام في اسكندرية وهن يتمتمن بما لست أدري كأنهن في عالم آخر، الناس، يسيرون كأنهم مغيبّون، من يدري كيف يرون العالم، الكتب التي تتحدث عن الجن والعفاريت والثعبان الأقرع في القبر والكاسيتات وأحاديث التليفزيون التي تنهال عليهم بكلمات مثل المبايعة والشورى والإمارة والاستحلال والخلافة والعلاج بآيات الكتب السماوية في المساجد والكنائس على السواء، مفهومات وكلمات العصور الوسطى أو ماقبلها. إلى أين نسير؟ كأننا لم نغادر منطقة الظلام هذه، كأن صورتنا مازالت هي صورة محاكم التفتيش ومحابس السلاطين.

قال لنفسه، متابعا حواراً قديماً: ترى ماصورتي الآن عندها ؟ ماهو التشخيص الآخر – أم لعله الأول ؟ – هل أنا ذلك المقاتل، العدواني، عالي الصوت، محتدم، مستشيط، قادر على أن أضرب في مقتل ربما، قادر بلاشك على أن أجرح، و أصيب؟ صاحب السلطة – أيا كان قدرها – وصاحب المقدرة على تحريك الأمور وتسييرها، أو إيقافها، وتعويقها ؟ أم أن هنا صورة ذلك الذي قالت عنه إنه معطاء ليس ممن يأخذون، مستعد للتضحية بنفسه، ربما، إذا اقتضى الأمر، بل حتى دون ضرورة، يعني أكثر بكثير مما هو مطلوب أو حتى مفروض؟ كرمه يذهب إلى غير حد، بل يصبح أحيانا عبئا، ويجب أن يوقف عند حدّه، لا أحد يريده؟

له صورة فوتغرافية نصفها مظلم تماما أسود، ونصفها ساطع ومحدّد

النور.

قال : ياليت كان هذا كله، أو أيّ منه، صحيحا. كل شيء ممتزج متداخل ومضطرب وليس له حدود قاطعة.

قال ينخل نفسه من جديد وينقّب فيها، كعادته، بلا كلل:

– من أنا إذن ؟ ماذا أريد؟ أنا، ومعي طائفة، أو، جمهرة من أمثالي. أهذا سؤال يسأل الآن، بعد أن كاد كل شيء أن ينقضي؟ هل كنت – ومازلت – أريد العدالة للناس جميعا، أريدها باستماتة؟ العدالة المطلقة؟ هل كنت – ومازلت – أريد المحبة؟ أريد الحب؟ أريد الكرامة؟ أريد التبشير – والتعجيل –بعالم جديد كله عقل وفهم وحدوس صافية، في وسط أمواج الظلام هذه الملتطمة حولي؟ في وسط العنف، والقتل، والغباء، والغيبوبة، والانصياع؟ في وسط فقر تزداد عضّته شراسة؟ في وسط أطفال يبيتون على الارصفة، ويسقطون بلا ثمن في بالوعات مفتوحة ويغتصبون، وينتهكون، ويحشدون في أكوام آدمية متراكبة في غرفة واحدة مع الكبار المتضاجعين، ويرغمون على إدمان المخدرات، وترويجها، ويقتلهم أسطواتهم وأسيادهم وستاتّهم كيّاً، ونفخا، وخبطا بالعدّة، وامتهانا، بالسذاجتي.. هل كنت – ومازلت – أريد الجمال؟ هاهاها! أريد الحوار؟ سبحان الله! وما زالوا يداس على بطونهم بالأحذية. دعك من الضرب والخبط والشتيمة المقذعة بالأم والأب والعرض؟هأنذا اخترت البعد، هل جبنت عن المواجهة؟ هل تقاعست عن مسئوليات الحب؟لم أشأ أن أكذب وأن أناور وأن أدبّر التآمرات الصغيرة، هأنذا أكذب باستمرار. خذلت إيماني، وخذلت حبي، ماذا فعلت؟ اخترت الترميم، ترقيع الآثار، يعني تكريس واجهات، وهياكل باد عصرها، إصلاحها أي تزييفها، وتجميلها أي تزويرها.أليس هذا هو الإحباط ؟ أزوّق ما

أحس أنه غير قابل للتزويق، ماهو نيئ وخام وقديم؟ لماذا؟ للفرجة؟للعبرة؟ للاستلهام؟ لزيادة موارد الدخل القوميّ؟ هل يكفي الضحك، هنا؟ هأنذا اخترت حياة مكنونة هادئة بل رِتيبة الإيقاع سعياً إلى صفاء متوهَّم. إلى نقاء مستحيل، فإذا بي أجد أنها صخب لا يستنيم، واختلاط مرتطم.

هاأنذا أشير بأصبع مخضبً - ملوّث - بالدم الطريّ.

«هذا بنان قد خضبناه بدم العشاق»

بدم الآثمين.

« فقد جعلت نفسي على النأيِ تنطوِي، وعيني على فقد الحبيب تنام»

أبداً. هي في الحق لاتنام.

رقعة الصحراء تزداد، الخضرة الريانة تصوّح شيًا فشيئا. تصحر فيزيقيّ، وانفعالي، أعقليٌ أيضا؟ ترتفع كثبان الرمل والحصى، تتباعد أعمدة التلغراف التي كانت تربطني بالعالم المأهول، متاهات البيد تتفتح أمامي، شاسعة ومنادية، قدماي تغوصان في نعومة الإجداب القاحل، يزداد انتزاعهما منه صعوبة خطوة بعد خطوة. هل آوى إذن إلى الصمت؟ الرياح الجافة تهيل عليّ صرخات القحط فلا أصمت، أنضوِي مع الرياح السخنة التي ليست فيها نقطة ماءَ. أذهب معها إلى حيث تطوحَ بي، دون حساب.

قال: في فعل الشبَقَ الحقّ ليست هناك نتيجة محسوبة، مقننة، معروفة سلفا، مألوفة ومكرره حتى الغثيان أو مجرد الملل. هذا فعل - مثل كل خلق - قائم على الغرَر، والجدة، والدهش، الكشف - في كل مرة - الضرب في المجهول، المخاطرة بدق العنق في الظلام، الظلام هناك، تحت،

أو السطوع الباهر. قانون الاحتمال، والصُدفة، وحده هو الذي يحكمه - إن كان ثم قانون.

سأل نفسه مستدركا: مثل فعل الفن، مثل خبرة الدين الحميمة؟

قال: نعم. إنكار التقليد الألفيّ، بكل أوضاعه، والتخلي - في وهج متفرّد - عن حكاية الأسلاف وأسلاف الاسلاف، بلا نهاية في الزمن.

قالت: طبعا ياحبيبي. ولّى زمن الاستخانوفية من عهدٍ بعيد، لم يعد الشبق يقاس بالإنتاجية، أوبالكثرة، أوالتنافس. الاستخانوفية هي نفسها أسلوب «الأزمنة الحديثة» - هل تذكر فيلم تشارلي شابلن ؟ قال : من ينساه؟

قالت: مصانع التجميع الشبقية لابدأنها كوميدية قليلا، أو كثيرا، مثل بعض البورنو، إن لم تكن مملة، ببساطة، هل يتصوّر هنا أن كل تفصيلة من تفاصيل ««الإنتاج» محسوبة، لهاوقتها، وكل شيء معدود مسبقا؟

قال لها: في هذا الكشف المتجدد - في هذه المخاطرة - كل مرة - بكل شيء عنصر لعله مطلق، عنصر من الرسوخ والدوام. مقلقٍ أيضا إلى آخر حدّ. كيف أقول هذا؟ يعني أن السرّ لايسبر أبدا حتى نهايته، يعني كل مرة هناك - لابد أن يكون هناك - جديد في هذا العالم الواحد. ليس عابرا، ليس مجرد إشباع. هذه العرَضيّة، هذه الاحتمالات، هذه الصدف، لعلها هي الشيء الوحيد المستمرّ الدائم.

نظرت إليه، كأنما فهمت عنه أنه يمس أسلوباً من أساليب ممارساتها ، أو من طرائق حبّه.

قالت له : نعم. أنت بلا شك تحبني، بطريقة ما، بطريقتك.

قال: حبٌّ مطلق.

قالت: لا يمكن أن يكون مسلّما به، مفترضاً من البداية ودائما، تلتقطه في أي وقت، فتجده كما هو، كما كان دائما. حتى القربى الشبقية لابدّ أن تبنى من جديد، لا تؤخذ مأخذ المسلّمات قط. كأنما هي قائمة هناك، في الانتظار، لاتحول، لايتال منها شيء. هذا غير صحيح. يا أخي. اتّق الله! الواحدة تنسى ماذا يحب رجلها، في لحظة ما، بطريقة ما، عليه هو أن يساعدها – ياحبيبي – على استرجاع القربى الفيزيقية التي سوف تأتي، بلا شك، أو هكذا نأمل –تغتذي بخزين من الماضي يبعث من جديد، لكنه يبعث –أو لابد أن يبعث، أو ليته يبعث – بفن، وصنعة، وقصد. لاشيء يهبط جاهزا من السماء، من لوح محفوظ. فليكن الحبّ مطلقا، لكنه لابد أن يصنع، كل مرة، يصنع – يعني – بكل المعاني..

لم يقل لها: هبة الجسد هي نفسها عطية الروح.

بل قال : نعم. هذا كله مفهوم. أعرف. لكني – بحماقة – كنت أريد هبة الجسد – والروح معا – كاملة وفورية ويقظة على الدوام. ليست كامنة، ليست بحاجة إلى أن تصنع من جديد.

قالت : مادة الحب – عضويته – لا تسقط أبدا. هل هي جاهزة ؟ أنت الذي تقول جاهزة ؟

قال: لا أعني جاهزة، بطبيعة الحال. بل أعني قوية الحضور في كل لحظة، مهما كانت أفاعيل الفرقة والبعاد.

قالت ، وهي تقبّله فجأة على فمه، وهو يضمها إليه: أُحبك. حتى لو كنت حالماً بحماقة، كما أنت.

الكلمات مهمهمة على شفتيها، في قبلتها، لكنها واضحة ونفاذة.

كان في استراحة المنيا التي زارها فيها، مرة واحدة لم تتكرر.

جاء من الاسكندرية، ونزل في محطة السكة الحديد، وكانت حقيبته كبيرة وثقيلة بالمراجع والرسومات. كان في طريقه إلى الأقصر مرة أخرى، لحضور الملتقى الخامس والعشرين للأثريين المرممين، وقضى معها، في المنيا، ثلاث ليال، بينما كانت هي تستعد للانتقال إلى القاهرة، من جديد.

عندما نزل في المحطة، حمل حقيبته بنفسه حتى الميدان الخارجي الذي يوحي بالثلاثينيات وقد رثّ عزُّها.

ركب الحنطور المتهالك، الكبوت الأسود مشقق باهت، والكرسي جافّ وعِر، القش الجاف ناتئ من أطراف الشلتة المخيطة بقماش مشجر غير نظيف تماما، الحصان أعجف ولكن متوفز بالحياة، يصعد بساقيه الأماميتين ويهبط بهما، بنفاد صبر، في وقفته القلقة.

صعد للعربة، ساعده العربجي على رفع حقيبته، ووضعها على المقعد الأمامي بجانبه، وجه منحوف، عظمي، عميق الدكنة، أسنانه تبدو قاتمة الصفرة من فمه الحاد، لكنه وجه رجل مفتح، صاح يلقطها –كما هو واضح – وهي طايرة. واللاسة على رأسه ملفوف عليها تلفيحة من عدة طوايا، بلون لا وصف له، على جلابيته الجوخ المعمرة الخفيفةمن القدم، جاكتة صفراء، شكلها ميري، مفتوحة بلا أزرار.

قال للعربجي: استراحة الآثار، ع الكورنيش ياسطَى.

قال العربجي: أيوه يابيه.. تؤمر يابيه..عتعرف وين بالضبط يابيه؟

قال في سره: يافتّاح ياعليم. سوف ندوخ بحثا. ربنا يسهّل.

شكا إليه العريجى من أحوال الصنعة، وغلاء الدنيا، كيف أن شوال التبن للحصان يكلفه الشيء الفلاني، غير البرسيم الأخضر، وأجرة الاسطبل.

قال له : اسمك إيه ياعم؟

قال : خدّامك أحمد الطحطاوي يابيه. تؤمرني بحاجة يابيه؟

مرّ الحنطورعلى عدة بنايات عريقة، بعضها مقفل ومهجور فيما هو ظاهر، أعمدة مستلهمة من طراز هيليني مختلط، حدائق صغيرة نابتة بالعشب والحلفاء الصاعدة على الأسوار الحديدية التى سقط طلاؤها، وبعضها –وقف عنده – يبدو مأهولا، ولكن ليس عليه لافتات. وكان النيل على يمينه فسيحا ومهيبا، ولكنه منخفض ضارب إلى اخضرار رماديّ أكهب. وكراسي الكازينوهات مفروشة على أرض الشط الواطئة عن الكورنيش، كان الفيضان يغمرها زمان، قال لنفسه.

وأخيرا وجد البيت العتيق – لاشك كان من البيوت المصادرة ممن كانوا يسمون بالإقطاعيين من أيام قيام الثورة – من دور واحد، له ردهة خارجية رخامية تشققت أرضيتها وانكسرت حوافّ رخامها الإيطالي، النوافذ عالية على المقاس الكلاسيكي بالضبط، لكن خشب الضلف لم يتجدد طلاؤه ربما من أيام أن صودر البيت من صاحبه، ولولامتانة مادته فلعله كان قد تهاوى، وتآكل، كما تقشرت الواجهة وبدا حجرها الأبيض الضخم، تحت الكورنيش العلوي المثلث المعمول على الطراز الروماني.

بادر عم أحمد العريجي فحمل حقيبته حتى الباب الداخلي، عبر ممر رملّي محصوصب بالزلط الملوّن، له قرقعة تحت الأقدام.

قال له : جنابك بس تتدلى في محطة المنيا، تجول عم أحمد

الطحطاوي، ألف من يدلّك يابيه. وحياة النبي ماحدّ عيوصّلك غيري. دانا جلبي اتفتح لك ياسيدنا البيه.

وعندما فتحت له الباب، كانت في جلابية البيت الخفيفة، وعلى شعرها مدورة بيضاء معقودة من الخلف، وحبات العرق تنفصد، رقيقة جدا، على جبهتها الضيقة تحت خطّ الشعر الملموم في المدوّرة، صدرها الوافر يترجرج حراً تحت فتحة الجلابية، وحافية. واضح أنها تنظف الاستراحة، بنفسها. لم تكن أم برهوم هنا، ولاأحد مثلها.

كان في قبلتها على فمه طعم تُراب لايكاد يحس، وهبوة من مِلح العرق.

وعندما دخل عليها الحمام كانت تحت الدوش، بكل أمجاد جسدها الشامخ، حركات يديها على جسمها وهي تمسده بالليفة الناعمة المصبنة -زيست- ورغوتها البيضاء، فيها تمهّل، وما يشبه التعبّد.

دهش شيئا ما لأنه رأى أن نهديها - وهي الآن تحت الماء - أصغر قليلا مما كان يتصوّر.

نظرت إليه بصمت، وهي تتحسس جسدها، ببطء واستمتاع.

تحركت يده لتفكّ أزار قميصه.

قالت له، من تحت الدوش، وفمها مملوء بالماء المنصبّ:

-ليس الآن. ليس الآن. اصبر قليلا. عندنا كل الوقت.

بعد أن انتهيا، خرجا إلى الشرفة الخلفية العريضة، تحت غابة صغيرة من النخل السامق، والدوم والمنجة والكافور.

كانت الآن في قميص نوم أبيض خفيف ولكن مقفل عند العنق،

بنصف كمّ، يصل إلى ركبتيها. أمامهما مائدة نقالي عليها بلح أُمهات، وزغلول، ورطب بحباته الدسمة المغلّفة بقشرة سوداء مشققة، وجبنة بيضاء قريش، وكأسان من العرقي الصعيدي المشعشع بالماء وقد ابيضّ، وخفّت كثافته. وكانت تمدد ساقيها على كرسي ثالث أمامها، وحولهما الجدران الخلفية للبيوت، صمّاء، أو شبابيكها مقفلة، ومن قريب منارة كنيسة دقّت أجراسها، على غير انتظار، دقات بطيئة وقصيرة لصلاة العشيّة.

أنارت بعض نوافذ الجيران، فجأة. من وراء الضُلَف الخشبية المردودة.

قالت : انظر هناك. هل ترى هذا العجوز في النافذة المفتوحة، الوحيدة المفتوحة هناك، كل مرة أجئ هنا، وأخرج إلى الشرفة، أجد أنه – كل يوم على المساء كل يوم ياربي ! – يقف وراء النافذة نصف المفتوحة، من جوّه قليلا، أعجف، كما ترى، عاريا، أصلع، هيكلا عظمياً تقريبا، عشر دقائق، أو ربع ساعة، ثم يطفئ النور، ويغلق النافذة وينسحب إلى ظلمات بيته الداخلية.

قالت :لا، ليس مقززا، بل لعله يدعو للرثاء، أو الشفقة، قليلا .لايكاد يقوم حتى يرتخي، حتى هذا شيء مؤسٍ. ليته حتى كان فخوراً به، قوياً به. أبدا.

قال : ماذا يريد العجوز أن يثبت، ماذا يريدأن يقول ؟هل هذا أيضا نوع من البوح البائس ؟

انطفأ النور في هذه النافذة فجأة، دون أن يلحق أن يتبينَ شيئا.

وساد نوع من السلام القلق، الصمت المحمّل.

قالت، بعدهنيهة :جلستي المفضلة هنا، أستريح، أسترخي، لا أفكر

في شيء. دعنا نصمت. لا نتكلم الآن، أنا لست بحاجة إلى شيء. اخلع أنت عنك توترك المستمر، إذا استطعت. استرح هنا، فقط، بجانبي، ودعني أنظر إليك من غير كلام.

جاء صوت المؤذّن، من بعيد، مفاجئا وهادئا، رخيماً ورخيّ الإيقاع.

في مصر القديمة، على العصارى، كانا في القهوة الجانبية التي يحبها.

رّحب بهما الجرسون خفيف الدم، خفيف الحركة يا ميتْ أهلا وسهلا، والنبي مصر القديمة نّورت، داحنا زارنا النبي، طلبات الأمرا؟وهو يطقطق طول الوقت بمفتاح الكازوزة على صينية الطلبات، على نحاس الموائد المدوّرة معدنية السيقان، على رخام النصبة البهيجة بما عليها من كنكات القهوة مختلفة الاحجام كلها لامعة صفراء، وأباريق الشاي، ورصّة النراجيل المتجاورة يلمع الماء من وراء زجاجها المذهّب، وبوابير الجاز تفّح بوهج ووشيش يستريح إليه الصدر ويقرّ، طلبت هي السحلب المحوّج، وطلب قهوته المظبوط.

كانت الحارة الضيقة تنحدر قليلا أمام القهوة، وغير بعيد بركة ماء يترقرق، وعربة الجوافة – مرصوصة بحباتها الصفراء هرماً صغيرا –مركونة إلى المبنى المملوكي العتيق، ومن وراء هذا المبنى تنتصب أنقاض الكنيسة المهدمة، أساساتها غائرةمنخفضة عن مستوى الحارة، جدران حجريةسوداء من القدم، أو من حريق تاريخي، والخرائب بخشب متهالك عوارضه مائلة وعليهاَ إعلانات انتخابات مطموسة، وشعار «الإسلام هو...» بالبوية السوداء، وأفيشات فيلم لم يبق منها إلا نصف وجه نسويّ مهدل الشعر، وباهت الألوان، ونصف جسم،بنصف سرّة، ونصف بطن عار في بدلة رقص بلدي، وكانت نسمات العصر رقيقة ومعزية بشكل ما.

كان من المقرر أن يسافر، من الغد.

فهل كانت هذه الجلسة النادرة لهما معا، على قهوة، نوعاً من تحية سفر؟ وهل كان حديثهما الطويل، المتّزن، العقلاني، نوعاً من هدية وداع؟

كانت قد قالت له، من قبل:

– دعني أنا أُنهي، عندما يأتي الوقت. لا تفعلها أنت، من فضلك، أرجوك. اسمح لي بهذه المنّة الأخيرة إذن.

فهل كان في هذه الجلسة ما تعنيه بهذا :أنها – في الحقيقة –تُنهي؟ أن هذه الحكاية قد انتهت فعلاً، عندئذ، على هذه القهوة، وإن مابقي منها، في المنيا، في اسكندرية، في الخليفة، لم يكن إلا أشباحاً وأطيافاً وذيولاً لمجرّةٍ قد انطفأت. هل هي مجرة استماتت؟

قالت له : اسمع مني بقى. نحن قد لانلتقي أبداً مرة أخرى.

قال بلهفة : لا، لايمكن.

قالت : خلّنا عمليين، يعني، وواقعيين. قد لانلتقي أبداً بعد الآن، كما قلت. أنا مسافرة في بعثة إلى متاحف المتروبوليتان وبروكلين وشيكاجو، كما تعرف، وأنت، ياعالِم، أين ستطوح بك سفرياتاك ومهماتك. خلّنا نواجه الأمر الواقع.

قال بلهفة، مكرراً نفسه، من الصدمة، لايجد شيئاً آخر يقوله:

– لا، لايمكن.

قالت : أنا لا أقول إننا لن نلتقي. لا. فقط أُذكّرك، وأُذكّر نفسي، بشيءٍ محتمل جداً، ومنطقي جداً. من يعرف ماذا يخبئ لنا الزمن؟ دعنا

نتكلم بعقل، ومنطق.

قال : لا أحب المنطق. هنا لا أحب العقل.

قالت : بالعكس، أنت أكبر العقليين الذين عرفت. يعني أكثر الناس تعقلاً.

قال لنفسه: ألم نكن قد تكلمنا في هذا من قبل، من زمان؟ حكاية أبوللو وديونيزيوس، وما إلى ذلك؟

قالت له: أنت في تصوري، في الحقيقة، دون چوان مقلوب، معكوس. صحيح أن إخلاصك، وولاءك - حبك إذا شئت، لا تغضب - أنت تزجيه إلى امرأة واحدة فقط، في وقت واحد فقط. قد أكون أنا هي، الآن. لا. لا.. دعني أتكلم، اسمعني الآن، وطبعاً سترد عليّ بما تشاء، طبعاً. دون چوان بمعنى أن هذه المرأة الواحدة هي عندك كل نساء العالم، لايرتوي ظمؤك من أية واحدة منهن. حبك لها، هذه المرأة الواحدة، أو لهنّ، نساء العالم كلهنّ فيها - لانهاية له، وبالتالي لا حدّ له ولا إشباع أبداً. هذا ما تقول عنه أنه مطلق، نهائيّ، غير محدود.

قال : كنت أتصور أنني على الأرجح دون كيشوت، ولست دون جوان. أطلع، برمح مكسور عفا عليه الزمن، بدرع لاجدوى فيها، لكي أعيد وجه العالم إلى براءته الأولى، يعني، وأنجد المظلومين، وأبحث عن العدل لك؛ أي أنفذه، أحب دولسينا الواحدة ذات البهاء الخارق التي لايضارع جمالها، ولا أصل اليها، أبدا، مهما كان الأمر.

قالت : دولسينا، نعم، على نحوٍ ما. أنت خرجتَ دون كيشوت، وانتهيت دون چوان.

قال : يمكن. دون چوان أو دون كيشوت، كلاهما خرج ليتحدى الشرائع والقوانين والأشياء ، وربما الآلهة. كلاهما متمرد، خارج عن النمط، ومضروب.

قالت : كلاهما عقليٌ جداً. مهما بدا أنه العكس. اسمع، ليس في هذا تقييم لك، ياحبيبي، ولا وضع حساب، ولا أي شيء من هذا القبيل. فقط أحببت أن أقول لك ما أحس. وأنت، مهما قلت، دون چوان بمعنى آخر. إنك في صميمك لا تقبل أن تكون المرأة نداً لك، مساويةً لك، تعْدلك، وتناظرك. أبداً، مهما قلت. الستّ والدتك، الله يرحمها، جعلت منكَ أباً، رجلاً مكانه فوق كل الستات، تأتي دائماً قبل أخواتك البنات، كما حكيت لي بنفسك. لك أولاً أحسن قطعة من البطة أو الوزّة، أنت تأكل أولاً ولك مناب اللحمة الأكبر، كل امرأة في حياتك قبلتك وعاملتك على هذا الأساس، فيما أظن، في العمل، عند الجيران، صديقات الشباب، لا أعرف مَنْ، أنا.

إلا أنا، ربما.. أنا وحدي استطعت أن أتلمس فيك نزعة نحوِ شيء آخر. ولكن.. ياخسارة.. بعد أن فات الأوان، أنت قد تكونت، عقَدت على هذا ياحبي. لا فائدة. لا أنكر هذا منك، على العكس، هذا أيضاً يقربني منك أكثر، ربما لعل مايجذبك إليّ، ومايجذبني إليك، أيضا ربما، أنني كما تعرف امرأة قوية، مثل الست والدتك، الله يرحمها، أنت تجد فيّ نداً جديراً بك. تحدّيا.

قال لها : لا، ليس هذا. أعني أن مسألة المرأة القوية والتحدي، مسألة فيها نظر على الأقل، لست مقتنعا. أحب فيك أيضاً ضعفاً أساسياً، واحتياجاً أساسياً.

قالت له، مبتسمة ابتسامتها الساحرة، المُراضية، المشاكسة، الغزِلة معا:

– واللهِ ما انت فاهم حاجة!

مرت من أمام القهوة امرأة منقّبة، مرتدية العباءة الزرقاء السوداء، شق كجرح الموسي أمام عينيها، وبيدها طفل يتوفز وينطّ، يحاذر من بركة الماء الضحلة، في وسط الرائحين الغادين من أصحاب العمم والجلاليب والقمصان والبنطلونات والبنات بالفساتين المشجرة أو البلوزات كلها بأكمام طويلة الآن وفتحات الرقبة مقفلة تماماً، وسيارات الأجرة تشق طريقاً تتلمسه بين الناس، وامرأة تعلّق على صدرها سلسلة تنتهي بصليب ذهبي كبير، معلن، والدراجات تمرق تحفّ الرصيف – أو تكاد –وتوشك أن تمر على رصص العيش البلدي المغلّف بورق سوليفان، ملقاة على الرصيف.

قالت له: مهما أخفيت عني، من غير قصد ربما، فأنا الوحيدة التي أعرفك. موافق ياحبيبي؟

كان عبد الوهاب القديم. يشدو، يلوّن نجواه وشَجَاه، لماً انتَ ناوي تغيبْ على طول...

قال في سره : لا، لا. هاهي ذي تقول. وليست هذه آخر مرة. لأنه ليس في الحياة أبداً وداع حاسم، ولا قطع نهائي، هناك دائماً تداخل بطيء، وامتداد للنهاية، وذبول مؤلم على مهل. لا. لا يمكن.. هذا لايحدث الآن. لن يحدث.

قالت له : إسمعني أيضاً. شيء أخير.. أنا أحب طريقتك في صنع الحب. لاتظن أنني أطلب شيئاً آخر. لذّتي معك كاملة، إذا أحببت أن تعرف.

لم يجد ما يقول. كان – كما يتوقع من نفسه بالضبط – مضطرباً

مختلط الأفكار متقلب بل متلاطم الانفعالات. بينما هي في قمة تألقها، وسيطرتها على ماتقول، واضح أنها فكّرت وأعدّت ما تقوله الآن، طويلاً، تتكلم بثقة ومقدرة تلثغ بالسين لثغتها الخفيفة، وعند آخر كلمة في الجملة، قبل أن تتوقف ثانية واحدة، تعطي الكلِمة ذيلاً طويلاً إلى حد ما، فيه نوع من الأنثوية بل من الغنج الذي لايكاد يحس، مع كل صرامة واستقامة منطقها، مع كل صدق نبرتها.

قالت أيضاً في هذه الجلسة الغريبة الأخيرة.. الأولى على الأصح:

– نعم، أعرف مَنْ يدخل مكانا ما، الاجتماع، الصالون، المطعم، من نوع مصطفى الحجار مثلاً، فيجتذب الانتباه إليه على الفور، ويسيطر على الجوّ، يترك الجرسون، مثلاً، كل شيء ويأتي له، يصغي إليه الجميع مأسورين، عنده،طبعا، كل الـsavoir - Faire وأيضاً كل الـ- savoir vivre، لكن مع كل معرفته، وجاذبيته ومقدرته على التصرفّ، ومتعته بالحياة، مع كل ذلك أنا لاأحبه، يا أخي. أنا أحبك أنت.

لعلها لم تقل له قط، «أنا أحبك أنت» إلا في موضع المقارنة. هل هذا شيء سيئ؟ أم على العكس؟

كانت خطواتهما معاً، بطيئة وثقيلة، في العودة إلى بيت الشعري اليمانية الذي لن يراه ولن يخطو إليه أبداً بعد ذلك.

مرأى هذا البيت يتخايل له، دوماً، حضوره في روحه ماثل قوي. لأنه عرف فيه لحظات من السعادة والنشوة والتحقق لم تحدث له قط في أي موضع آخر.

لم يقل لها: ماذا قلت لي آخر مرة؟ في تلك الجلسة الغريبة على القهوة؟ قلت: «فكّر على مهلك فيما أقول لك الآن.فكّر فيما بعد».

ماذا قلتِ لي ؟

إنني دون جوان محبَط ؟ إنني بحاجة دائماً إلى امرأة، بينما أنت لست متاحة لي دائماً، ولايمكن أن تكوني للأسف، على حبّك لي، أهذا ما قلتهِ لي ؟

إنه عليَّ أن أعرف عيوبي ؟

إننا قد لانرى أحدنا الآخر، بعد ذلك، أبدا ؟

فهل كنت تقصدين أنك لاتريدين - بالفعل - أن نلتقي، بعد ؟ هل كنت قد انتويت حقاً أن تغيبي، على طول ؟وهأنت تقولينها ؟

وهل التقينا - حقاً - بعد، على أننا قد وصلت بنا الطرق إلى أكثر من موضع، معاً، وأوينا معا إلى أكثر من محطة، في المنيا، في اسكندرية، في المدينة التي قلتِ إنها مدينتنا ؟

هل هذا ما كنت تريدينني أن أفكر فيه، على مهل ؟

لم يقل لها: يا أعز الناس. أُحبك. وأفتقدك، ولا أريد منك شيئا. لعلني أخفقت حتى في أن أعطيك الثقة بأنني أحبك، بأنك دائماً محبوبة ومرغوبة ومطلوبة.

لا أريد أن أراك..لا أريد منك شيئا.

لا ، لا. أحبك. أريدك.

أفتقد شفتيك، أفتقد حسي بجسمك بجانبي، ومعي، متصلين ومنصهرين معا. أفتقد أحاديثنا الطويلة المثيرة دائماً للعقل، أفتقد نظرتك الطويلة العاشقة وأنت تريدنني. أفتقد أصابعك الصغيرة، وقدمك الصغيرة.

وشعرك الحرّيف النكهة، أفتقد صنع الحب معك.

ولن أطلبك أبدا.

لا أريدك إذا كان حبك رغبةً كله، وسطوةً كله.

قال : الحب لن يُذلّني أبدا.

قال : وليست هذه عنترية، ولا صرخة دون كيشوت. بل تقرير واقع بارد.

قال : على شاطئ أبو تلات المدوّم المرغّي بموج لايهن ولا يستكين، رائحة غاز خفيفة تهب من مصانع تكرير سيدي كرير، في مساء شم النسيم، كنت أمشي بنشاط، وحدي، على ساحة الرمل الفسيحة الخاوية، أسير على الجانب المبلول قليلا، المتماسك قليلا، قريبا من حافة الماء المتراوحة التي تذهب وتجيء، وتذكّرت شم النسيم من عشرين سنة، في برج العرب، وأنا أحلم بك،وسط صحراء معشوشبة، وكنت أعرف أنك كنت يومها في بيت أحمد ضياء الدين، ألمع صحفيينا قبل أن يضربه المرض، وكنت مع شِلة الأصدقاء الفنانين اللامعين أصحاب المكانة والشهرة، ولما وصلت إلى جدران مبان منخفضة على الشاطئ، وأعمدة خرسانية مقوّضة بالبلدوزر، مائلة، لن تكّتمل، كانت الشمس تنحدر إلى المغيب بسرعة، قرصا كبيرا يزداد احمراراً وتضرجا ويزداد انطفاء لمعانه في الوقت نفسه.

عندما رأيته.

كان يخبط الموج بزعانفه الضخام الرمادية،يصعد برأسه المفلطح ممدود الخطم، كان صارم الشكل، تصدر عنه أصوات، من الماء، بين خوار

الجمل وزئير وحش مكتوم، اقشعرّ لها بدني.

ومن بين زبد الموج الذي يضطرب فيه الوحش رأيت أن له سنامين، وأن جسمه لامع، مستدير، مصقول الجلد، يضرب لونه إلى الرمادي الداكن.

أحسسته - على البعد - يتنفس بتثاقل، وهو يصعد برأسه فوق الماء، كأنما يطلب شيئا، كأنما يبحث عن شيء.

وبشكلٍ ما، لم أستشعر خوفاً ولا توجساً من الوحش الذي كان يسبح على بعد أمتار مني.

ثم غاص في الماء واختفى.

كأنما كان يتجلى لي وحدي. كأنما كان ينقل لي رسالة لم أفكّ شفرتها وكأنني لا أحتاج أن أحلّ ألغازها.

ما زال الموج المِلْح يضطرب حولي.

لو رويتُ حتى الغَصَص ما ازددت إلا يقيناً بعطشي المقيم.

الفصل الخامس

جسدٌ طَعين

قالت له : كانت الشمس لم تكد تطلع من فوق الجبل الشرقي، لكنها على الفور أشعلت الموقع بحرارة صبحية لاتكاد تطاق. كان الأوفرول عليّ ثقيلا، مع أنه أخفّ ماعندي، كتّان ناعم. أنت تعرفه، رأيته عليّ في الموقع أكثر من مرة.

– نعم ، قلت لك إنه أفريقي، مع أنه ليس ملوّنا ولا حاجة، لكن صفرته الضاربة إلى زرقة شاحبة فرعونية –سماوية، تضفي عليه وهجا أفريقياً حارا.

– يعني.. !كنا مع الصعايدة والبولنديين قد عثرنا أخيراً على حَفْر في الجبل، تصورنا أنه لابدّ أن يكون باب المقبرة.كان مجرد فجوة في جدار الجبل،غائرة قليلا، كما تعرف، أنت رأيت مثل ذلك كثيرا، مع الهدم والحجارة والرمل كان أشبه بمدخل مغارة مسدودة في الجبل، لكن شيئاً في قلبي جعلني أوقن أنه هو المدخل، أخيرا، بعد كل هذه الأسابيع من الحفر والبحثِ والمحاولات المضنية.ما إن أزاحوا الهددَ والصخور الجيرية حتى بدا لنا ممر منحدر ضيقٌ ووعر. سقطتْ على أوّله أشعة الشمسِ، ثم مال في العتمة، سمعتَ الهتاف من بعيد: «هيه..هييييه..!» وصيحةَ عم زهران الآمرة: «وجّف ياواد انتَ وهوّه.. وجّفوا يا رجّاله..َفسحوا للست المفتّشة..» كنت

عندهم، كما عرفوني من زمان «الست المفتشة» لايهمهم أنني الآن الست «المديرالعام».

قاطعها : لايهمّ أحداً، هذا لقب مثل غيره، أنتِ دائما الستّ..ستّ الكلّ، سيدة الأرضين، ربة الحب، إلاهة الأنوثة، حتحَور، إلاهة...

أدركتْه قبل أن يستفيض: والنبي، وحياتي عندك، خلّ الشعْر الآن على جنب، ليس لأنني لا أحب الشعر، وخصوصا هذا الشعر طبعا، أنا أموت في الشعر

وبعد تردد ثانيةٍ واحدة، أو أقلّ قالت : وفى الشاعر. لكني أحكي لك الآن عن شئ مَهم..

كانا في استراحة المنيا العتيدة على كورنيش النيل، وكان عم أحمد العربجي قد ترك عربته الحنطور أمام الباب، علّق مخلاة التبن والشعير في عنق حصانه الأصهب ناحل الخصرِ، وأوى تحت ظل الجميزة الشاهقة، جنب جدارِ الجنينة الجوّاني، عزمتْ عليه أن يدخل ويأكل لقمة معنا، حلف ألفَ يمينٍ أنه لن يدخل، ودي تيجي ياست، هوّاياكَ العين تعلىَ ع الحاجب، واه يابوي، الله يخلّيك ياست ويخلي« البيه المستشار» والله ماني مهمّل الملِّجة المليحةهناني.. «وهكذا وهكذا، لكنه لم يرفض –على الأقل – طبق مكرونةبالفرن علَى فراخ، وسلَطة خضرا، قدمته لها بيدها في الجنينة، هبّ واقفا لدى مقربها منه، ودعا لها ألف دعوة صالحة.

– المهم، قالت، افسحَ لي الصعايدة الطريق،دخلت الممر، بعد بهرة الشمس، وقد اعتم وبدأ يهبط شيئا فشيئا، ويضيق. كانت الخوذة عليّ، وفي يدي البطارية القوية يطعن نورها المحدّد كتلة الظلام، ثم بدأت أزحف على ركبتي. رائحة تراب القرون الراكدة ثقيلة على الصدر، ولكن أرضيّة الممر

لحسن الحظ كانت رخامية ناعمة وباردة على نحوٍ فجائيّ، كنت أحس باولوس نائب رئيس البعثة البولندية ورائي، تعرفه طبعا، وليد مجتهد وابن حلال، ومتوتر دائما، سمعت صوت تنفسه الصعب في العتمة، ينهج مع أنه شباب، بالكثير في الثلاثين من عمره.

قال : بالضبط ربما لأنه شاب في الثلاثين من عمره..وراءك، في العتمة، «أمجادك» كلها لابدّ تطبق على صدره.

قالت : وبعدها لك بقى..سيبني أكمّل، كنت عارفه إن الريّس سيّد زهران وراءه، لم يكن الصعيدي الشيخ ليترك هذه الفرصة. كنت أعرف —وأنت تعرف طبعا —عوده الناشف وقوة احتماله، في رهبةِ الصمت سمعت أنفاسه منتظمة وثابتة.

بعد قليل اتسع الممر فجأة، هبتّ عليّ نسمات منعشة، قلت لنفسي: «فتحات التهوية الخفية المعتادة، أين هي؟ منقورة في الجبل، لا تكاد ترى..» وجدنا أنفسنا نحن الثلاثة في قاعة الدفن الواسعة، بطاريتي وبطاريات باولوس وزهران لا تكفي لإنارتها، لكننا لمحنا —يعني فرض نفسه علينا بقوة — الناووس الرخاميّ الضخم، جدرانه العالية السميكة من رخام أسوان الورديّ، الأصهب، سطع تحت أنوار البطاريات، ولكن غطاءه الثقيل — يمكن وزنه كان على الأقل نصف طن — كان مرفوعاً ومرميا على الأرض، الغطاء الذي يحتاج إلى عشرين رجلا أو أكثر لزحزحته من على الناووس.. هبط قلبي. اللصوص قد سبقونا.. لكني — من تحت قبل أن أرفع نفسي لأنظر — أحسست أن الناووس لم يكن خاويا. كانت الأرض مكّومة بأحجار النقْب القديمة والصخور المتساقطة، ورأيت أن الجدران — تحت ضوء البطاريات المتنقل — مازالت زاهية بالنقوش المأتمية والصور والكتابات المعتادة، لكن القاعة كانت صفصفاً وخربة، أفرغت من كل احتياجات الحياة بعد الموت.

عرفت على الفور من الخرطوش الملكي على الجدران أنه هنا مثوى الأميرة ميريت بنت الملك رمسيس الخامس(من الأسرة العشرين طبعا) «زهرة القمر المنيرة محظية السماء المحبوبة من الآلهة..» أحسست أن الأميرة ما زالت هنا، مع أن اللصوص أغاروا على مثواها.

سبقَنا إلى رؤيتها عم زهران. كَوم حجرين ثلاثة كبارا، وصعد عليها، ليلقي نظرة. وأول ما رآها هتف في القاعة الواسعة المهيبة: يابوي! الست رامة..! الست رامة بعينها وربّ الكعبة.. هيّ هيّ والله العظيم.. سبحان الخلاّق.

عندما صعدتُ بعده، ذهلت. دخْتُ لحظة. كان الشبه خارقا بيني وبين الوجه المرسوم على خشب المومياء الخارجيّ، أحسست لحظة أنني أنظر إلى نفسي من وراء ثلاثة آلاف سنة، حيّة، واسعة العينين عيناي هما ما اعتز بهما حتى آخر لحظة كما تعرف. نظرتها إليّ هي نظرتي أنا. كانت رامة وليست ميريت هي التي تحدق إليّ في نور البطارية الذي أخذ يتزعزع ويهتز في يدي. تساندت، ،ونزلت.

صاح عمّ زهران: المومياء مجروحة يا ولْداه..

عندما فحصنا التاووس رأينا أن الخشب المنقوش بتمائم الدفن المقدسة كان مكسورا عند الصدر، وفتحة الكسر مشعثة وخشنة، كان اللصوص، فيما يلوح، في عجلة من أمرهم، امتدت أيديهم إلى عقودها وسلاسلها وحليّها، انتزعوها بعنف من خلال الكسر وتركوا الشرائط المحكمة حول الجسد مفكوكة وممزقة. كان الجسد من تحتها يبدو لي في العتمة والنور المتراوحين، كأنه مازال غضّا ونضرا.. ولكنه مطعون.

كأنّ السكين قد غاصت تحت الثدي الأيسر، الجرح مفتوح وغائر

ولكن الدم مازال ينزف سخنا ومتدفقا لايغيض بشكلٍ مستحيل، ولكنه يحدث أمامي.

بعد ذلك عندما أكلمنا شغلنا فوجئنا أن حجريْ الزمرد lapis lazuli (لابد أنه كان من زمرد، كما هو واضح من الفتات الباقية في مكان عيني الأميرة ميريت) كانا منزوعين. هل تعرف أنني، للحظة، فقدت البصر، كل شيء سقط عليه سواد، أحسست يدي ترتفع ملهوفة إلى عينيّ، دون أن أحس ماذا أفعل، للحظة كنت قد فقدت عينيّ.

لم نعرف قطّ ما إذا كان اللصوص القدامى هم الذين سرقوا منها عينيها، أم أن أحد العمال الجدد أصحاب اللحى الطويلة الذين جاءوا من أبو قرقاص سبقنا وانتزع الحجرين وأخفاهما. عم زهران يحلف أنه لابد سيكشف الحقيقة، طال الوقت أم قصر. وأنا أصدقه.

عندما خرجت من مقبرة الأميرة ميريت صدمتني الشمس. أغمضتُ عيني. انقضّت عليّ الحدأة التي كانت تحلّق في السماء فوقي، أحسستها فجأة وبسرعة خاطفة تهوي على رأسي مباشرة، متجهة بمنقارها الأحدب المسنون إلى عينيّ. لم أصرخ لكن سمعت صرخات العمال الصعايدة «ست رامة.. ست رامة» بهلع ومضض، وكأنني مازلت أسمع الريس سيد زهران يهتف باسمي، داخل المقبرة، أمام الأميرة المنتهكة.

سكنت رامة فجأة. كأنما توقّف تيار الحياة حولها.

كانت وجنتاها مضرّجتين بحمرةٍ غير مألوفة. عيناها متّقدتان، وهي تنهج، نَفَسها متسارع وحارّ، كما تنهج أحيانا في فعل الحب نفسه.

لم يجرؤ – لم يستطع – أن يضمّها إليه.

كانت بعيدة جدا، وراء متناول الحب أو الحنو أو المواساة كلها.

عندما كانت «مراثي إرميا» تترامى من وحشها الموسيقي، «الهاي فاي» وجدت أن دموعي تهمي على الرغم مني. وهي كانت بعيدة.

لحظتْ بكائي الصامت وأنا هادئ جامد في جلستي، ولم تعلّق. كانت تنظر إلى الخارج من خلال خروم المشربية المنمنمة بضوء الغروب، في لا مبالاة نهائية، وما يشبه رفض التورط، تماماً.

قالت لي فيما بعد: الموسيقى العظيمة تجعلني حزينة. ليس لأنني أُسقط عليها أحزاني الشخصية، بل لأن كلّ عظمة، العظمة في كلّ شيء، تجعلني حزينة.

قلت: أذلكَ لأنك تفتقدين العظمة في فعل الحياة، يوما بعد يوم؟

فأجابت بسرعة: على العكس. لأنها تذكّرني بعظمة الحياة اليومية، بينما أنسى هذه العظمة، عادةً، وأميل إلى قبولها كأنها شيء مسلم به هي. ليست شيئاً مسلّما به. جدتها وبكارتها تهولني وتحزنني.

قلت لها: لم أقل أبدا ولم أتصوّر أنني أُسقط على الموسيقى العظيمة أحوالي الذاتية، الأرجح أنني أستبطن هذه الموسيقى، كأنها تلبسني، تتوحد بدخائل نفسي. العظمة فيها هي التي تستقطبني، تجعلني واحداً معها، مع أنني غيرها في الوقت نفسه. أجد نفسي متعبّدا – دون عبادة – في قدسها، كأنني أنتهكه بمجرد تعبّدي.

قالت له: من ألقاب الأميرة ميريت، في خرطوشتها، أنها محبوبة رع، وابنته، وأمّ الإله، في وقت معا.

قالت: التميمة الذهبية المدورة كانت ماتزال على ركبتها. لم يمسسها اللصوص، بلا شك خوفاً من لعنة لا تحيق بهم إلا بسرقة هذه التميمة بالذات، رمز الهبة الجسدية. نزل الإله بيتها وسطعت عيناها بنوره، وهبته نفسها مقابل قطعة ذهبية واحدة، تظل علامة عطائها جسدها المطعون، في عيدها وعيدهم، لكل طارق ليلاً أو نهارا، نبيلاً أو وضيعا، قويا أو معطوباً، دون تحرز، بطواعية، حتى تصل إلى أقصى درجة من مراقي التطهّر والتنزه عن المآثم جميعا، عندئذ فقط تهب نفسها لرجلها الواحد الوحيد.

«ما جسدك إلا قالبٌ هو عطيّة من السماء والأرض معا».

قال: نعم. الاحتمال قائم أنها تحبني فعلا، بكل هذا القدر.

ضحك بمرارة.

قال ليس هناك إلا مرّة مصرية حقا، من بنات البلد حقا، جنّتها ليست خالصة حقا، عندها كل هذه الفنون الشهويّة، كل هذه المقدرة على إثارة الرجال.

هل كل شيء عندها مسخّر للشهوة، يمرّ من تحت، الذكاء والمعرفة واللماحية والحنكة والتضحيات، واللغات القديمة والحديثة، كل لغات مصر العريقة والمعاصرة معاً الهيروغليفية واليونانية والقبطية، البلدي والفصيح ، لغة حوش بردق والأنفوشي ولغة حيتان الانفتاح ونخبة المثقفين.

هل المعرفة مسخّرة عندها للشهوة.

أما أنا فشهوتي للمعرفة.

هل بعتُ روحي مقابل المعرفة؟ هل أنا نوعٌ من فاوست آخِرْ موضة،

معدّل، بشرّطَة؟ وهل الجنس أيضاً من قوام المعرفة؟

هل السيطرة على رجالها مما تستمتع به أيضاً، إلى جانب انصياعها لهم؟ إذلالهم وإخضاعهم لسطوة أنوثتها؟ فلماذا إذن كل هذا العطف – هل هو عطف أم حبّ فعلاً ؟ – هذا الحدب على المعطوبين والمضروبين والهالكين، الدون كيشوتات بكل صنوفهم، العطف الذي ينطوي أيضاً على استثارة شهواتهم وشهواتها؟ لماذا هذا الحنان الذي لايطاق أحياناً؟ جنباً إلى جنب مع لا مبالاةٍ اكلينيكية، تشريحيةٍ تقريباً؟

قال: شرموطة مصرية هايْ كَلاَس. راقية جداً، متحضرة غاية التحضّر، كورتيزان عصرية ومعاصِرة. ليس من أجل المال، هي دائماً « تدفع فواتيرها» لكن من أجل الحبّ، تعطف من أجلِ الحب بلا مساءلَة ولاحساب. أو من أجل الشهوة، أو السطوة، أو تَذليل وعور الرجال، أو من أجل استجداء أو استجلاب أو استحقاق الحنان. من يدري؟

قال: وقديسةٌ من قديسات الجسد والمعرفة.

قال لنفسه: هل أنا قاسٍ عليها، قسوةً غير مبررة، وسخيف أيضاً؟

هي تقول: أبداً ياحبيبي، كل ذلك من أوهامك وشطحات تهويسك. لست إلا امرأة عادية تماماً، ككل النساء، فيّ عيوبهنّ وربما مزاياهنّ. نعم، مزاياهنّ بالتأكيد، ألا تستطيع أن تنظر إليّ من غير تمجيد ولا تقديس ولا تأليه، من غير إهانةٍ ولا تحقيرٍ أيضاً، تنظر إليّ، أنا، لا إلى تخيلاتك عني.

قال: نعم، للأسف، أستطيع. لا أملك إلا أن أستطيع.

أو هي تسكت تماماً.

كيف أستطيع – من ناحيةٍ أخرى– ألاّ أنظر إلى هذه العلاقة الفذة

بينكِ وبين جسدك المتوهج الطعين في وقت معاً؟

جسمك مسيطرٌ، وسيّد.

كيف أستطيع أن أنسى الكريمات المعطّرة والمعاجين الغالية وسوائل التطرية ناعمة القوام التي تدللين بها هذا الجسد، وتدلكين جسمي بها، أيضاً، تثيرينه بحركات تمسيدك البطيئة المتمهلة المستمتعة بما تحفزه وتؤزه من هيجان جديد بعد استنامة الشبع. كيف أنسى انصياعك لأوامر هذا الجسد ومتطلباته، وراحته بعد غمرة الرضا البهيج، وعريه كما لو كان هو حالته الطبيعية – وحش كامل البراءة في أدغال المدينة وتراكبِ أشيائها وجوامدها – كيف أنسى أنينه الجريح.

كأنما هذا الجسد هو الذي يتطلب طعنته القاتلة.

أو كيف أنسى هذا المجد المتجسّد في الماء، في البانيو، حيث الأمواج الرقيقة تحمل ثدييك على هينة، وتغمر بطبقة شفافة رقيقة سطوح التدويرات النضرة والانبساطات والانحناءات الناعمة، أوّ تحت انهمار الدوش وأنت تمسدين هذه الامتلاءات وهذه الوهدات، تقوسات الفخذين العظيمتين، والوادي الصغير المعشوشب تحت قبة البطن الخمرانة المكينة عليها الخطّ الخفيف المتعرجّ الذي تخلّف بعد ولادة بنتك ولم يَمّحِ بعد كأنما ليؤكد الاستدارة والطراوة والتماسك وصقال السمرة الباهرة معا، كيف أتجاهل مالم أره قط، خوضها أمواجَ البحر في ميامي أو المعمورة، أو الساحل الشمالي، أو في بيسين نادي الجزيرة، في المايوه المحبوك على جسدٍ يفيض من حبكته على النهدين والردفين، وهي تسبح، دولفين يحيا في وسطه الطبيعيّ المائي، كأنما ولدت وعاشت طول عمرها في الماء، أو في بيسين الكاتاراكت، ومعها مهندس الترميم الشاب، الشيوعي القديم،

النوبيّ الذي يصطنع الغناء بلغته النوبية – هي تعرف منها طراطيش كلمات – يتهدج صوته بها ويثير ثائرة الغربيين – بناتٍ وصبيانا – بنعومة رجولته، مثل خوليو على نحوٍ ما، جسمه المحروق الناحِل العظْميّ مازال يحمل آثار التعذيب في معتقلات عبد الناصر.

كانا جالسينْ على إيليت في اسكندرية.

جاءت إلى المائدة المجاورة يونانيةٌ كهلة إلى حد ما، ومعها أفريقيّ يتفجر شبابا وجنسا كانا يرقبانهما وهما يطلبان ثلاث أربع زجاجات بيرة ستيلا (للتصدير) وغداءً فواحا من الستيك نصف النيء بالفلفل مع السَلطات والطحينة وبابا غنوج، وكان الولد يأكل بشهوة واضحة لابد أنها تماثل شهوته في صنع الجنس أيضا.

قالت له: لا أتصور كيف تحب امرأة زنجياً، لا أطيق أن أتصور كيف تنام معه.

صدمته النغمة العنصرية في كلمتها لأول وهلة، ما أغربَ هذا التمييز منها، هي المستنيرة المتفتحة عقلاً وجسدا على السواء. لكنه أدرك على الفور أنها تعني عكسَ ما قالت تماما، وأن رجولة الزنجيّ – الأفريقي أو الأمريكيّ الأسود أو النوبي سواء – تفتنها وتغويها، بدائيته الحوشية القريبة جدا من الحيوانية البِكر البريئة من كل تعملٍ أو ترهُّف أو تحرُّزٍ توقع عليها سحرا.

عندما ذكّرها بما قالت، بعد سنوات، قالت إنها لم تقل هذا قط.

ثم قالت: لم أكتف. لم يكن ممكنا أن أكتفي بزيارة المطران والشيخ حسن فاضل بل كان لابَد أن أرى ميّادة. فقال لها: من ميّادة؟

قالت: «ميادة الفتاة التي أثارت الدنيا وقلبتها رأسا على عقب، كما يقال. قالوا بيتها في بني هلال. أخذني عم أحمد العربجي، بعد تردد.

قبل أن ندخل بني هلال كانت المصفحّات تقف أمام الشارع الرئيسيّ، وكان عساكر الأمن المركزيّ واقفين شاكي السلاح، جامدين، على مدخل الحي البلدي.

طبعا كل ما يمكن أن تتوقعه: الحواري الضيقة وأكوام الزبالة وبرَك الماء العطن وقد جففتها الشمس المحرقة وتركت حوافّها - ورائحتها - على الأرض الطينية المشققة أو المدكوكة بالتراب والحجر القذر، العيال يلعبون في ماء المجاري يتدأدأون يصرخون يضربون بعضهم بعضا معظمهم بجلابية واحدة على اللحم، صبيان وبنات، تظهر منها أجسامهم المكعبرة الناشفة أو الملظلظة بطريقة مرضيَة - نحن نأكل العيش المدعوم بنهم - يجرون وراء كلاب رمادية اللون وكأنها مع ذلك نازلة من هيروغليفيّة المعابد، البيوت المبنية بالمملح والأسمنت والطوب الأحمر العاري قبيحة مكركبة وفوق سطوحها أكوام الجلّة وأعواد القطن والذرة الجافة للوقيد، الأقفاص والقفف والصفائح والأخشاب القديمة المعتادة جنباً إلى جنب مع غابة متقاربة الفروع المعدنية من هوائيات التليفزيون.

سألنا عن بيت ميّادة، كان الفتيان القاعدين على أبواب البيوت، يدخنون السجائر، عايقين، عاوجين الطواقي على شعر مسبسب، فتيان الصعيد من الجيل الجديد عادة، يلعبون السيجة على تراب الطريق، ينظرون إلينا بصمت أو بارتياب أو بنصف ابتسامة بذيئة فاحشة المعنى، ميادة أصلها صارت مشهورة.

أخيرا دلّونا على البيت، أوقف عم أحمد العربة على الباب، ينتظرني،

وبمعتي ما، يحرسني كذلك فيما أتصور، العربة الحنطور جذبت على الفور شلة عيال يتواثبون ويتمسحون بها ويحاولون ركوبها. تركت عم أحمد لمصيره معهم، وصعدت إلى الدور الثاني.

فتحتْ لي الباب امرأة حدست على الفور أنها أم ميادة، صعيدية طبعا، قوية البنية، ناحلة، تغطي نصف وجهها - حتى منِّي - بالطرحة السوداء تماما مثل قريباتي في القوصية، أخوات وزوجات أبناء عمومتي الفلاحين، وجهها مليء بالتجاعيد وعيناها غائرتان في محجريهما وتلمعان مع ذلك بقوة، حدأة أرضية، استقبلتني في الأول بتحفّظ وشكّ، ثم بترحاب من القلب، قلت لها إنني لست جورنالجية ولا من بتوع الحكومة، وإنني أحب فقط أن أرى ميادة وأسلّم عليها، إنني مديرة في الآثار وبلديّات.

جاءت ميادة تحمل لي كنكة قهوة نحاس كبيرة وفنجانا صغيرامذهّب الحواشي، تماما مثل فنجان القهوة في المطرانيّة، من بقايا عزّ قديم أو ربما من جهاز الأم، زمان.

بنت جميلة بمعنى من المعاني في سمرتها الرائقة وعينيها الجريئتين - الوقحتين تقريبا حتى -في فستان أحمر مشجّر بالأبيض محبوك على ردفيها الكبيرين وبطنها. كانت صبغة الروج الفاتحةعلى شفتيها الغليظتين لا تعطي إحساساً مريحا مع سمرة بشرتها الداكنة.

أخذتُها جنبي على الكنبة الاسطنبولي المغطاة بمفرش مصنوع من الخرق الملونة وقطع القماش مختلفة الألوان والنسيج، صوف وقطن وحرير قديم. حايلتها قليلا، كما تعرف أنني أستطيع - حتى جعلتها تحس أنها في أمان، حتى مع وجود أمها التى قامت بعد ذلك بقليل،وأنني لا أريد بها شرا. على العكس.

قالت لي إن أباها في الغيط، حبسها في البيت ورفض أن يتركها تذهب للمدرسة الثانوية –تغور المدارس عاد واللي جالنا م المدارس –حتى تنزاح الهوجة.

قالت لي في الأول إن حلم حياتها أن تكون مثل شريهان في التليفزيون، شكلها، وصوتها، وحركاتها، وفساتينها، شيك وحلوة وغندورة وكل الرجّالة يحبونها «وعندها فساتين لا أول لها ولا آخر. صحيح ما اقدرش البس فساتين كده، عشان حرام، لكن كان نفسي البسها واقعد بيها في البيت حتى».

قالت لي إنها حكت لفوزية صاحبتها في المدرسة كيف أنها تذهب مع الرجّالة في شقة مفروشة، تشرب الحشيش وتشم البودرة مع بنات مسلمات أخريات. قالت لها إن الواحدة تقبض ٥٠٠ جنيه بحالها في الليلة الواحدة، علي تصويرها بالڤيديو مع الرجّالة «عارفة حضرتك جصدي إيه يعني! أهو جلت لها الكلام ده وخلاص كده من دماغي وحلّفتها بأيمانات الله أن تكفي ع الخبر ماجور» لكن فوزية طبعا لم تكّذب خبرا – كما يقال –وحكت الحكاية لواحد في «الجهاد».

مرتْ ميّادة على ثدييها، بيدها، بحركة لا إرادية، كان ثدياها كبيرين بالنسبة إلى جسمها، لاحظت ذلك من الأولّ، وسألت نفسي كم من الصبيان لعبوا بهذا الصدر الغض!

«قالت: جاءوا وأخذوني. واحد اسمه أبو غدارة وواحد اسمه أحمد اسماعيل. قلت لهم الحكاية كما قلتها لفوزية، وزودّتها حبتين كمان، وقلت لهم على أسماء ناس نصارى ومسلمين «كنت فاكراها كده» وعلى عنوان الشقة. قلت لهم بعد ما نشرب خمرة ونشم وننبسط كل واحد منهم

يقلّع لنا هدومنا، وينام معنا، يعني كل واحد نصراني مع واحدة مسلمة، والڤيديو شغال، بيصوّر. قلت لهم «الباب اليكتروني سحري، يفتح على صالة فيها رجل شائب الرأس لايتكلم إلا بالأشارة، ومعه أربعة نصارى آخرين، وامرأة عجوز. الراجل قاعد على الأرض، يكبش من كومة فلوس قدامه، ويعطي كل بنت ٥٠٠ جنيه على دورها في الفيلم.»

– لا غرابة أنهم اخترعوا حكاية الباب الإليكتروني وجهاز الڤيديو والتحلل الجنسيّ. هذه عندهم هي رموز الثقافة «الصليبية» رايات الحروب الصليبية الجديدة، هي في الوقت نفسه آيات العمل الثقافي الغربي الاليكترونيات الڤيديو الجنس في مقابل السيوف والحجاب والكتب الصفراء.لكنهم لايترددون في استخدام الكاسيت والتليفزيون، يركبون المرسيدس، ويعملون عملياتهم الجراحيةعلى أيدي« النصارى واليهود في بلاد الكفّار» . قِران الهوس الإليكتروني بالهوس الجنسي.

قالت رامة:..طبعا كله خيالات.عرفت بعد هذا أن الشقة ملك واحدة ست تعيش في أبو ظبي من أربعة عشر عاما، وتركت العمارة لأخيها شقيقها صاحب البوتيك في الدور لأرضي، وإن ميادة كانت أحيانا تشتري من البوتيك إصبع روج أوقلم للعينين.هذا كل شيء.

قالت رامة: لم أسترح حتى حصلت على محضر البوليس الرسمي، بعد أن أخذ إذن النيابة وكسر باب الشقة، والمحضر ياسيدي يقول لك بالنصّ، مستعد تسمع؟

* المكان عبارة عن شقتين بالدورين الثالث والرابع يربط بينهما سلّم داخلي، ومخصصتان لصاحبة العمارة، عبارة عن أربع غرف وصالة في الدور الأرضي ومثلها في الدور العلوي.

❖تم تفتيش جميع محتويات المكان بدقة...السجاد والموكيت والدواليب، والبطاطين والمخدات والمراتب والكتب وأدوات المطبخ حتى الملابس الداخلية.

❖ لم يتم العثور على أي نوع من الكاميرات أو الأفلام أو حتى كاميرا تصوير عادية.. ووجد بالشقة تليفزيون عادي وجهاز ڤيديو.

❖ لوحظ وجود كميات كبيرة من الأتربة والعنكبوت في مختلف أرجاء الشقتين ومبيدات حشرية على الأرضية والجدران، مما يؤكد أن المكان ظل مغلقا لفترة طويلة.

❖ تم العثور على ١٢٠ شريط ڤيديو تم فحصها جميعا وعليها أفلام عربي قديمة والمسلسلات التي يذيعها التليفزيون وليس فيها أي شيء غير عادي وفيها أحاديث للشيخ الشعراوي ومصارعة حرة للأقزام بينما قالت المنشورات إنها أفلام جنسية تم تصويرها لبنات المسلمين.

❖ تم العثور على بعض الأقراص المهدئة تبين أنها لعلاج نوبات الصرع، وبالسؤال تبين أنها لعلاج ابن صاحبة الشقة أثناء وجودهم في مصر.

❖ يقطن أسفل الشقة أستاذ ملتح بجامعة المنيا، وجميع السكان من الأساتذة، أو كبار الموظفين، وأقروا جميعا عدم تردد أشخاص غرباء عليها.

❖ النسخة الوحيدة من مفاتيح الشقة موجودة مع الشقيق الأكبر لصاحبة العمارة، ويشغل منصبا تعليميا مرموقا في المنيا.

ولا باب إليكتروني ولاڤيديو خفي، ولادياولو! ولا حشيش ولابودرة ولافسق ولافجور ولا حاجة!

قال: الفسق والفجور! تحت دعوى الفسق والفجور حاولوا ذبح الكاتب

الشيخ الوديع. مع أنه في الحقيقة بيوريتاني أخلاقيّ، من الدَقة القديمة، مثلي قليلاً في هذا، ورغم حسيته وغرامه الغابر بالأعجاز الهائلة فهو أخلاقي حتى النخاع.

قالت لي ميادة، بعد أن اطمأنت لي تماما، إنها تذاكر ليل نهار، لتنجح بمجموع في الثانوية العامة، وتدخل كلية التربية أو الآداب، وتبقى دكتورة في الجامعة «زي حضرتك كده» .قالت إنها اعترفت للنيابة. قالت لهم إنها اخترعت كل هذه الحكايات، وكل هذه التفصيلات، كما سمعتها في برنامج «أجراس الخطر» ، وهذا برنامج في الراديو يذاع مرتين كل يوم الساعة اتنين وخمسة والساعة عشرة وخمسة بالليل، وإنها أضافت شوية تحابيش من أفلام التليفزيون ومجلات العيال «اللي كنت باقراها، ميكي وفلاش. مش عارفة قلت الكلام ده كله ازاي، أهو بجي اللي حصل حصل» قالت إنها خافت من أبو غدارة وأحمد اسماعيل وغيرهما، قالت لهم الحقيقة فضربوها بالأقلام على وجهها وبالأحزمة الجلد على بطنها. هددوها بالذبح إن رجعت في كلامها. قالوا لها «خليك على كلامك عن شبكة الدعارة ونحن نحميك ونصونك من كل أذىَ» وجاءوا لها بخمار وجوانتي على أساس أنها أصبحت من الأخوات. قالت لي في الآخر« أنا مش بتاعة حب، مش حتجوز خلاص، اتعقدت من كل حاجة. أنا تعبت أهلي، يقطعني، عملت لهم مشاكل كثير».

هزّت رأسها بحركة مسرحية – مثل شريهان بلاشك كما تصورّت فيما أظن – غمر وجهها المتضرّج شعرها الأكرت المفرود عند الكوافير، وفيه خصلات كستنائية مصبوغة تتخلل سوداه الفاحم، مسترسلا على ظهرها متروكا على حاله حسب الموضة.

قال : ماجدوى إثارة كل هذه المواجع؟ ألا يحسن بنا أن نسكت، أن

نحاول لمّ الموضوع وتضميد الجرح؟ تقليب هذه المشاكل يمكن أن يؤدي بنا إلى ما حدث في لبنان.

قالت: لا، لا.مصر مختلفة جدا. مواجهة الأحداث وليس التغطية عليها، المصارحة - كما قال الشيخ حسن فاضل - وليس المكاتمة، ولا مواكب الدعوة وتوزيع الكوكاكولا والشربات في سرداقات الحكومة تتصاعد فيها الزغاريد ويتبادل الشيوخ والقسس تبويس الدقون، تلقى الخطب العصماء ثم ينفضّ المولد والجرح باق على النغل.

ترامت إليهما من الكورنيش أغنية ارتفعت ثم خفتت «مصر التي... ودمي» الصوت المحمّل بنضج لايكاد يحتمل من فرط أنثويته وقوته وتهدّج نبراته، قال: «مصر التي في دمي..في دمي. هل يسفحون دمي لكي ينالوا منها؟ لكنها في دمنا، كلنا، كلنا».

قال: نعم، أنا معك. هل أحتاج أن أقول ما أشبعناه قولاً، حتى مللنا، مع كل صحته: التعليم من الأول، تطهير الكتب في المدارس، والكتب الأخرى الشائعة الذائعة رخيصة الثمن جدا مرمية في الشوارع كلها شعوذات وخرافات وشياطين وجن أحمر، وصلت الأمور إلى أن التلاميذ في بعض المدارس يرفضون تحية العَلَم في الصباح بدعوى أن ذلك كفر وحرام وعبادة أوثان وتقديس خرق من قماش، وقبل كل شيء، قبل كل شيء الفقر والجوع والبطالة والفساد وفقدان الاتجاه وتآكل الحسّ الوطني. قلنا ذلك وعدنا وزدنا، وبعدها؟

قالت، متأملة، أسيانة على غير عادتها: تحولوا إلى أسطورة مرعبة، قُوى خفية تسيطر على أذهان الناس. الجميع يعيشون في حالة رعب وقهر، عتمة وانسحاق أمام هذا الوهم.

قال: لا، ليسوا وهْماً. هم واقع. سمعت –ولاشك أنه صحيح أيضاً– أنهم دخلوا البندر وقالوا للمسئولين «احنا عندنا استعداد نولّع المركز نفسه» ولم يفعل أحد شيئاً، عندئذ لماذا لا يحرقون أبو قرقاص بعد ذلك؟ لماذا لايحرقون البلد كلها؟ فرضوا إتاوات، أحرقوا زراعات، قتلوا دون تورع، لم يحاسبهم أحد. لم يعاقب مجرم واحد من سنين.

قالت: صحيح. تُرِكَ لهم الحبل على الغارب – مادام أحدٌ من الحكومة لم يضرب، اتفاق على تبليغ منهم في قضايا السرقة وغيرها، ويتركوا وحالهم.

قال: قضينا سنوات في محاولات الحوار، ذهبنا إليهم على أرضهم، هذا هو الخطأ القاتل. لو أن الحوار يجدي لأثمر بعد كل هذه السنين. هل نتحاور مع الفاشيّن، هم لايعرفون إلا لغة العنف والطبنجة والمدفع الرشاش، لغة القنابل والسكاكين، يتشدق بعضهم بالديمقراطية، ينتهكونها كل لحظة. يستغلونها لكي يغتالوها.

قالت: وحدَه المجنيّ عليه هو الوطن.

قال: الوطن؟ الوطن عندهم مفهوم وثني. فكرة «الوطن» عندنا حديثة جدا (وقديمة جداً أيضاً) قبل ١٩١٩ لم يكن أحد يهتف «نموت نموت ويحيا الوطن» بل كانت الناس تقول «الله ينصر أمة المسلمين» هذا المفهوم يعود لأنه لم يكن قد انزاح، حقيقةً، من وجدان الناس العميق. ظل كامناً وحياً وفعالاً حتى لو كانت العشريناتِ والثلاثينات المجيدة قد أنزلته إلى ما تحت الوعي، الآن جاء التليفزيون ودعاته بكل ما أحيط بهم من هالات، وخطباء الزوايا والمساجد التي تنبثق كل يوم، ليؤكدوا مفهوم «الأمة» لا مفهوم «الوطن» أصبح حراماً أن نقول «الدين لله والوطن للجميع» ما الذي لم يصبح حراما؟ الفن، التمثيل، السينما، الغناء، الرسم، تعليم المرأة، الجسد

كله حرام، عورة، سوأة. ماذا حدث لنا؟ ماذا سوف يحدث؟

قالت : جرحٌ غائر في جسد الوطن. لست أقول ذلك فقط لأنني مسلمة. من حقي أن أقولها - بل لأنني مصرية.

حكيا لأحدهما الآخر الحكاية بالتفصيل.

يوم الأربعاء طلبة الصنايع الثانوية في بني مزار يتجمعون، يفردون المنشورات، ويقرأونها، جماعة. حرّ مارس الساعة ١١ يصعد إلى الرؤوس بدماء فوارة. ولد طويل ظَهَر فجأة بين الطلبة، بقميص أبيض وبنطلون جينز، لحيته مازالت خضراء خفيفة، وعلى رأسة طاقية مخرّمة، قرأ، بصوت متقطع ولكن عال مشحون بالانفعال: يامسلمين، ياشباب الإسلام. تنتهك أعراض المسلمات وأنتم ساكتون، كأن على رؤوسكم الطير؟ اقرأوا يامسلمين، هاهي ذي جريدة الحكومة تقول: «شقة كبيرة جدا يديرها أمريكيّ صهيونيّ، لاتعلم عنها الحكومة شيئا، مزودة بباب إليكتروني وكاميرات ڤيديو تصور الفتيات اللاتي تستدرجهن فتاة مجندة لأصحاب الشقة» ارتفع صوته ثاقباً، مشروخا: «في أوضاع مخلة بالآداب، تطبع منها نسخ عديدة لإرهاب الفتيات، ليس هذا كلامي، هذا كلام جريدة الحكومة الجاهلية التى تحمي الكفّار والنصارى وتعقد الصلح مع اليهود، أعداء الله. انظروا ماذا يفعلون؟ الجنس، الدعارة، إغداق الأموال. هل نصمت، ونقعد كالنسوان؟ أنتم حماة الدين، أنتم شباب الصعيد، كيف تقبلون هذا الضيم؟ كيف تسكتون على تدنيس أعراضكم؟ عِرضكم هو حياتكم. إن لم نستطع أن نصونه فالأولى بنا.. الأولى بنا.. » كان صوته الآن صراخاً حاداً «أن نذهب إلى قبورنا لنموت. هيا يا شباب. من قتِل دون عِرضه فهو شهيد.. إلى الشهادة.. إلى جنان الخلد

ونعيم الحياة الآخِرة الباقي بعد زوال الأزمان.. إلى الجهاد..إلى الجهاد» .

تدافع الأولاد – طبعا– إلى باب الخروج، أزاحوا عن طريقهم البواب العجوز، لم يكن قد أبدى أدنى حركة، تدفقوا إلى الشارع. أخرِجوا طلبة المدارسِ الأخرى، كان الطلبة الآن يضحكون ويهرّجون – من يستطيع أن يقاومِ ضحكَ الشباب؟ – ساروا علي الطريقِ الزراعي، تحت وقدة الظهر، ساعةَ بحالها، أربعة كيلو مترات مرّت في حميًا الالتمام الحميم.

الساعة١٢ جاءت المظاهرة، صاخبة مهللة بهيجةوحارة، تضخمت صفوفها بأولاد المدرسة التجارية الثانوية، في شارع بور سعيد تناثرت الحجارة وقذائف الطوب، محل لافتته «خردوات رؤوف سعيد رزق» وقعت، تحطمت لمبات النيون، طقطقت شرارات الكهرباء وانهمرت الشظايا الرقيقة البيضاء، انهار لوح الزجاج العريض كسراً مشعّثة جارحة، سقطت لعب الأطفال الكاوتش وعلب السجاير كليو باترا وروثمان وزجاجات الكولونيا التي اختلطت رائحتها بفوح المطاط المحترق الحار، عشرة تلاميذ أو أكثر يهجمون على بيت جورجي عزيز أيوب، بالحجارة على الباب الذى يحاول أهل البيت إغلاقه، خبطات الحجارة على خشب الباب لها صدى صدمات مكتومة.

في المساء كان أبو غدارة يغادر فُرْنه في بني هلال، على موتوسيكل بدون نمر، ينطلق في شوارع المنيا بسرعة مدوية، ووراءه حسن ناصر، لاحقتَه ثلاثة موتوسيكلات من الأمن المركزيّ، دوت طلقات النار الصماء في الشارع الذى خلا فجأة من كل حسّ، سقط حسن ناصر، أودع أبو غدارة تخشيبة المحافظة، في بيته وجدوا كل العدّة، كماهو المتوقّع، بودرة ديناميت، رشاشات، طبنجات، قنابل دفاعية، أجهزة لاسلكي، أجهزة توقيت، أسلاك، أسياخ حديد، موتورات نقالي صغيرة، مؤن تكفي لمواجهة حصار أسبوعين ثلاثة، أكل وشرب وذخائر رصاص من مقاسات مختلفة.

في هذا الصباح كان الملتحون قد مروا على باعة الصحف والمجلات، وجمعوا المجلات التي على أغلفتها ما أسموه الصور الخليعة، وما أسموه كتب الكفر، كتب الفلسفة والأناجيل وشروح الكتاب المقدس، والكتب التى تتحدث عن الحب والزواج وليلة العرس ورسائل الغرام وباقي كتب أرماني عزيز وغيره، كوّموها وسط الميدان أمام المحطة وأشعلوا فيها النيران. أصحاب الأكشاك وباعة الصحف وقفوا صامتين، ألسنة اللهب تتراقص في نور الظهر، شاحبة، يصحبها دخان كثيف ورائحة الورق المحترق، تتطاير شذرات وقصاصات متفحمة خفيفة في الهواء الراكد، الصمت قد حلّ بساحة المحرقة، تماما، «والبوليس حيعمل إيه؟ ماهم عارفين وبيشوفوهم وهم بيحرقوا الكتب كل يوم والتاني... أنا لو بلّغت البوليس المرّة الجاية حيحرقوني أنا والعيال والبيت والكتب كمان».

في العصر قال وجدي سيّد السماك:

«انطلقت ثلاث رصاصات من رشاش أحد جنود الأمن المركزيّ المكلّف بحراسة كنيسة «مارمينا العجايبي» ببني هلال، استقرت إحداها في رأس أخي «ربيع» الذى كان يشتري خبزا من المخبز المقابل للكنيسة فأردته قتيلا.. الرصاصة الأخرى اخترقت ساق السيدة فاطمة حسن بائعة الجرجير التى ترقد في مستشفى المنيا العام»

أكدت السيدة فاطمة أنها فوُجئت بطلقات نارية اخترقت ساقها وبعدها لم تشعر بشيء.. الرصاصة الثالثة كانت من نصيب الطفل الصغير محمد شلقاني وعمره ١٠ سنوات. يقول تقريره الطبي، فقط، إنه مصاب بجرح رضّي بالجبهة.

قال الطفل إنه لايعلم شيئا سوى أنه كان ذاهبا لأبيه وهو خبّاز بمخبز كيلاني، وفوجئ بهذه الأعيرة ولم يفقِ إلا في المستشفى.

قال شهود العيان إنهم لايستطيعون الجزم بأن إطلاق الرصاص كان متعمدا في حين أكد أحمد حسن سرور المحامي في شهادته أمام النيابة أن الجندي كان ينظف سلاحه.

فور الإعلان عن وفاة ربيع الشهير بحسن توجهت الجماعات المسلّحة إلى قسم المشرحة بمستشفى المنيا العام واختطفت الجثة، وتوجهت بها إلى حي بني هلال، وانطلقت بمظاهرات تحمل الجثة وتهتف بالثأر فرقّتها قوات الأمن المركزي واسترجعت الجثة وحاصرت القوات المستشفى حتى تم الدفن، صباح الخميس.

في أبو قرقاص ضربوا عبد الستار المصري – وهو، بالمناسبة، شرطيٌ بالمعاش، هل هو مخبر، يعني؟– ضربوه بعرق خشب مشتعل، حرقوا يده، خطفوا الكاميرا التى كان يصور بها «الأحداث» هل كان هاوياً، مجرد هاوي تصوير، أم كان التصوير بتكليف؟

جاء يوم الجمعة الدامي. خطب الشيخ على محمد العلواني أمام مسجد النور في أبو قرقاص وهتف «الدفاع عن أعراض المسلمات». أفاض في وصف شقة كازينو ناني – هكذا سمّاها – وبابها الإليكتروني وكاميراتها التي تصور مشاهد الفسق والفجور، ودعا إلى الانتقام من الصليبيين. وكان أمام المسجد صفائح مملوءة بالجاز، وكرات من القماش، وعصي، وجنازير، وسيوف.

قال الأب يؤانّس راعي كنيسة العذراء:

–فوجئنا الساعة الواحد والنصف ظهراً بحشود كبيرة من المواطنين يلقون الطوب والحجارة وكرات النار على الكنيسة مما أسفر عن العديد من التلفيّات منها تهشّم ثلاث سيارات وبعض الأثاث وحجرة الخفير.

أضاف مجدي حلمي حبيب المحامي الذى يسكن ماري جرجس بشرق البلد ... إننا فوجئنا الساعة الثانية والنصف بحشود من المواطنين تأتي من غرب البلد تحمل شعلات من النار ألقتها على الكنيسة كما أشعلوا دراجة بخارية أطلقوها داخل الكنيسة مما أدى إلى حرق أغلب محتويات الكنيسة. وقال المحامي عيسى نجيب إن التلفيات بلغت حد قلب السيارات في الشوارع ،وتكسير معظم المحلات والصيدليات التى يملكها مسيحيون بالإضافة إلى جمعية الشباب المسيحيين وخلاص النفوس.

في سمالوط ألقيت على الكنائس أحجار ملفوفة بخطابات تهديد.

في قرية أسمنت، وفي الفكرية، أبو قرقاص، ألقيت كرات نار على بيوت الأقباط. كان للكريات المشتعلة صفير حاد ووهج يتقد باختراقها الهواء وارتفاعها، ثم يخبو قليلا في هبوطه، ثم تصطدم بالأرض، أو على سطوح البيوت، فتنطفيء، أو يسارع أهل البيت بإطفائها يلقون عليها ما عندهم من ماء، أو بطاطين، أو حِفان تراب.

لم تتحرك أجهزة الإطفاء بحجة أنه لاتوجد أوامر.

قالت صحيفة «الأهالي» إن الدكتور مراد دانيال أبلغ ضابط مباحث المركز تليفونيا عن تعرضّ المتطرفين له، وتهجمهم عليه، وقال إنه سبه بأمّه.

يوم الأحد شبّ حريق بقرية بني عبيد، فأُحرقت كنيسة العذراء، شعاليل النار، ورديّة شاحبة في حرّ الظهر، وسط دفقات من الدخان، تصاعدت من قبة الكنيسة التى هوت على الهيكل، رائحة احتراق الكتب ممتزجة برائحة احتراق البخور، استطاع أبونا في آخر لحظة أن ينقذ السنكسار الأثري، والفضّيات العريقة التى تتم عليها طقوس التناول: الإبريق والصينية، لكن لم يلحق أن يستنقذ الصليب المذهّب ولا الصولجان، وبينما كانت

الكنيسة تحترق، خرج من الباب الحديدي الكبير الذى انتزعت إحدى ضلفتيه، وهو يمضغ خبز القربان المقدس كلّه، خشية أن يدنّسه أحد.

احترقت أيضا محلات ساعاتي، وبقال، سُكبت على المحل صفائح الجاز، ونهبت الجبنة الحلاوة الطحينية وزجاجات الزيت وعلب السجاير، فاحت رائحة الصابون المحترق، لزجة ودهنية حريفة ثقيلة الدخان.

في بربا أُحرق جرار زراعي ودراجة بخارية.

أحد عشر ملثما بشرابات تخفي ملامحهم، عيونهم بدت أكبر وأوسع وأصلب، هجموا على ورشة مجدي فهيم غطاس، انهالوا عليه بقمطة حديد، طعنوه بمطواة في بطنه، كسروا رسغه الأيمن وعظمة ساقه اليسرى، نقل إلى المستشفى غائبا عن الوعي.

قالت: ومع ذلك، وبالرغم من ذلك فان أواصر المحبة وحسن الجوار عريقة في وجدان الناس، كل الناس. الشواهد على التآخي بيننا، لانهاية لها، كلنا نعرفها وعشناها فعلا، كلنا.

قال: لماذا نحتاج أن نكرر مئات الشواهد والأدلة على حقيقة أولية بسيطة كان حقها أن تكون قائمة وثابتة دون برهان أو تدليل؟

سرحت قليلا ببصرها عبر المشربية التى أظلمت الآن، وكأنما سمعها تقول «الله يرحمك ياجمال حمدان» قامت فجأة، وهي نصف عارية في قميصها البنّي الفاتح المفوّف بكرانيش متلوية من نفس النسيج، قصيرا لايكاد يصل إلى تحت وسطها، مدت ذراعها إلى المكتبة في الممر،وتحت صور منال وهى صغيرة بعد، وتحت المصحف الشريف الكبير المفتوح، جاءت بكتاب «شخصية مصر» . جلست على الموكيت، وغاص الكتاب الضخم على ملتقى الفخذين الممتلئتين، وكاد طرفه يغوص في الوهدة المعشوشبة،

كأنه جزء من لحمها، قلّبت الصفحات بسرعة حتى وجدت ما تبحث عنه. والكتاب تحت بطنها، وقرأت بجدية واستغراق: «ثنائية المسلمين والأقباط ليست إلا تواشجا وتوحّدا. الأصل الإثنولوجي، الأوضاع الاجتماعية، التوزيع السكاني، ذلك كله يثبت أن الأقباط هم من صميم الكيان المصري -هل أصبحنا نحتاج اليوم إلى تأكيد البديهيات؟ - أنهم كتله رصينة من جسم الأمة، شديدة التماسك فيه والالتحام به».

قال: جسد طعين. ومع ذلك فلاشك طبعا أن المصريين المسلمين هم إخواننا، هم عظمنا ولحمنا ودماؤنا، وثقافتهم هي لنا، كم يصعب عليّ بارامة أن أقول «المصريين» ثم أُثنّي بتمييز: «المسلمين» أو «الأقباط» كلنا مصريون فقط، فقط، بلا تفرقة ممكنة، بلا تمييز. مهما حدث من عوارض فإن رابطة الوطن الواحد الضاربة إلى عمق آلاف السنين تظل رابطة لاتنفصم. أقول «الوطن» بلا تردد. رابطة لايعتريها ولا يمكن أن يعتريها وهن. ليست هذه كلمات خطابية، وليست بلاغية. هي أقل بكثير من الواقع الحي. ماهي الكلمات التى تستطيع أن تقول شيئاً، في النهاية، أي شيء؟حتى هذه الثنائية التي يقولها جمال حمدان لا أقبلها. لا أقبل أن يقال: «نحن الأقباط.. وهم.. نحن المسلمين.. وهم..» هذا الفصل، هذا التمييز، زائف أساساً ومضلّل. بل هو وقوع في فخّ، وإن كان، حتى، غير واع. نحن واحد، ومهما كانت هناك تفريعات فإن الجذور واحدة واحدة واحدة...

قالت باسمة، مداعبة قليلا وجادة قليلا: أين ذهبت الروح الأُممية العتيدة؟ أيام الحلقة التروتَسكية الغابرة في الاسكندرية، لم تكن «ضيّق الوطنية» عندئذ، كانت الوحدة طبقية وليست وطنية. أليس كذلك أم أنني غلطانة؟

قال: لا.في وجة الهجمة التي تنفي الوطن لحساب توحّد متوهّم على أساس عقيدة دينية، في وجه إسقاط مفهوم الوطن لحساب مفهوم «الأمة» أو

«الدين» أعود، كما قلت لك من قبل، مصرياً «شوڤينيا» حتى..! لست شوڤينيا طبعاً بالمعنى الضيّق المتعصب –هذا سخف– ولكن بمعنى التمسك حتى آخر رمق بمصريتي، بمصريتنا. ليست «مصرية» الأغاني والهتافات بل «مصرية» الأرض والعمل والكدح مصرية الحلم والعراقة والمستقبل.. يعني، لا تتركيني أنساق وراء حماسة قد تلوح مغالى فيها –حتى إن كانت محرقة. أما الوحدة الطبقية فلعلها أمل عزيز أكثر منه واقعة ملموسة.. جسم الوطن وحده واقعة حسية وما وراء الحسية أيضا – مثل جسم المرأة وجسم الرجل من أجل ذلك الأمر، كما يقال.

قال: ليس الجسم هو مجرد الأداة والوسيلة للتعبير عن خلجات الروح. الجسم محدود ومحدّد، كالكلمات، لايطيق أن يحيط بما يحتويه، كلما اتسعت الروح ضاقت بها حدود الجسد. مهما بدا أنْ ليس ثمّ حدّ لتقلّبه ومَوَرانه وجيشان أوصاله وتعدد أطرافه، شأن أخطبوط له ألف ذراع وألف ساق كلها تتلوي وتتموج وتنبسط وتنقبض – مهما استبدت به عواصف الشبق ولوعات التطلّب وحرقه، وانفعالات ألم المتعة ونشوات الخمر القدسية، محدود محدود في كل لانهائيته.

وثبةُ وجدي بكِ لاوصولَ فيها ولاعودة منها وقْدُ الجَوى ولَعَى باللوْع في ربوتيك العلويتين ،وبالوعثاء في وردةٍ وهدتك وعول عيونك تعدو بي في وعور وجداني أمّا وجهك فوسامته وحشيّة تسومني ويلات الهوى حوله الوحف الوحِيّ ورد ينبوعكِ لا يورثني إلا لواعج الأوام خطوك الهوينى «كالوجي الوحل» موسوم في تهاويمِ أوهامي لا يحول روعه تتعاورني لوعات التوق بلا موادعة النوى مصوح وري بلا مهاودة والنجوى وجس واغل وحشتي إليكِ وقر وامق نوازعي إليك مدوّمة بلا وسنٍ ومض الضوء في سماواتك لايوطِيء من أهوالِ وحدتي أنتِ وعد ووعيد، وهج أنوارك يطويني

تحت العوادي بإنورساً مؤلّهة ولَهي بكِ لا وَهَن فيه صحوتي من وسَنَ التورّع تطوح بي إلى هوِيَ أهواءِ هوجاء الآنَ لا روَغان ولا مواربة أهواكِ أهواكِ أهواكِ.

قال لها: اسمعي آخر الأخبار. استخدمنا الكمبيوتر، هل نحن أقل منها، يعني، في عمل أول مسح أثريّ من نوعه جنوب الصرح العاشر في الكرنك.ليس هذا هو المهم. من قام بالمسح التمهيديّ؟ أثريّتان عرفتِهما من زمان، من تلميذاتك ياستي، إيناس جلال وجوزيت صموئيل، مع بنتين من أمريكا كاتي أرنولد وجيل براون، اشتغلتا على الذبذبات المغناطيسية لتحديد الآثار المطمورة تحت الأرض. إيناس وجوزيت سجلتا الأحجار التي سقطت من الصرح والبوابة الجرانيت وبقايا التمثالين الهائلين – تعرفينهما طبعا – لأمنحوتب الثالث.

قالت: شُغْل على أصله. ولا حفريات ولاشيل ردْم ولا هَدَد ولا حاجة. كله بالإلكتروني. مبروك علينا. أو يمكن راحت علينا.

قال : أبداً. ماعاش من قال.والكلفة كلها حاجة ببلاش كده. مائة الف دولار من مؤسسه أمريكية، وسلّموا لنا الخرائط نشتغل عليها أيضا.

قالت ساهمةً، غائبة العينين الفاترتين: ياه.. إيناس وجوزيت، طبعا، أصبحتا زميلتين، كانت أخبارهما قد انقطعت عني.. ياه، زمان، من أيام المجد التي راحت..

تصور– هو –أنها سرحت بفكرها في أيام زمان، وفي حكايات أمجادها الغرامية.

قال: هذه القصص، والحكايات التي روتْها لي – لي –، أنا بالذات!–

عن فحولتها الشبقية، عن غُلمتها القوية، تلك الأيام الستة الشهيرة التى قالت إنها قضتها في السرير مع صديقها الأمريكي، ذلك المشهد الذى حكت له عنه، عندما فتح خليل عبد المسيح الباب عليها فقالت له: «يا أخي افرض أنني كنت مع راجل!» تلك القصة الأخرى عن الواحدة التي تنام مع ثلاثين رجلاً – مثلا– وعندما يتحقق «هذا» مرة واحدة فهو شيء لايصدق، قصة الأميرة الروسية العجوز التي أحبتها وحكايات الأولاد الناعمين المحزقّين اللامعين، فضلاً عن الرجال، الذين أحبوها، وهكذا وهكذا. هذه الحرية في التعامل مع الرجال والنساء – ومن بينهما – هذه التعددية التي كأنها تدين بها عقيدةً وسلوكاً، أحقيقيٌ ذلك كله؟ أم حيلةٌ من حيل النفس الغريبة؟ كأنها تفترع لنفسها ما تفتقده – ربما –أتعويض عن افتقاد بتحقّقٍ محكيّ، بالشقشقة التي تتقنها إتقاناً نهائيا وتحيلها إلى فنّ حقيقي؟ أتلك مضاربة ذهنية بحتة أم حكاية المغامرات حقيقية، وخبرات معاشة؟

قال: حقيقية؟ مامعنى حقيقية؟ مجرد حكايتها يجعلها حقيقية.

قال: كيف أمكن لي أنا الشرقيّ الصعيديّ أن أسمع هذه الحكايات كأنني من حضارةٍ غريبةٍ أخرى، ليست غريبة بالضرورة ولكن غريبة بالتأكيد، حضارة، يعني، لا تلقي بالاً لقدسية المرأة، أو لحرمة العرض؟ حتى وهى حبيبتي (فقط؟ ماذا يمكن أن يكون أكثر من ذلك؟) فهي عرضي، قال، أليس كذلك؟ كيف أمكن أن أسمع منها هذه الحكايات وأنا أحبها؟ ألأنني أحبها إلى هذا الحد؟ كيف أمكن لي أن أقبل أنها نامت مع غيري ومع الكثيرين، ليس فقط قبل أن تعرفني، بل في أثناء حبها لي، قال: هل قبلت، حقا، أبداً؟ أم أنني وضعت حاجزا صلدا وعنيف الصمت بيني وبين هذه الحكايات كلها؟ أم أن غضبي المكبوت اتخذ له مسارات لا أعرفها؟ أرفضي لهذا هو رفضي لها ولحبها؟ ثم هل أقبل أن يحدث هذا مع

العشيقة ولا أتصور أنه يحدث مع الزوجة؟ لماذا لا أحب كلمة العشيقة بكل ما تحمل من إيحاءات التحلل؟ – هي أيضا لا تطيقها –لماذا أقول دائماً «الحبيبة» ؟ ثم شيء آخر، في قرارة النفس هي أيضاً زوجةٌ، وقرينة، وذاتٌ أخرى؟ فكيف أمكن؟

قال: لم يحدث أنّ ذلك بالفعل كان ممكنا، في جوهره. رفضتُ ذلك تماما. فيم يهم ذلك كله بازاء مجد نهديها؟

واقعةٌ حسية صريحة وليست تجريداً ولا مضاربة عقلية.

أتشبب بهما قبّلتهما اعترمتُهما تحسستُهما عركتُهما، مرّة كبيرين في يديّ ومرة صغيرين في وهمي، مرّةً أحدس تدويرهما وتكورهما، وأختبر ذلك فيصدق معي، ومرة أعرف أنهما مخروطان، صلبان، مدببان تقريبا في نعومةٍ مهاجمة. اللدونة والتماسك والطراوة فيهما مرّة وقوة الأسْر وطغيان الحضور مرّة، عرفتها عاريين مبذولين، ونصف عاريين ورابضين أو وادعين مستكّنين في دانتيلّ السوتيان المحبوك، أو تحت الحرير أو الصوف في الشتاء، بوبرته المغوية إذ تمريداي على كتلتهما المطاوعة، استطعمت مذاق النبقتين الناتئتين، سكّريتين، واحدةً بعد الأخرى: «والثانية أيضا.. حتى لاتزعل!» مصصت الحليب ولحستُ اللّوع بسمرته الداكنة المحبّبة حول الحلمتين وقد تفتحت فيهما خروم دقيقة غاية الدقة تحت مداعبة لساني، احتضنتهما بين كفّي وعرفت ثقلهما الهيّن، دارت أصابعي، متجمعة ومتفرقة، حولهما، مسدتهما ببطء وتمهل كما لو كنت أريد أن أبرئهما من وجع، عرفت زِنتَهما، وبتعثّرٍ أو بيسرٍ ونعومةٍ طلّعتهما من قبضة السوتيان الحابكة، وضعت العمود الصلب السخن بينهما وسكبت عليهما نكتار حبي انصب الدفق عليهما وهي ترفعهما بيديها وسال في خطوط بيضاء لبنية حتى

توقف عند التنوعين كأنما يختزنانه، أو يعدلَ انسيالَه عليهما توترُهما الداخلي، غمرت وجهي المشتعل في نداوتهما ونعمت عظام خدي بملاسة ملمس الجلد وامتلاء الدسامة المخبوءة!

قال: أذلكَ تثبتٌ للمرحلة الفميّة الشهيرة؟

قال: ارحمْني يافرويدُ زمانك وفريد عصرك وأوانك.

قال: وبعد ذلك هل أحلمُ حقا بصومعتي الموحشة في صحرائي المصرية؟

قال: اقتراني بها – في النهاية–ينقض الحلم.سرّ أرثوذكسيّ جدا، بل أكثر، لأنه عندي سرٌ لاينفصم، ولايفضّ، مهما حدث أو يحدث.هذا سر لعلها لم تفهم –أو تريد أنْ تدرك– قوته. ما يجمعه الله– الله؟– لن يفرقه إنسان ولاشيء أبد الدهر بما في ذلك صاحب الشأن نفسه – بماأنه إنسان – سواءً كان هو أو هي. وضعنا أنفسنا في قلب هذا السرّ بفعل الاقتران بفعل التوحّد بفعل الدخول والتفتّح لقبول الدخول وضعنا ختماً لايزول، ليس هذ مثل شرب كوب ماء، عابراً و«طبيعيا» وكأنه قضاء حاجة. هو سرٌ حقا.لم يعَد هذا الأمر بينهما إنسانيّ تماما، فيه الآن ماهوفوق الإنسانيّ، سلّمنا للسرّ شيئاً من ذواتنا لانملك أن نستعيده مهما فعلنا، لقد ختم السرّ.لقد ختم السر. صوفيّة الوصال الجسدانيّ، إطلاقيّة الوصل الجسديّ، لافصل فيه ولا انفصام، وحتى لو كان ذلك الوصل قد تّم مرة واحدة، فهو مّرة واحدة وإلى الأبد، وتجلّياته لاعداد لها تقريباً.

قال: إضفاءُ مسحةٍ مثاليةٍ ورومانتيكية جداً على علاقة حب عاديةً، يومية.

لم تكن تصدق – تماما– أنني لم أعرف امرأةً غيرها، حقا، هذه

المعرفة النهائية. كانت تستريب أن ذلك من كلام الرّجالة المعتاد في مثل هذه الظروف، نوعاً من المجاملة يعني، أو اللياقة.

ومع ذلك فقد قالت لي إن امرأتي الأولى، نعْمتي، كفاها أنها هي التى منحتها بكارتك؛ اكان في ذلك شيء ولو طفيفَ من غيرةٍ محتملة؟ أكانت هي التي تحب أن أمنحها، أوّلاً، عذريتي؟

أما أنا فلم أعرف فعلاً وحقاً سواها.

قال: القديسونٍ - والقديسات - قساةٌ جدا. صرامتهم تبلغ المدَيِ حتى لتوشك القداسةُ عندهم أن تكون شرّاً وإثماً لاغفران له، لأنها مُطْلَقة، لأنها تطلب المستحيل لا تتراجع أمام استحالته ولا تتورّع عن شيء دونه.

وعقيدة الجسد صارمةٌ جدا.

كان من الغريب في سمعه أن تقول، بالفعل الماضي:

- كُنّا قريبينْ جدا.

كُنّا؟ ليس هناك إمكانيةٌ للفعل الماضي هنا.

ما حدث يظّل يحدث إلى الأبد.

يظل يحدث دائماً بلا انقضاء ولا دثور.

ليس هنا «كان» أو «كنا» بل هو فعلُ الاستمرار بلا انقطاع.

كيف أفسّر الفراق والنّأيِ، وقْر النوى، أن تمرّ سنواتٌ دون لقاء، كيف أفسر قطيعة بيني وبينَ جسدي نفسه؟ كيف أفسر أيضاً الانفصال؟ هل يمكن أن ينفصل المرء عن ذاته؟ كيف أفهم على الإطلاق هذه الكارثة

الجديدة التي يرمونتابها الآن، بلوى الحكم بالتفريق بين رجلٍ وخدينته بعد أن توحدا بسرّ الاقتران؟ وكيف أفهم أن يهجر المرء وطن محبتّه؟

هذا عندي لا تفسير له، لأنه غير ممكن، حتى لو كان يحدث.

كأنه انتهاكٌ لقانونٍ أكبر من قوانين الطبيعة، أكبر من قوانين الوجود، قانون يقع فيما وراء الطبيعة، كأنه افتضاض لسرّ يستحيل فضّه.

قالت: كيف تفسر إذن أنهنّ كثيرات؟

قال: أبداً.. كلهنّ واحدة. كلهن أنتِ.

قالت: ياعزيزي لا تحاول أن تبرر، مهما كانت براعة منطقك.الواقع الصلب أقوى من كل فلسفة.

قال: ليست هذه فلسفة.بل إيمان. ليس هذا واقعاً. بل وجود.

قالت له: أنت تعاملني كأداةٍ جنسية بامتياز.

قال: أنا أعاملك كمبدأ كونيّ، امرأة واحدة من وراء ألف قناع.

قالت: أفتقد حس يديك على شفتي وعلى صدري.

وقالت: كل هذا الحنان يوقفِ فعل الحب ويجمّده.

قال:ليس ثم فصل ممكن بين الحنان والحب.

قالت: لن تدرك أبداكم أحبك وكم جرحتني.

كان ثم ابن آوى، مستطيل الجذع، رأسه مخروطي، مدبّب الفم، يلهث بجانبه، في العتمة الخفيفة.

قال: الجرح والبرء لاينتهيان أبدا إلى تمام كونهما جرحاً أو برءاً"

قال: يظل جسدي مطعونا.

قال: لا أنسى صورةً قديمة في «التايمز» الانجليزى، على ورق أبيض شفاف، مما كان يصل إليّ في المصلحة، زمان، بالبريد الجوّي. العسكر الانجليز والسكوتش بقبعاتهم البيضاء المرتفعة كالخوذات، أو التى تتدلى منها ضفائر الريش الأسود، يجلسون، فخورين، بعد الاحتلال، تحت سفح أبي الهول الشامخ، يتسلقون كتفه الراسخة، يتحلّقون حول جسمه المهيب، وكأنه لايبالي بهم شيئا، كأنه لايراهم ولايحسهم، كأنه يعرف، تمام العرفان، أنهم سوف يخسرون، أنهم سوف ينجابون عن أرض كيمي، لكن الجرح يترك ندبةً غائرة.

هل تنحسر عن الأرض لوثات الطعنات التي تريد أن تغمرها في البداوة، في الظلام، أن تسلمها لأفواه الضباع؟

القناع يحل محل الأصل، ويقوم بدوره، ويؤدي فعله، كما يحدث في السحر الشرير.

هاقد اختزلتُ حُبَّ الحياة كله، هاقد اختزلتُ الحبّ كله في واحدة هي أكثر من واحدة.

كيف جرَحتُها؟

كيف أمكن أن يحدث هذا؟

كيف أمكن أن تتعدد الواحدية؟ والأخيلة مع الواقع؟ والنورُ مع العتمة؟

كيف أمكن أن يتوحد القناع مع أخيلته؟

الفصل السادس

عينان مفتوحتان في العتمة

جاء عم أحمد العربجي، حسب الاتفاق، عندما شقشق الفجر.

وقفت العربة الحنطور على الباب الخارجي، وصلصل الجرس الفضيّ الصغير، وكانت لصداه، في الكورنيش النائم، رنّة تجمع بين البهجة وبين شيء يشبه النذير أو التحذير.

كان عم أحمد العربجي يلف رقبته بتلفيعة صوف قديمة وخشنة الشكل وإن كان صوفها قد نعم - فيما يبدو - من كثرة الاستعمال. طربوشه الآن مستقر على رأسه بقوة،من غير المنديل الذى يحمي من العرق، وقد رفع ياقة الجاكت ذات الشكل الميري، وزررها، وجلابيته تحتها تصل إلى حذائه الضخم ببوزه العريض المرتفع من أمام في قبّة متينة، عندما نزل، وشال عنها حقيبة السفر الأنيقة، متوسطة الحجم، التي يبدو أنها غير مثقلة، من مجرد أنه رفعها دون جهد، وحلف: لا والله ياست مانت مادّة يدّك واصل، هات ياسِدّنا لفندي كماني.

لكنه تمهّل في أن يترك له حقيبته،كان عليه أن يتتعها بنفسه، بمشقة، حتى يوصّلها في النهاية إلى كتف عم أحمد الذى نهض بقوة وهو يزحر قليلا: استعنّا بالله الجوِيّ العظيم.

كانت رائحة مياه النيل في الصبح البدري مغوية، كأنها خضراء، وإن

كان يحسها ثقيلة –أيضا – على نحوٍ ما، دقدقة سنابك الحصان على أسفلت الكورنيش منتظمة، لها صدىً موسيقيّ في السكون السائد.

عندما وصلا إلى المحطة كان كل شيء يبدو نائما، المصابيح الكهربائية المدوّرة قد اصفرّ نورها وشحب في الصبح، الأرصفة العالية خاوية مكشوفة تحت السماء. وبدا له كأن المسافرين القلائل لايعبأون بهما، ولابشيء، ستات صعيديات جالسات على الأرض، أسندن رؤوسهن الملفوفة بالشيلان،على الأذرع المحيطة بالأجسام، بإحكام، مكوّمات، في ثيابهنّ السوداء بجانب القفف المليئة المنبعجة المربوطة بالحبال، أطراف أغطيتها القماش مخيطة بحافّة الخوص، بغرز كثيفة وضيقة.ورجالهن صامتون، كأنهم نائمون، الجلاليب الصوف أو الجوخ السابغة –لزوم السفر والأعياد والمناسبات فقط– والعمم البيضاء المزهّرة، أو اللبَد الداكنة حولها التلافيع ذات الطيّات الكثيرة، مِسندين جسومهم إلى حائط المحطة الحجريّ العريق، كأنما قدنفضوا أيديهم من الانتظار، ولهفته، وروّضوا أنفسهم على البقاء هنا، دون حساب للزمن، حتى يجئ القطار– أو لايجيء – وكأنهم قد ثبّتوا في أوضاعهم منذ أبدٍ سحيق، من غير حركة.

كانت القطارات واقفة، ساكنة هي أيضا، كأنما لا نيّة عندها أن تتحرك أبدا، تبدو خالية، ومتشابهة، رماديّة.من الشبابيك تبدو المقاعد الخشبيّة في الدرجة الثالثة صلبة وغير مرحّبة، والأرضيّة سوداء.

يبحثان عن قطارهما، عم أحمد وراءهما بالحقيبتين، صابراً وصامتاً ومتحملاً ثقل العبء وخواء المحطة المكشوفة تحت سماءٍ أخذت تبيضّ قليلاً وتكتسب حرارة أول النهار.

يقرآن معا إشارات وعلامات القيام والوصول دون أن يتبيناها تماما، أرقام القطارات وساعات القيام مبتورة، أسماء المحطات متتالية متداخلة ومضطربة،

المنيا منفلوط فرشوط أسوان أرمنت أبو تيج شندويل قفط بانوب ملوي الفيوم المدينة المرضعة ملجأ الحمير الوحشية جبل فرجوط البحيرة الجنوبية مدينة منت شونة الغلال الوفيرة خشب الكروم الأقباط مسكن نوب مستودع كل الأشياء البحر الوسيع، إدفو أخميم الأشمونين قوص أهناسيا، قدس أقداس حتحور ربة العشق مدينة القضيب العظيم الخصيب مدينة پان الطروب مثوى الآلهة الثمانية الذين يملكون التاسوع مدينة الأسقف اتناسيوس بلد أفرود يت وخنسو بشنش القمر هيراقليبوليس العظمي، مغاغة بني مزار مطاي سمالوط أبو قرقاص جرجا ديروط صدفا بلد شهداء آخر القرن العشرين، طهطا إسنا كوم امبو قيام وصول الساعة الرصيف الحروف والأرقام تومض وتخبو في اللافتات المضيئة الكثيرة المتعاقبة التى انطفأ نصفها وانكسر زجاجه، وظل النصف الآخر مكشوفا انتثر نوره وتشتت وتشعث من المصابيح المشقّقة شاحبة الإشعاع.

يستبد به، فجأة، مضضّ محطة السكة الحديد التقليدي عنده، حيرة الاستقرار على معرفة القطار والوجهةورصيف القيام، حتى ورامة معه، وهي حصن أمان وحنان، ولايبدي لها هذا القلق (الذي يراه مراهقا أو طفليا قليلا) يسأل نفسه، دون إجابة بالطبع: أمازال حتى الآن يهاجمه توزّع القلب وغموض المآل؟

لكنه مع ذلك لم يملك إلا أن يسأل بصوتٍ عال، كأنما يسأل نفسه مع ذلك: – أين القطار؟

قالت: لابد أنه هو هذا.

كانت عربة الدرجة الثانية خالية تماما. الفرّاش الذي جاء يحمل الحقيبتين من عم أحمد العربجي كان صامتا تماما، على غير المعتاد وعابسا

قليلا، كأنه صحا من النوم على رغمه، وضع حقيبتها على الرف العلويّ، وركَنَ الحقيبة الأخرى الثقيلة جنب باب العربة.

– مع السلامة يابيه، توصلي بسلامة اللهِ عادْ ياستْ هانم.

كان صوت عم أحمد العربجي، من وراء زجاج النافذة، خافتا ومحبوسا، ورأياه عبر الرصيف الآخر، يشوّر بذراعه يقول شيئاً لايسمعانه.

عندما تحرك القطار، فجأة، دون إنذار، دون جرس ولا صفّارة، في ميعاده تماما، أحسّ أن وطأةً قد ارتفعت عن صدره.

الآن جاءت مُهْلة الرحلة هدنة، وراحة.

لا يهم من أين جاءا، إلى أين يصلان، كل المشكلات والمشاغل والواجبات والقيود والمهّمات والمواعيد قد تأجلت – مؤقتا–وكأنما اختفت أو زالت تماما.

في عربة القطار الخاوية معتمة الضوء قليلا التي تشق جوف الصعيد، كأنما بلا قيام ولا وصول، قعقعة العجلات علي القضبان، ودقدقاتها المتراوحة علّوا وانخفاضاً قد انتظمت، ومن ثم هدأت، واعتادتها الأذن، كأنها سكتت في نوعٍ من الضجيج الذى كأنه صمت وإنما فقط له صوت رتيب.

استراحت إليه، أسندت رأسها إليه، ونامت.

حسّه برأسها، وضغطه قليلا على عظام كتفه، وشعرها الغني تحت وجهه مباشرة، فيه متعة، كأنما يرحّب بثقله.

دخل القطار نفقاً طويلا، سأل نفسه: أهذا يحدث في الوادي المنبسط

الممسود؟ نعم، اختفى نور الصبح من وراء النافذة، وسقطت العتمة، زالت خضرة الغيطان وأجماتِ النخل المتكاثفة.

ضوء مصابيح العربة شحيح، وهي نائمة على كتفه، قعقعة العجلات في عِتمة النفق قد ارتفعت صلبت وتعاقبت دقّاتها، الجبل الذي يشقه القطار محيق بهما، وطأته محسوسة، ثقيلة، لكن قوة الاندفاع الجامح العارم تعرف أن تصميمها لايحيد، عيناه مفتوحتان، هذه معرفة لاشك فيها.

ذراعه تحيط بجسمها، ورأسها على كتفه، والقطار ينطلق في الظلمة، لايبدو أن النفق له نهاية.

نفق سريٌّ وحميمٌ وخاصٌّ، مستمر، سخن، بلا زمن.

طاف بذهنة كالبرق سؤالٌ سرعان ما استبعده عن نفسه، هاجسٌ وسواس:

–ما دام بلا زمن، كيف يكون مستمرا؟

اكتفى بأن أسند جانب وجههِ على وسادة شعرها، على رأسها المستكين، في شعرها عبَق حرّيف حار، وخشونة مستنفرة، تستثيره، وفيه مع ذلك حسٌّ خفّةٍ رقيقة متطايرة. وحيدان معا في النَفْي. وحيدان معا في الثبات.

الآن ليس هناك منفَى. ليس هناك نَفْي.

قال: النَفْي عن الجنة عند آدم القديم ليس الخروج من الفردوس الذي يدرّ عسلاً ولبنا. بل هو الإقصاء عن شجرةِ المعرفة. أنا عرفت طعم الثمرة المحرّمة، كيف أنساه؟مهما بعدت الشقّة وشطّ المزار؟

قال: مامن منفَى عنها. شجرتي المحرَّمة المنتهَكَة. ليس المنفى عن مرآها هو المنفى عنها. لاشيء ينفي حسي بها، معرفتي. هي نائمة على كتفي، ولو للحظة، في نفق لا زمن فيه، وهي نائمة معي في عتمتها ساطعة الضياء.

قالت له، بصوت محايد، لا أثر فيه للسخرية، كأنما تقرر واقعةً لاتعنيها في شيء:

– أنت تشكو لواعج الحب، تقول إنك لا تكتب، ولا تتكلم، لأنك تتعذب. هل في الصمت انتفاء للعذاب؟

قال لها: أنت تملكين عبقريةَ التفحُّص، موهبةَ ابتذال كلمات ضخمة – مثل العذاب – مثل اللواعج، مثل الحبّ – لكي تنزليها إلى الأرض، وتضعيها موضعها من غير دراما ولا مأساة، لكي تخفضيها إلى حجمها «الصحيح».

قال: تظلّ كبيرة، غير قابلة للابتذال، غير قابلة للنزول إلى الإرض.

قال: الواقع المجردّ، العاري، اليوميّ، «المبتذل» اذا شئت شيء دراميٌ فعلا، ومأساويّ فعلا، حتى دون كلمات. غير قابل للتسطيح، غير قابل للقَوْلَبة، والتنميط.. أوه، ما أشد تعقُّده وجيشانه بالمتناقضات، ما أعصاه على أن يوضع في كلمات. دعك من أن الكلمات تتحول إلى قوالب. مثل كلمات الأغاني التى كانت تصبّ في آذاننا ليل نهار، وكنا نهرب من سماعها (أصبحت الآن «كلاسيكية» ولها نوستالجيا، ونحبّها. الآن هناك أغانٍ لها كلمات شبابية، هبابية، مسطّحة قصداً وعمداً أو بطبيعة الحال، ساخرة من نفسها بتدبير أو من غيره) الآن لم يعد الحب في الأغاني لوعةً ضنىً «وعذاباً»، لم يعد «شوك الضنى أو عبير الوداد»، فهل يعني ذلك أنه – بالفعل – لم يعد كذلك؟

قال لها: لكِ خَمْشَةَ لا تمحّي، مثل خَمْشة القطط الإلهية، ليست عابرة، لاتشفى ولاَ ترمّ. لأنها -بالضبط- إلهية، لم تكوني مرحلة. تركتِ لي ندبةً عميقة في وجه الحياة، وفي عمقها معا، لاتلتئم.

قال: لعلّ هذا هو الفرق- أو فرقٌ - بين خبرتي وخبرتها.

كانت تحكي عن غرام الشاعر الصعيدي (الذي مات بعد ذلك بالسرطان) بالمستشرقة البولندية، إيديث.

قالت: آه، تلك كانت المرحلة الإيديثيّةعنده.

أجابها: أما عندي فليست هناك مراحل.

قال: «الرحلة» عندي متصلة، في عتمة داخلية ضاربة الضوء وسريةً معا.

قالت: لا. كانت عندك محبات، ومعاشِق، وتولُّهات. كلها لاعجة، كلها مُحرقةونهائية. ألم تقل لي؟

قال: نعم. الفرق أنها كانت كلها خيالات، من جانبٍ واحد، ربما، أما أنتِ فوجود، وحقيقة، وتغيير.

لم يقل: وكان هناك، كذلك، بناءُ حياةٍ بأكملها، على الأرض، صلبة، راسخة.

نظرت إليه نظرتها الطويلة الصامتة المتفحّصة، التي يقول عنها «اكلينيكيّة» لاتنفي ولا تثبت شيئا.

قال لنفسه: الحنان الذي عرفتُه معها. حنان الشَبقَ. أُريد أن أنساه. لأنه لايحتمَل فقدانه، ولا أعرف كيف أنساه. أحبسه فقط، أحجزه في داخلي

ولكنه ينسكب، ويفيض كأنما على الرغم مني.

قال: لأنني لم أعطها شيئا. وكأنما هي أعطتني كل شيء، أو على الأقل أشياء كثيرة. هي أثرتني.منحتني غنى فاحشا.هل أنا أفقرتها، أو خذلتها، بمعنى ما، بطريقة ما؟ أم أنني -على أية حال- أعطي لنفسي ما ليس لي، مالم يكن لي، حتى بمجرد السؤال؟

يعزيني أنها تقول - أنها قالت على الأقل،مرة - إن وجودي نفسه يكفي. أعرف أن هذا لايكفي.

قالت له: ياقليل الإيمان

قال: يقيني لاحدّ له.

كانا على الأرض، بينهما «الروض العاطر» . القدمان ممدودتان - وعاريتان تتلامسان، وتأتي الأصابع، أحيانا فوق بعضها بعضا، في مداعبة عابرة ولكن حميمة وطبيعية. قدماه الآن بين قدميها. مسكة حبّ. مسّكة «جبّ» الأرضيّ المستلقي، و«نوت» السماوية الشاهقة، وبينهما عبق الوَلَة المتّقد الكامن تحت رماد الشبع.قميصها المفتوح عن صدرٍ باذخ وناهد وقويّ، قد ارتفع إلى مافوق فخذيها.بطنها - في جلستها على الأرض- ارتكزت طياته الناعمة أحدها فوق الأخرى، لكن تدويرته تؤكد امتلاءه بعد سحبة الخصر الدقيق وتخفي أعلى منطقة السرة المغوي المستكنّ.

التقطت الكتاب الذي كان قد جاءها به من جنب جامع القيروان،تحت ظلال الجدران السامقة في.الزقاق النظيف الذي تجلّله العقود والقبوات والحيطان البيضاء والبيوت المغلقة على خفاياها.

وقرأتْ له من حكاية شجاعة التميمية ومسيلمة بن قيس.

قال: كلاهما قد طافت به أحلامُ النبوّة.

قال: كلاهما عرف سَوّرة صهبائها.

قالت: «اضرِبْ خارج بلادك قبّةً من الديباج الملوّن وافرشها بأنواع الحرير وأنضحها نضحا عجيبا بأنواع المياه الممسّكة من الورد والسوسن والزهر والنسرين والآس والقرنفل والبنفسج، وغيرها، نفرت حلمتا ثدييها النافرتين واتسعت دائرة السمرة وبرزت فيها نتوءات حبيبات دقيقة داكنة، رأى أنهما تصلبتا واشتد قوامهما، فإذا فعلت ذلك فادخل تحت المباخر المذهّبة بأنواع الطيب مثل عود الأقمار والعنبر الخام والعود الهنديّ والمسك وغير ذلك من أنواع الطيوب. أرخيت عليهما أطناب قباب النشوة حتّى ما يخرج شئ من بخور السكر برحيق «البطاقة السوداء» ١٢ عاما ورضاب مابين الأسنان اللؤلؤيةّ الدقيقة وقد امتزج الماء بالماء والريق بالمنّي ودخل اللسان يجوس فيما بين الشفتين ويستطعم العذوبة الريقة كأن بها أثارة من حرافة تمور لها الأحشاء وتجيش الأعضاء، وقد ارتختْ جوارحها جميعا وقد أعطته ونكحها فهل نجا من قبضة أسرها أم كانت أشراكها الروحيّة أقوى وأعصى من لبانة جسدها؟ وهل هلك أم كانت في عناقها نجدته وخلاصه؟ تميمة ومسيلمة أم جب ونوت؟ أنبوّة بلا رسالة أم نبوة لا التقاء بعدها؟ وهل حقا من شروط المحبة سقوط الحشمة. أم أن في نهكة الأعراف واستباحة الأحرام، في تهوّر أشلاء الجسمان، أدب وخشوعَ لايضارعه خشوع؟

قال: قانوني هو الانتقال من نقيض إلى نقيض. بل كأنه قانون إيماني، فوراً، دائما، كل يوم من قرار القطيعة إلى قرار الاندماج، في غضون ساعة أو أقل، كلّ يوم. كل يوم ياربي، وكل ليلة. أقول: هانذا قد انتهيت منها، لن أراها بعد، ما جدوى ذلك كلّه؟ وما معناه؟ سؤالي الأبديّ الذي لايبارحني، كفاية، كفاية، كفاني ألماً وكفاني سعادة، لن أعرف أبداً أفدح منهما، كفى، ثم إذا بي أحلم بها في حضني وقد انهارت كلّ الأسوار، مامن ألفة مع شئ حيّ أو غير حيّ أكثر وأبسط من ألفتي بها، وأعمق حميمية وألصق

بالنفس، كأنما هي بضعٌ من نفسي، ما من أحدٍ في هذا العالم فتحتُ له قلبي وأفضيت إليه بخفايا روحي أكثر مما فعلتُ معها، لا في البوح فقط بل في الاستباحة، لا في القول فقط، بل بكلّ فعلٍ من أفعال التوحّد الجسديّ وتدفّق الروح إلى مثاويها التي أُعدّت لها من أول الدهور.

كلّ الحكاية عيون بهية.

قالوا عن بهية مالها عزيز ولا حبيب، قالوا عيونها قتّالة مالها دوَا ولا طبيب.

لماذا انفجرتُ عندئذ بالبكاء على كلماتِ هذا الموّال العريق؟ بعد كل هذه السنوات وقدا نقضى العمر—تأتيني دموعٌ كأنها دموع العشّاق المراهقين. أم أن هذا—بالضبط – لأن العمر قد ذهب؟

قال: عيونها؟ ما الذى يستطيع أن يُنسيني عيونها؟ ولا مقتلي من عيونها؟

قال: غاضبٌ أنا. أريد أن أكون —أنا— قاتلا. لو استطعت. بل أستطيع. أستطيع.

قال: هذا الحب يغمرني ويفيض، رغم كل التفلسف، رغم كل التعقّل، رغم كل السنين، جارفا، يكتسح جدران الوحشة والبعاد. فلماذا أبكي؟

كانت قد قالت له، مرّة: هذه الغنائيةً عند «بايرون» مسلّية. كما أنها مسلّية في أشعار المصريين القدامى.

مُسلّية؟ حقا؟ أم أن هذا دفاعٌ منها ضد طغيان الغنائيّة؟

لكنه، بعدها بسنوات، استيقظ مرة، على الفجر، وقد وجد نفسه يرفضُ بعرقٍ بارد، يسأل نفسه بما تصوّر أنه كشف واعٍ صاحٍ مهما جاء متأخرا: أكلُّ غنائيّة، كل شاعرية عندها، مجرد تسلية؟

في اليوم الذى سافرتْ فيه، قالت له: خلِّ بالك ياحبيبي. أنت لم تعد تسلّيني.

نظر إليها -بلاشك- بقسوة وتساءل، وقد أحسّ كلّ جارحةٍ فيه تتنمّر، فقالت، بسرعة: بأحسن المعاني، بأحسن المعاني، أنت تشوقني، أنت تثيرني، أنت تحيّرني، لكن مجرد التسلية.. لأ بقى. كل سنة وانت طيبّ!

استطاع أن يضحك معها، وهو يرقب، بحذر، ضحكتها السرّية.

قال لنفسه: مصيبة كبيرة. كل ما أعرف أن أقول من غنائيةٍ وعشق محرق- لواعج الحب قالت!- هل هذا كله مجرّد شيء مسلٍّ؟

في إحدى سفريّاتها إلى المنيا قالت له إنها التقت بمصطفى ياقوت.

كان مصطفى ياقوت مراسل الأهرام في المنيا، كتب عن الكشف الأثرىّ وعن الحفريّات التي شاركت فيها، في صدفا، ونشر الخبر مع صورة. (لم يحتفظ -هو- بها، لم يحتفظ بأية صورة لها. كأنما لاحاجة به لصورة، كأنما هي في دمائه، فلماذا إذن؟)

وكان مصطفى ياقوت معوّقا، إحدى رجليْه أقصر من الأخرى، يعرج بتصميم وكأنه لايحسّ نقصاً ولاقصورا، تخرّج من كلية الآداب (قسم الانجليزي) يقرأ الشعر ويكتبه قليلا (هو أيضا؟) انخرط في الحركة اليسارية أيام الخمسينيات (من لم ينخرط فيها أو لم تمسه؟) وتزوج إحدى زِميلاته في القسم، شهرت رؤوف. كانت غزِلة وممتلئة الجسم بالقوة والشبق،

اشتغلت بالتمثيل حيناً وشاركت في مسرحية لفؤاد المهندس، وكانت أمها إنجليزية لذلك أجادت اللغة وعكفت على الترجمة في الندوات والمؤتمرات والصحافة والإذاعة، ثم هجرته بعد أن خلّفت منه، وطلقها وتزوجتْ بعده، وطلقت، وظل مصطفى ياقوت عزبا وحيداً لايكاد يرى ابنه منها إلا لماما، كلما جاء القاهرة، وما أندرما كان مجيئه القاهرة، عكف –هو– على أرضه في المنيا اكتفى بأن يراسل الأهرام،كلما عنّت سانحة، وظل يؤلف كتاباً عن اخناتون، لم ينتهِ منه والأغلب أنه لن ينتهي من كتابته أبداً.

قال لها: أنت دائما يارامة عندك نقطة الضعف هذه نحو الشيوخ، والمعطوبين. والهالكين. أهو ضعف فقط أم أكثر؟ أنت تموتين في دون كيشوت، وكلّ دون كيشوت!

قالت: لا، ليس هذا بالضرورة.

قال في نفسه: نعم. ليس هذا بالضرورة. هي أيضا تحبّ – بل تعشق– ذلك النمط الآخر الذى يكاد يكون فجّا، خشنا (يكاد، ولا تتحقق له فجاجة كاملة؟) الوجه المربّع القويّ، العينان فيهما تصميم شبه بدائي، شبه قاسٍ، الشارب غير المشذب، شبه الستاليني، والفحولة الجسيمة. النمط الذى رأيت افتتانها به في نجوم السينما، في مطلّقها الذى قالت عنه أنه أحد اثنين تركا أثراً لايمحّي في حياتها. في ذلك الأثريّ الأمريكيّ من جامعة ماساشوستس، الذىَ قضت معه، أيام الصبا القديم، ستة أيام بلياليها في السرير (كما كانت قد حكت له من زمان) وأهداها ترجمة إزرا باوند لأشعار العشق عند المصريين القدامي وقالت له إنها تحتفظ في مكان ما بمئات الخطابات التي كتبها لها– زمان– (ملفوفةً بالشريط الأزرق التقليديّ، قالت، وضحكت قليلا) ولم تردّ عليها. ما أقل ما تردّ على الخطابات، هذا يعرفه، لكنها تردّ أحيانا، وتقول.

فيما بعد التقى به في إحدى ندوات الآثار، مرة، وفي زيارةِ تفقُّد لحفريّات في البهنسا مرةً ثانية.

كان چون قد عاد إلى مصر. وسعي إلى الالتقاء به. لماذا؟ هل كان قد عرف؟ هل كان چون يحس– أم يوقن– أن ثَمّ تلك الرابطة بينهما، هما الاثنان؟ هذه الرابطة الملتبسة بين اثنين عشقا امرأة واحدة.

قال: لابد أن بيننا عوامل مشتركة، أليس كذلك؟على مايبدو من أننا نقيضان في كلّ شيء.

قال: لم أستطع أن أعقد معه لا صداقة ولا ألفة ولا أن أطمئن إليه حتى. كان ذلك مستحيلا. مع الإحساسِ بشيء كأنه التواطؤ بيننا.

قال: كأننا اقترفنا جريمة واحدة!

في ذات ليلة، دق جرس التليفون في شقة الشعرى اليمانية. كانا قد ناما بعد ليلة مرهقة وممتعة من الحب والشدّ والجذب والبوح والنقاش والخلاف والوفاق. استيقظ على رنين جرس التليفون المدوّي المتصل في هدأة الليل، فوجد أنها ملتصقة به، ابتعدت بجسمها عنه قيد شعرة، رأى أن الساعة الثانية فجرا، وغمره التوتر المألوف كلما ناداها التليفون، سمعها تردّ بتحفظ مستمر وعبارات ملمومة، نعم، لا صحيح، لا.. لايمكن، بعدين يمكن.. وهي بجانبه، جسمها الباذخ حارّ قريب منه جدا، وتبيّن نبراتِ الصوت المخمور، يكاد يكون هاذيا، يستعطف ويتطلب ويتوسل، وهي تسدّ عليه مسالك الكلام والصوت لايكفّ –فيما أرهف له سمعه كأنما رغماً عنه– عن الاسترحام السكران.

قالت باقتضاب بعد أن نجحت في أن تقفل السكة:

- الناس اتجننت. يكلمني في الفجر لكي يحكي لي حكايات لا رأس لها ولا ذيل.

نظر إليها فقط، دون أن يتكلم.

قالت: مصطفى ياقوت، مراسل الأهرام يكلمني من المنيا. يريد أن يعرف هل هناك أخبار كشوفٍ أثرية جديدة تصور..!

وافق - أو صمت- على كذبتها البيضاء.

بعد ذلك قالت له إن مصطفى ياقوت كان في الفجر يكلمها ليقول إنه يحبها، وإنه كان يحبها منذ سنين وسنين، ثم أدركت مابه فقالت على الفور:

- ياسيدي خلِّ الناس تحبَّ على كيفها.. يحبُّ يحبُّ.. المهمْ هو أنني أحب من.

بنظرةٍ غزلة، مفصحة، من غير حاجةٍ لبيان الكلام، مداعبة ومعابثة ومستفزة بشكلٍ بدا له عذبا وطيعا.

قال لها: هل أنتِ دائما تشفقين على الهالكين؟

قال لها: ياحبيبتي.. لا تشفقي عليَّ أبدا.. إوعي!

قال لها: ما شأنك أنت بهذا المعذَّب المعذَّب الممزَّق الممزَّق؟ لماذا تثقلين كتفيك بأحمالهَ وهمومه وبلاويه؟ دعيه وشأنه، لكن إياكِ أن تشفقي عليه.

هل كان يتكلم عنه؟أم عن نفسه؟

قال: الحب عطش صنع الحب عَطَش.لساني جافّ وفمي جافّ، أريد

أن أبلّ ظمأي، أن أغرقه في نكتار ريقكِ العذب.

قالت: أما أنا فأريد أن أترك فيك أثر جرح لايزول.

قال: هل تعرفين، طبعاً تعرفين، أنني عندما أراك فجأة، أو أسمع صوتك، أحس وسطي ينهار، ينخسف، كأن الدماء قد هربت منه.

قالت: أتقول لي؟ طيبٌ سأعترف لكِ، لاتقلْ لأحد أبدا، أنا عندما تتحدّث إليّ بالتليفون، وتقول لي ماتقول، أحس نفسي أتحلّل، وأتندّى، وصدري يتوتر حتى.

مرّت بأظافرها- المطليّةبلون الزنبق الليلكي أو الزئبق الفضيّ - على ذراعه، ثم خلّفت خطاً رفيعا على ظهره، من فوق السلسلة حتى الآخر.

أثر جرحٍ لايزول؟

ألا أريده أنْ يزول؟أن يمضي؟ أن يرمّ ويشفى؟ هذا ما أزعم لنفسي. وأعرف، في قرارة نفسي زيف زعمي، وحيودها عما حقاً أُريد.

قال: ليس في هذا أدنى ساديّة منها.

لأن الشهيد حقا الذى لايقول عن شهادته، لا يجأر بعذابه. بل هو لايهمس به حتى. مهما كان ممزّقاً. أفي هذا مازوكيّة أم قوة إيمان وجلَد؟

قال لنفسه: لستُ شهيدا.بل دَعيّ على رغم كل العذاب المزعومِ، وحدّته، وبشاعته، وتقطيعه الأحشاء. ليس كلامي إلا صرخة، ليس طلبا ولا استعطافا.هل يمكن أن يكتم الشهيد -من ناحيته - صرختَه؟ ويموت بها مدفونةً في أحشائه؟ لماذا؟ وهو لاينتظر جنّة، ولن يدخل الملكوت، لن يرى وجه الله.

دخلت عليه مكتبه في «الخليفة» كان غارقاً في الملفات المتراكمة عن مشكلة استرداد آثار سيناء المنهوبة في إسرائيل، وفي غيرها. كان رئيس الهيئة– لم تكن قد تحولت بعد إلى مجلسٍ أعلى للآثار– قد أحال إليه الملف للاستشارة «وإبداء الرأي»، مع أن المسألة كلها لم تكن تقع في حيز اختصاصه التقنّي البحت. ومنذ أن أُحيل إليه الموضوع لم ينقطع رنين التليفونات، متابعة التقارير، استكمال قوائم الاثار المنهوبة، الحصول على المجلات والدوريات العلمية التي تشير إلى بعض الكشوف، ونتائج الحفريات في سيناء تحت الاحتلال، ثم هناك طلبات – ورجاءات – السفر، أي تأكيد مواقف التلهُّف إلى السفر، أو تأكيد مواقف الامتناع عن السفر، وهي قليلة، والضغوط والتلميحات، استفسارات الجهات الأمنية والبحثيّة، وإعدادخطابات ووثائق المطالبات الرسمية وترجمتها للإنجليزيةوتصحيح الترجمةومراجعة الآلة الكاتبة ومقارنة بعضها ببعض، إلى مالانهاية من مشكلات تناول – وعلاج–مسألةٍ ما، في مثل هذه الحساسية،في متاهات وتروس الآلة الحكوميّة البيروقراطية.

دخلتْ، فملأت عليه المكتب بوجودها الفوّاح بالأنوثة،عطر «لافام» يساعد في ذلك أيضاً، وإن كانت جدّيتها، بل صرامتها لا نكرانَ لها، وبعدها المقصود عن كل مظهرٍ متعمّد من مظاهر الأنوثة.

قالت: هل سمعت عن آخر ضبطيّة؟ داخل البلد هذه المرّة. آخر حلقة حتى الآن في سلسلةٍ لا تنتهي من هذه السرقات، أو يعني هذه الضبطيّات..

قال: مَنْ يدري أين تبدأ هذه الحكاية وأين ينتهي؟ يعني، ياستّي، ماهي خفايا الضبط، كلّ مرة، وملابساته.. لماذا تضبط، الآن بالذات، مجموعات معروفة، ويمكن مسجلة في الأرشيف؟

قالت، بنبرة كلها عِلم: الله أعلم. والقائمون على هذه الأمور.

قال: دعكِ الآن من الجانب العريق والتاريخي من النّهب المنظّم، هذا أمره مشهور.

قالت: طبعا لا. أنتَ وأنا نقصد مايجري الآن، تحت الأبصار والأسماع، وبالاتفاق.. كل شيء بالخناق -يعني- إلا السرقة بالاتفاق..

سأل: إيه الحكاية؟ ماذا ضُبط الآن؟عند مَنْ؟

قالت: عند تاجر معروف. في ميدان التحرير على طول. عارفه طبعا؟ ياترى ماذا جرى، هل رفض دفع المعلوم، مثلا؟

قال: وضبطوا إيه هذه المرة؟ يعني الذى يُقال إنه ضُبط؟

قالت: خذ عندك ياسيدي. تماثيل جرانيت، دولة حديثة، يمكن من الأسرة السادسة والعشرين. حور، ثلاثة أربع تماثيل. وأيقونات، من القرن الرابع الميلادي. جنيهات من العصر المملوكى. خذ بالك من التنوّع. وأيضا فوق البيعة صليب من دير إيطالي في مانتوا.

سأل من مندهشاً: دير إيطالي؟

أكدت: أيوه.. إيطالي.

قال: يعني تهريب مزودج، من الخارج، وإلى الخارج.

قالت: انتظر. هناك لوحات قالوا إنها مطعّمة بالذهب. هل كان هناك من يريد أن يستأثر بالغنيمة وحده؟

كان الفرّاش ينتظر أمامه، صابرا، بعد أن وضع أمامه ورقة.

نظر إليه.ووقّع بتأشيرة مختصرة.

سأل: عندك تفاصيل ثانية؟

قالت: يوه..! طبعا. خذ ياسيدي عندك.حسب التقارير الرسمية، أيقونات على لوحات خشبية، يمكن أبواب الحجاب في كنائس قديمة، عليها صورة الملاك ميخائيل، بألوان نباتيّة. أظن هذا يهمك بشكل خاص؟ أما الصليب الإيطالي فعليه تماثيل على شكل كنيسة بازيليك لها قاعدة بدرجات صاعدة، تصوّر الدقّة.

ثم قرأتْ من ورقة: وصليب آخر إيطاليّ الصنع عليه تمثال ذهبّي للمسيح، وقاعدته مثلثة عليها رؤوس ملائكة. أما الجنيهات فبعضها عليه طغراء السلطان عبد الحميد سنة ١٢٥٥ هجرية، وهي الأحدث عهدا. أما الأقدم، والأغلى فعليها خطّ السلطان برقوق.

رنّ جرس التليفون، التقطه بسرعة وأجاب باختصار: «أيوه.. نعم.. مضبوط. إن شاء الله..سلام».

قال: والتماثيل؟ فقط تماثيل حوُر، جرانيت؟

قالت: لا، ياخبر، هذه ضبطية معتبرة. تماثيل أوزيريس أيضا. صغيرة معدنية، لم يتحدد تاريخها بالضبط حتى الآن.

سأل: ماذا قال صاحبنا «التاجر المعروف» بلغة التقارير الرسمية؟ طبعا. لايهمني ماذا قال دفاعاً عن نفسه.. لكن، من باب العلم بالشيء.

قالت: الراجل قال. «ياجماعة أنا عندي ترخيص بالاتجار والبيع، والكلّ عارف، بلّغت الإدارة في حينه، بمحتويات المحل كلّها..»

كان موظفو الإدارة يدخلون، أثناء هذه الحكاية، يضعون الأوراق

والملفات أمامه، يسترقون السمع خلسة، والبصر.

يلقي بنظرة خاطفة ويومئ برأسه، أو يقول بسرعة: «لا، ناقص جواب الخارجية، أو صورةمنه على الأقل» أو « لاضرورة لهذا. في الملف ما يغني عنه» أويقول «لاغلط. أعيدي ياستي كتابة الصفحة الثانية، وهو يضع دائرة بالقلم الأحمر حول خطأ الآلة الكاتبة، أو يرد على التليفون، وينهي الكلام بأسرع ما يستطيع، وهو ينظر اليها نظرةً قالت له عنها، زمان: «كلها حنان مكتوم...» «suppressed tenderness» قالت.

قالت له: هل تعرف ماهو الأظرف، ؛والأنكى، في هذه الحكاية كلها؟

– ماذا؟

– أنّ هناك الآن لجنة من مصلحة الجمارك. ولماذا الجمارك ياسيدي؟ لتقدير الرسوم الجمركية المستحقة عن استيراد – يعني تهريب–القطع الآتية من إيطاليا.

– وطبعا صودرت، وحفظت في المخازن،حتى بعد سداد الرسوم.

– وأفرج عن التاجر بكفالة خمسة آلاف جنيه.

– والمكافآت؟ أهمّ حاجة؟

– شهرين للضباط والعساكر والمخبرين. أهُو..سبُّوبة، لا بأس بها.

قال بدون مرارة، بدون سخرية: يستاهلوا.. وهوّ يستاهل.

كان المكتب خاليا، للحظة، فاقتربت منه ونفضت عن كتفه شيئا، بحركةِ أُلفةِ كأنها زوجيّة، وإن كان فيها تواطؤ العشيقة.

العشيقة، كلمة لا تُطيقها، قال لنفسه، تذكّرأنها قالت له في أول أيامها، باستنكارٍ نهائيّ: أنا؟ عشيقتك؟!

في بيت الشعري اليمانية، كانت تبادر فتأتي له بالجاكتة قبل أن ينزل،

تقِف وراء ظهره، قريبة حميمةَ أليفة جدا وأنيسة جدا، وتُلبّسه، ذراعه في الكمّ اليمين، والأخرى. تسوي له الياقة، تعدل وضع القميص، بإيماءات كأنها حركات زوجيّة، ويوميّة، لولا أن فيها نَشْقَة من نَسَمات العشق والقربى الشهوانية، وروحاً من موسيقى جسدين سقطت بينهما الحواجز، لأنه في نور صبح الشقّة المكتوم المشع، بينما هو في كامل ارتدائه للّبس، الچاكته الصوف – كنا في شتاء القاهرة الذي يمكن أن يكون لاذع البرد في الشارع، بدري في الصبح – والبنطلون الذي يحس ضيقه وتضخمه عليه، والحذاء الذى يحصر مقدمة قدميه، كانت وهي تكمل له لبسه، عاريةً تقريباً، بقميص نومها القصير المرتفع لايكاد يصل إلى أعلى فخذيها، وحافية على الباركية الدفئ، لفح جسمها الحار يهبّ عليه بقوة ويثيره، ولا مجال الآن إلا لهذه الاستثارة السريعة التى لامخرج منها، وإنما تشوّقه إلى مابعد عودته إليها، بعد الظهر ربما، أو بالليل.

كانت قد قالت له: أصنع لك أشياءك الصغيرة. هذا أحبه.

فهل كانت تعني أن هذا هو مناط الأشياء الكبيرة، ومعناها، ولا تعبير عنها إلا بها، أما الكلمات...؟

«في هواك شفت العجايب...»

أعاجيب النشوة والعذاب والسؤال الممضّ لم تعد غريبة عليه.

«آثارك تقطر سماً ودسماً..»

أما السمُ فقد ضاعت آثاره في دفّق طوفان الحب..

قال: وهل يخلوا طيب الأشياء وأعذبها من أثارة – هبوة – لمسة متطايرة

من سمٍّ يضيف إلى طِيبها ودسمها خصباً وزخما وكثافة ومذاقاً فريداً؟

«إن حِمْلَ دمي – يوم الحساب – ثقيل»

عندما عاد اليها في أول المساء القاهريّ الشتويّ، كانت معه مشترياته. كانت قد طلبتها منه في الصبح، وحددت له السوبر ماركت الذي يؤمّه (السوبر ماركت الجديد على الناصية الثالثة بعد شريط الترمواي، جنب الجامع)، وأين يجد المطلوب فيه: شرائح السمك السالمون من «الفريزر» شكلها طازج بحمرته الخفيفة المشرّجة، و١٠٠ درهم لوز مقشّر سوف تحمّرة مع السمك المشوي، ونصف كيلو– قالت لاداعي لأكثر من نصف كيلو ياحبيبي!– من الجمبري الكبير، والجزر، والطماطم، والجرجير والخص (أيامها كانت تؤكل دون خوفٍ من المبيدات) لزوم السلطة، وزجاجة النبيذ الأبيض الجناكليس، رقرقته تضربِ إلى صفرةٍ رائقة لا تكاد ترى من وراء زجاج الكؤوس الرقيقة الناصعة التي خرجت الآن من مكامنها.

لكنه جاء إليها بما لم يكن ممكنا أن تطلبه –هي– بنفسها: وردة واحدة حمراء، بلدي، أصلي، فوّاحة، شذاها فيه نفحة من سُكّر هفهاف – غير فجّ وغير مبتذَل– وعندما كان يضعها في الزهريّة الفرعونيّة الزرقاء تلعاء العنق، وخزته شوكة من الوردة، في إبهامه.

لم تتردد لحظة، التقطت إبهامه ورفعته إلى فمها، وامتصت قطرة الدم المدّورة البطيئة التي نزّت من الوخزة. وبقيت – هنيهة– تمتص الإبهام برفق، كأنها تستطعم، بحركة تطهيرٍ وشهوة معاً، توثب لها جسمه كله، ووجد نفسه يتوتر، وينعم– هنيهة– بحس هذا التوتر الموجز بطيء الانجياب.

قالت له: ياسيدي أنا امرأة لها حدودها، لها تحفّظها الخاص، حتى في

أكثر اللحظات حميميّة!

قالت له: لم أسمح لأحد غيرك، قط، أن يصنع معي الحبّ كما تفعل أنت.

قال: فعل الجنس العادي، المبتذَل، الآلي تقريباً، رثٌّ ومكرور حتى الملل، حتىَ بما فيه من قسوة ومن أنانية محتومة. ما الحنوّ فيه؟ ما الدعابة والمرح فيه؟ الحنوّ، وإبداع الكشف، وفرح المشاركة–بل التواطؤ– أليس هذا ما ينقذه؟

قال لنفسه: ألا أريد أن أنسى ذلك كله؟

قال: يأبى ذلك عليّ جسمي نفسه، بل وجودي. لا انصياع عندي لهذه الإرادة على الرغم من غوايتها.

قال: إليك إذن يارامة، يا أيها الحب الغريب المقيم، مايجول في روحي. كل ما أقول إنما هو منكِ، وإليك. لاينتهي. ولا هذاء الحب الذي هو أصله وسببه ومنتهاه. باقٍ لايحول، لايعرف مرور الزمن، لايقبل الإنكار، ولا الصمت، ولا الشيخوخة، ولا انقضاء العمر. بالأمس، واليوم، وإلى الآخر، جسد النعمة، محنة المعنى، معيار القيمة، تهبّ به الزعازع الهوج، فأظُنّها قد عصفت به. أستيقظ من غيبة مدبّرة فأجده مازال راسخا، بل رازحا، لايريم.

هل تنفرين من هذا البوّح الصبياني قليلا؟ هلاّ غفرتِ للمراهق الأبديّ، للشيخ المراهِق الأبدي؟ هل هنا طرطشة العاطفة أَم لوعة صدقِها؟

أنا لا أغفر.

قال: زمان، لم تجعلني أحس قط أنها فخورة بي.

قالت له مرّة: مالم تفعله أعظم بكثير مما فعلت.

فكانت - بالطبع - طعنةً عميقة.

قالت بعد ذلك بسنوات، في غيبته: «هذا المصري العظيم..»

وقالت له مرّة: بيتنا.

بيتنا، البيت الذي عرفتُ فيه أجمل لحظاتِ- هي آباد- الحياة. البيت الذي سكنتُ إليه حقا، عانيتُ فيه مضضاً لايوصَف، وحلّقت فيه إلى السماوات العلى، في وقتٍ معا.

قال: حدود؟ تحفُّظ؟ من فنون عشقها مايوحي بحبٍ لايعرف تحرّجاً ولا أي نوعٍ من أنواع التورُّع.

كان الليل ساجياً في «بيتنا».

الديك صامت، والسرير فسيح وشاسع أمواجه تعلو وتهبط بصمت، من غير أن تترك على حافته زَبَد الرغوة. كان عميقا ومريحا. ساحة للكشف والصحو الجسداني الباهر.

قالت له: تعالَ، اقترب، حتى أستطيع. لا أعرف الآن كيف أملكك.

قالت له: اتركْ نفسك. لاتتوتّر. أرجوك. إرم نفسك، على سجيتّك. استرسلْ معي ياحبيبي. لا تقاومني. دعني أتفتّح لك. تفتّح لي.

في غمار موجة اللعب في البحر تعرف شهواتُ المعرفة طريقَها، لوحدها. شراعها مبسوط حتى آخرِه، ممتلئ بالرياح البهيجة. استكشافٌ

للعمق تحت السطح الساجي، برفق، ولكن بتصميم وعزم. شعلة مستقيمة ندية ومتوهجة في آن، تجوس، وتتفحص كنوز المرجان الطرية الحية النابضة، غارقة، دون ألم، في مائها. بين ذراعيه جسم السفينة المدوّر، هضيم الخصر وشامخ الصدر، يخوض غمرات يمّ العرفان، لايشهق، لايريد أن يطلق -بعد- صرخة النشوة الأخيرة.

«سفينة البحر عوّامة..تضحك وتلعب في البحر عوامة.»

هل غرقت السفينة أم رست على صخرتها؟ انفتحت ثغراتها، وامتلأت. ابتلعت دفق الشهوة. نهمها إليه قد رضي، واستنام.

قالت: طعمك أرضيّ.

كان الحوار الجسديّ بينهما من نوع خاص جدا. صادق وحار وواثق من المعرفة ومن التفهم، واثق من أنه لن يساء تأويله. ليس فيه أنانية، ليس فيه غيرية.ليس فيه تعالٍ ولا تصاغر.

شأنَ الحوار معها بالكلام، أيضا، أو بالتكامل.

قال: أهذا حوار كامل إذن؟ بل هو تكاملٌ حقا، تغايرٌ وتوحُّد في الآن نفسه.

قال: لم أعرف هذا الحوار بشقّيه، ولا بأي شق وحدَه مع غيرها.

أما الحوار بالفعل والكلمة والجدل والنقاش مع أقرب الأصدقاء- بما فيهم نور الدين، أو سامي، أو نايرة، أو نعمة، جميعا- ففيه دائما محاذرة، وتحوّط، ومخاطرة قائمة، وتوجّس من الإيذاء أو من سوء الفهم سواء، وفيه سعي خفي وربما لا واعٍ، من طرفٍ أو آخر، إلى تأكيد الذات أو إلى تنحيتها للتساهل والإرضاء، منهم على الأقل وربما منّي أيضا -بل بالتأكيد منّي

أيضا– مادمت قد قبلت الدخول في حوار. أو أقبلت عليه بطوعي. فيه دائما دائما، ماهو غير النديّة، وغير التكافؤ، يتقلّب رجحان الكفّة فيه، دائماً، دائما، فيه باستمرار نوع من المباراة الذهنيّة، أو التسليم مسبقاً، مهما تخفّى ذلك كله تحت الأقنعة.

هذا أيضا يحدث معها. ولكنه رجحان لكفّة ميزانٍ آخر. ليس فيه حساب، ليس فيه مباراةولا تساهلات، هكذا مازلت أعتقد. ليس فيه حسابات أوسباقات، مهما كان الخلاف الظاهريّ.

الحب الجسدانيّ الكامل بين امرأة ورجل، هو هذا. وكأنه شرط للحوار الكامل. لأنه ليس جسدياً فقط، بالضبط. هو الكأس والخمر معا بلا تفرقة ولا انفصال. على الأقل هذا هو، بين هذه المرأة وهذا الرجل، بالتحديد. رقرقة الصهباء في جوهرها الصافي أم في شفافية مادة الكأس النضرة القوية؟ بلا تفرقة ولا انفصال. هذا ما قد حدث. هذا ما قد حدث. أي شيء بمقدوره أن يمحوه، بعد؟

وبطبيعة الحال لم تكن الصورة دائما ورديّة، ولم يكن من الممكن أن تكون.

الإحباطات تأتي، الأشواق الغامضة لاتتحقق، ولايمكن أن تتحقق. ولا قبول لهذه الاستحالة.

الخذلان مضمَر، دائما، وتوقُّع الخذلان فيه خديعة كامنة.

كان الصباح غائماً في أحد الأيام التي لاتشفّ فيها السماء ولا تكثّف، بل تظل شاحبة غير مريحة، ثقيلة الوطأة.

قالت له: انزلْ الآن، من فضلك. أريد أن أنظّف البيت. هذا يستغرق

مني ساعتين أو ثلاثا. أقترح أن تذهب للسينما مثلا، حفلة الساعة ١٠ الصبح، أو أقعد على قهوة، أو في حتّة، واشربْ حاجة. فرّج عن نفسك شوية، أرح نفسك منيّ قليلا.

وعندما همّ بالاعتراض بادرته: أعرف. أعرف. أنا فقط أداعبك ع الصبح. لكن بجدّ. اترك لي البيت ساعتين ثلاثة.

نزل، وفي دخيلته كلّ هواجس العاشق المحبط، وغيرته، وأوهامه.

تجسمّت في ذهنه شكوك كأنها الكوابيس، في عزِ نور الصبح.

بعد نصف ساعة، أو ساعة، أو نحوها—أحس أنها دهور تنقضي– ظل خلالها يدور حول البيت في دوائر متقطعة وعلى غير قصد واضح منه لأي شيء، لم تكن في ذهنه نيّة محددة، وفجأة عاد أدراجه، وصعد، ودقّ الجرس.

ترددت ذبذبةٌ متصلة ورتيبة. سمع صدى دقّ الجرس عالياً وأجوف وله رنين كأنه في بيت خاو. سمع صكّ الترباس. لم تفتح الباب كلّه، بل شقاً منه، مواربأ. كانت الذبذبة قد انقطعت.

كانت تلفّ رأسها بمدوّرة الشغل، وحافية، وكانت المكنسة الهوفر مسنودة إلى حائط الردهة. عليها فستان قديم قصير على فخذيها الكبيرتين، متغضنا ومبلولاً عند فتحة الصدر الواسعة الممتلئة بنهديها اللذين يهتزان، بحرّية دون عائق ودون مسند، وفي فمها سيجارتها الستايفسنت مشتعلة. كانت تشتغل، بجدّ.

أوسعت له، صامتة، فدخل، ووقف لايعرف ماذا يقول. طارت من ذهنه ألف حجّة وحجة كان قد أعدها قبل أن يصعد إلى البيت.

كانت عيناها الآن متقدتين بنظرة فهم وغضب.

قالت: ادخلْ. ليس عندي أحد.

كان البيت مقلوبا، الكراسي بجانب الحيطان، السجاجيد مرفوعة وملفوفة، الپاركيه نصفه يلمع ونصفه ينتظر، جردل الماء على باب الحمّام وتحته الخيشة المبلولة المعصورة الملفوفة بالتواءاتٍ وثيقة محبوكة.

قالت له: إياك أن تلمسني.اطمأنَّ قلبك ياسيدي؟ انزلْ الآن، واتركني. وعلى الرغم من غضبها وحسها بالإهانة- هل كان فيه أيضا حسّ بالرضى والفخر لأنها موضع كل هذا الحب، يعني كل هذه الغيرة؟ استدركت تصالحه:

- أنتظرك على الغدا. بعد الساعة اتنين. كويّس؟

فنزل صامتا، دون أن يقول كلمة.

لماذا كان يجب أن تكوني؟ بكلّ كرم قلبك، بكل سخاء جسدك. لماذا وجدت في حياتي؟ألم تكن هذه الحياة تجري مجراها الهادئ الراكد- هكذا كنت أظن- فلماذا أتيتِ تتخايلين بأملٍ مستحيل؟ أنتِ تعرفين- وتريدين- استحالته.

التولُّه، التصوُّف بالعشق، المطلَق، تمجيدُك وتحييدُك وتحديدُك معا، التوق إلى معرفتك معرفةً شاملة في استضاءتك النورانيّة وفي مَباذلك الأرضيّة معاً، المعرفة الشامَلة، الحب الكلّيّ.

قال: أليس ذلك كله ساذجاً جدا، بل يمكن أن يكون زائفا، حتى؟ ألا يمكن أن يكون؟ وكم مرّة، أعيده وأزيده؟

قال: التهكُّم منه، التقليلُ من شأنه، السخريةُ به، الشكُّ في حقيقته، أليست هذه أيضا حيلة ساذجة لا تلغيه ولا تنفيه؟

ما العمل إذن – قال– ماذا أقول؟

كيف أجد طريقي بين هذه المهاوي على الجانبين؟

سأل نفسه: هل تتآكل المَحبّات، بدلا من أن ترسخ؟

قال ولِمَ لا؟

قال: أبدا. أبدا.

خطر له أن حبه هذا زهرة ضخمة، عملاقة في الحقيقة، ولكن بلا جذور. زهرة شائكة ومتوحشة، نهمة وشرسة إلى العب من الحياة، لكنها تستقي ماءها من ذاتها، مثل بعض النباتات الصحراويّة، مثل صبّارة سامقة، لاتذوي ولاتجفّ، مهما بدا من كثافة جلدها الخارجيّ، وانغلاقها على نفسها، معزولة في صحراء داخليّة.

قال: الجذور. الأشياء اليومية العملية المعلَنة الراسخة. الأشياء التي لم نصنعها معا. ألف شيء وشيء، كما كان يقال. لم نسمع أغاني يونانيةً معا، لم ننزل إلى البحر معا، ماذا كنا نفعل إذن؟ بل، سمعنا نانا ميسكوري معا، وغمرتنا أمواج كثيرة. ابننا الذي طاف بخيالنا الأحمق الجامح مرّة، هل جاء؟ فانتازيا متطايرة لم تأت سيرتها بعد ذلك ولا مرّة. قلنا إنه كان سوف يجمع بين خضرة عينيك وحساسية قلبي، بين سمرة بشرتك ونصاعة براءتي– هل عندي براءة ناصعة أو غير ناصعة؟ – بين اندفاعك وحكمة تمهلي، بين

مصريتك المسلمة الآتيةمن الشرقيّة ومن الأندلس، وبين مصريّتي القبطيّة الآتية من الصعيد ومن حجارة أبوللو، لكننا صنعنا أشياء وأفعالاً كثيرة لا حصر لها، صنعنا حياةً- مهما بلغ من وجازتها وخطفها، قائمة، هنا والآن، وفي شطح الخيال معاً، لا تقلّ عن الأرضيّة الواقعيّة اليوميّة بحال، بل هي منها أبقى، وأعمق، وأعصى على الزمن.

رأى، فجأة، كوفيتها الزرقاء الفاتحة، الطويلة، التي كانت تلفهّا حول رقبتها وعلى جيدها، لَفَّةً واسعةً رحراحا، وتتركها تنسدل على صدرها، حتى أسفل بطنها.

جاءت إليه، في أول مواعيدهما، في جروبي ثروت، وعلى كتفيها هذه الكوفية، كنا في آخر الصيف، ودخلت كأنما هي نفسها موسيقى. وجلسا معا يرتبان إجراءات رحلةِ عمل، تتلوها إجازة في المدينة التي قالت إنها مدينتنا.

قالت له: تركت حسن وعنده ٣٩ حرارة. لكنه لم يستطع أن يقول لا. طلب مني فقط أن أعود بسرعة.

كانا قد اختارا مائدة تُطلّ على الحديقة، في آخر الرواق العلويّ الطويل الذي تطلع إليه سلّمتينَ أو ثلاثا. وكانت الكراسي تبدو، تحتُ، على المساحات المحصبة بين الخضرة، كأنها لُعَب، مع أنها قريبة وبحجمها العاديّ طبعا. كان هذا الرواق الجانبي من جروبي معتماً قليلا، بينما الحديقة، تحتُ، ساطعة بالشمس، والجو كله يبدو غير واقعيّ،وإن كان حقيقياً إلى آخر حدّ.

رامة، في نصف العتمة، مشرقةٌ بتوهّج داخليّ ينعكس بتضرُّج خفيف على سمرة وجهها النضر الفتي.ليس في وجهها ماكيّاج على الإطلاق،

لاروج على شفتيها، ولا على الوجنتين، لاشيء الا ذلك الخط الأسود الثقيل تحت عينيها الواسعتين المترقرقتين بضوء الذكاء واللماحية وتشوُّف البدايات البِكْر التي لم يكونا يعرفان إلام تسير بهما. في ١٩٧٠ كان كل شيء بينهما مفتوحا، وقابلاً للتغيّر، ولم يكن عبد الناصر قد مات بعد، وكانت البلد ترزح تحت حرمانٍ قاسٍ وإحباطٍ صارم لكنها كانت تموج بأملٍ مكتوم وقويّ.

وتبادلا التخطيط لرحلة يعرفان – أو يتشوّفان– أن الحب سوف يغمرها بنعَمٍ غير منظورة. أعطته رقم التليفون الذي يطلبها فيه وعنوان الفندق الذي سوف تقيم فيه عندما يصل إلى المدينة التي قالت إنها مدينتنا. وهو الرقم الذي كان خاطئا– هل كتبه خطأ أم هي التي أملته عليه خطأ؟– ولم تكن هي في الفندق الذي جاءه إليها، وكانت الدنيا تمطر رذاذا، ودهش الفندقيّ قليلاً عندما سأل عنها، قال إنها كانت عنده لكنها ذهبت. لا، لم تترك عنوانا.

أيقن بالإخفاق، لم يكن التليفون يردّ.

سار في هذا الشارع الذي قال عنه إنه شارع ابن الفارض، أو شارع عمر بن أبي ربيعة، أو شارع العشّاق المأساويين، وطرق أبواب الفنادق، واحداً بعد الآخَر، وهو يحمل حقيبته الثقيلة، لكي يبيت ليلة ويسافر من الغد، ولم تكن ثم غرفة خالية، وعندما دخل آخر فندق في الشارع. ثقيل القلب. يائسا، مهدودا، كانت هي في الردهة، بكل مجدها، متألّقةً ومليئة بحيوية الشباب، وقالت له: أين أنت؟ كدت أيأس من وصولك؟ وحملت– هي– عنه الحقيبة الثقيلة، وطلعت بها أمامه، وهو وراءها كأنه يصعد، رويداً رويدا، إلى سماء مجهولةٍ وغير مأمولة بعد أن مرّ بعذابات أعراف المطهر البارد

برذاذ مطره الخفيف، وكان البنطلون يحبك ساقيها وردفيها، وقبّلته على فمه قبلة طويلة عندما دخل غرفته، وظل يسائل نفسه طيلة ربع قرن بعد ذلك هل كانت الأرقام والعناوين خاطئة من عندها أم من عنده، هل عثر عليها بمحض الصدفة، بتدبير خفيّ، أم ببساطة لأنها كانت في العنوان الصحيح، وهو ما قالت عندئذ، وما قالت بعد ذلك، وما لم يستطع أن يقتنع به قط، تمام الاقتناع، لا في أثناء أيامهما الستة العتيدة، ولاطيلة السنوات، ولابعد أن غمرته مياه حبها الساطعة الحارة المشتعلة بسخونة متقدة تارة، والباردة المثلجة المعتمة تارة، تضربه أمواجها أو تهدهده أو تجمّد حسه، مرّةً بعد مرّة، لكنها لاتنجاب عنه، هذا البحر يملأ أفقه حتى حافة السماء، كأنما هذا الماء محتوم، لايقبل الإنكار، بل لايقبل التفكير، هاقد مشى على سطح الماء خطواته لاتكسر السفح الأملس الممسد، ساقاه تنسابان في موسيقى الجسد. قال بطرس ليسوع: ياسيّد إن كنت أنت فمرني أن آتي إليك على المياه، فقال له يسوع: تعال. ولكنه لما رأى شدة الريح خاف وبدأ يغرق. هل يلوح صباح كنت أنت ومازلت ظلمته الساطعة، وعيناي مفتوحتان فيه؟ هل تمسكين بيدي، رامة، أم تتركيني أغرق؟ نعم، أنا قليل الإيمان، لكن يقيني بهذا الحب فوق الإيمان.

غارقٌ هو الآن، عيناه مفتوحتان في هذا الموج المترقرق.

تمسيد التطهير والخلاص الذي لن يأتي أبدا رفرفةُ الروح القدس لاتجيء ولا تهبّ نسائم البراح الفسيح ولارياح الحرية الكاسحة. ألم تهبّ به الأعاصير تجرف سدود النفس وحواجز الصمت بل قد أطاحت به وحملته إلى غير مسار.

عيناه مفتوحتان وهو غارق، هو والقمر معا، إذ يغوص قرص الوجه المضرّج بحمرة الغروب، يهبط ببطء، يشقّ سطح هذا البحر الذي تضطرب

به أحشاؤه وليس له ساحل مرئيٌ ولو من بعيد ولو من وراء كل أفق وبعد كل نهاية.

الفصل السابع

جسدٌ غامضُ الوَضَاءة

كان يجاهد للوصول إلى شيء ما، لايعرفه تمام المعرفة.

في محطة السكة الحديد التي لاتفارقه. القطار الصغير القديم، أسود، مدّور البطن، مدخنته طويلة، واقف في محطة ملوي، على رصيف فرعيّ في الطرف الأيمن الأقصى، جنب زراعات القصب المرتفعة المتكاثفة، سمع خشخشة أعواد القصب المورقة الثقيلة وزعازيعها المتربة في هبّات هواءٍ مكتومِ السخونة.

قال: نحن مع ذلك في الفجر.

لم يتبين تماما لماذا قال ذلك.

كان القطار أصغر من المعتاد، العربات تبدو خالية تماما، لكنه كان يعرف، بطريقةٍ ما، أن القطار مزدحم بأهله وناسه، الصعايدة الأشدّاء ذاهبين وراء الرزق إلى كلّ بلاد الله، صابرين، دون استكانة ودون وهن، يحملون معهم زوّادهم: العيش البتّاو والجبن القديم والراديو الترانزستور مع الباسبور وشهادة الخلوّ من فيروس الالتهاب الكبدي الوبائي سي..

قال: أين نحن من الزمن؟

ها هو ذا الميعاد قد أزف فلماذا لم يدق ناظر المحطة الجرس النحاسيّ

العتيد على الرصيف الوسطاني الكبير؟ ألم يأزف الميعاد؟

كان الناظر- أو المعاون، لايعرف- جالسا في الكشكّ الخشبي القديم، سقفه المخروطيّ مغطى بقرميد باهت اللون سقطت منه أحجار كثيرة وتركت محلها ندوبا غائرة سوداء.

ينظر اليه المعاون بلا مبالاة، حلته الزرقاء الداكنة كامدة وقديمة الشكل، على رأسه كاب كحلي باهت، قال: «لم يعودوا يلبسون مثل هذا الكاب من زمانٍ. لم يكونوا قد لبسوا مثل هذا الكاب قط» وكأن الرجل ينتظر منه شيئا، نازعة حِسّ أو بادرة إيماءة.

توزعت إرادته بين أن يركب القطار - هو موقن أنه سيتحرك على الفور، موقن أن عليه أن يركبه في النهاية- وبين أن يذهب إلى الكشك على الرصيف الكبير ليعرف ماذا يريد منه الرجل، أو ماذا يريد له.

قال: محطة حجر القمر. لابد أن أصل إليها اليوم. لكن متى يقوم هذا القطار؟ فات ميعاده؟ ماذا يخفي هذا الرجل عني؟ هل هناك عطل في الخطّ؟ هل محطة حجر القمر مقفلة اليوم؟ هل محطة حجر القمر موجودة أصلا؟

كانت البيوت القديمة الموحشة تبدو له من الجانب الآخر، بعيدة، واطئة، حجر الحيطان قد حال لونه إلى غبرة قاتمة، الشبابيك موصدة على أسرارها الرثّة، هل هذه بيوت عمال الدريسة؟ هل البلوكامين نائم لم يفتح السكة؟

دخلتْ المحطة قاطرةٌ عتيقة تجر عربة بضاعة واحدة، مكشوفة، جدرانها الحديدية مطلية باللون البنّيّ الأحمر المحروق، مشطوفة هنا وهناك تكشف عن بقع في جسم صدئ، وعليها الأرقام والحروف الأفرنجي كبيرة

بالأبيض الحائل.

وقفت عربة البضاعة على الرصيف الجانبي، سدّت الطريق أمام القطار الذاهب إلى حجر القمر، رآها تحته، منخفضة جدا، كأنها وقفت على مستوى غائر، القضبان هنا مقطوعة، كيف وصلت هذه العربة؟

كان في العربة رجلان شكلهما أفريقي، أو هنديّ. هذا النيجيريّ، ضخم الجثة، عاري، فاحم الجلد لامع السواد، لاشك كان ملاكماً في شبابه، رأى على ظهره ندبات طولية سوادها منطفئ ،وأكثر قتامة من سواد بشرته اللامعة. آثار تعذيب؟ من هذا الرجل؟ من عذّبه؟ هل يعرفه؟ هل سمعه يغني، مرة، أغنيات أفريقية مرحة سعيدة الإيقاع؟ كان الآخر هنديا صغير الجسم على رأسه عمامة كبيرة بيضاء كثيرة التلافيف، مثل عمائم السودانيين، أو الصعايدة، استند بذراعيه الاثنتين على جدران عربة البضاعة، كان ينظر إليه بوقاحة، قميصه المقلّم القطني وبنطلونه الذي لاح له متهدّلاً ومتغضّنا، صناعة محلية هندية زهيدة بلاشك، قال. لكن الرجلين كانا يتهامسان، بابتسامة ماكرة، هل كانا يسخران منه؟

– التذكرة إلى حجر القمر بستين جنيها؟ هل هذا معقول؟

تقلقلت عجلات قطاره، نفثَ سحابةً من بخار أبيض صعدت على جانبي القاطرة السوداء، يوشك القطار أن يقوم، كيف يصل إليه؟ كيف يصل؟ كيف يصل؟

يقوم أمامه فجأة، وسط زراعات القصب المتموجة – كأنه في بحر– حصن سامق الجوانب، حداثيّ الهندسة، قاطع الجدران، صارم وتجريديّ في اتساقه الذي يشبه معادلة رياضية. كيف يمكن أن يصبح المعمار تجريدا رياضياً؟ قال: لم لا؟ إذا كان الحبّ نفسه–والعشق– قد أصبح معادلةً

تجريدية؟ هل هو في حَجَر القمر؟ الأسوار الضخمة تحيط بمساحات مكشوفة عريضة فسيحة تحت السماء البيضاء تقريبا، الأحجار الهائلة المصقولة حتى النعومة الملساء من الداخل، على الجانب الخارجيّ منها هي الصخور الخام الخشنة. خطر بذهنه، بابتسامة عقلية، أنه أمام قلعة منيعة مازال أمير الانتقام الكونت دي مونت كريستو -مثلاً- يقطنها، أو لعلّه دون كيشوت، أمير الخيبات والمستحيلات- مازال محبوسا فيها، بلا أمل في النجاة. قال: يصلح ديكورا في فيلم سينمائيّ تجريبيّ. ثمّ عواء إليكترونيّ حيوانّي معاً، متصل، نوع من الخوار الميكانيكيّ الوحشّي، زئير معدنيّ في أدغال داخلية شرسة.

حوْلي الأبيضُ والأسود والرماديّ البترولّي تضيق، تطبق عليّ ببطء.

أمدّ ذراعيّ كلتيهما، على آخرهما، كأنما لكي أحول دون أن تعتصرني الحيطان في إطباقها المحكَم المصمَت المسدود على جسمي المحصور بين سطوح المربعات، والمكّعبات والمعينّات، الملساء التي لاشقّ فيها، لاثغرة لا خلاص منها. رتابة الخبطات المستمرة المتعاقبة تجّرد موسيقاها الملحاح من أيَة انفعالية أيَة رومانسية أيّ معنى. قلت: «لماذا دائماً دائماً يارب أبحث عن معنى هذا العالِم، هذا الحب، هذا الوجود- وهذا الوجد - كلها بلامعنى، طبعا» رقصة باليه تبدو بعيدة بعيدة، الراقصون صغار، كأنهم دمى الأطفال، تحت جدران الرخام المصقولة تماما، لامعة، شامخة العلا، يتحركون بآليّة، مانيكانات لاجنس لها، غير رجوليّة وغير نسائية، هم مع ذلك- أوهي- إنسانية، هل هي لعبَ ميكانيكيّة وزواحف بدائيّة قميئة في الوقت نفسه؟ ترتفع الأطراف، الأذرع، و السيقان، فروع نباتية من أجسام أخطبوطية، في تشنّجات وتقلّصات وتقبّضات وتمدّدات غير إنسانية، ما الإنسانية هنا؟ تضرّعات مرفوعة إلى آلهة غير موجودة، بلا

استجابة، ضوء شاحب، كأننا في محارق بشرية، سجون وسيطية، حبوس من المعدن تبث غازات في سحب سامّة بطيئة الهبوط، طقوس التمهيد لمرور جنازير الدبابات على أجساد الأسرى، هل أنا راقص برغمي في هذه الزنازين مفتوحة المسالك بعضها على بعض، في هذه الساحات الرمليّة المحرقة، كلها خانقة، كلها قاتلة، كلها لا مخرج منها؟ الضآلة البشرية أمام سحق الموسيقى الماثلة وسطوة السواد المحيق، حركات تمرد الجسم الذي تنتزع منه الروح، هياكل عظمية مكسوة بقشرة مشدودة من اللحم الحيّ المعطوب، بوخنوالد أو سينا أو البوسنة أو بوروندي سواء، أهذا أنا منهم، بينهم، أم مارق عنهم، مكتوف اليدين؟

أين مجد الباليه الغينّي في حدائق سيكوتوري؟ على صوت هدير المحيط في شاطئ كوناكري الليلّي، مجد النهود السوداء العارية المنتصبة في موسيقاها البضّة ناعمة وعارمة الإيقاع معا؟ أين ازدهارها الشرس، نشوتها بالحرية، اعتزازها بتدويرات الجسم ربواته ووهداته، تموّج الأجساد الهيروغليفية الزنجية الفخور بجسدانيتها العارية تتثنّى وتنعطف في إيقاع الحنان الحميم؟ صفقات الأيدي واهتزاز أوتار القيثار والانثناء على شريط رفيع واحد يدور بالحقوين في تمجيد إله الموتى المبعوثين أحياءً، كلهم حياة، من ترب أرض كيمي السوداء؟ أين أقنعة الأبنوس والعاج التي توحّدت بعضويّتها الداخليّة هي عضويّة الكون؟ أموت شوقاً إلى الرقصات المصريّة حيث توحّدي وثيق رقراق الانثيال مع المقدّس الذي هو دنيويّ، حيث حسيّة الشهوات الإيقاعية، على واحده ونصّ، تستحيل نشوات روحية؟ أين أنا؟ مطلق التجسيد قربان الألوهية شبق السكر بخمر سماءٍ لا حدود لها، على أصقاع أخميم الصعيدية وإلاهها مين.

كأنما سمع أنينه الخافت.

كانت لمسة يدها على كتفه خفيفة رفيقة، أحس الحنوّ والدفء،

فتح عينيه، كأنه مازال بعد في محطة ملوي لم يبارحها، كأن القطار إلى حجر القمر يوشك أن يفوته.

قالت، بمداعبةٍ هادئة، هل فيها أيضا أثارة من سخريةِ الدعابة:

– اسم الله عليك وعلى اختك. كنت تنهج. النهاردة الخميس عيني عليك باردة. نمت على طول، بعمق، طول الليل. وأنا سهرانة أتقلّب مَن الأرق.

قال، مازال نصف نائم، مازال في قبضة محطة السكة الحديد:

– ليه؟ كفى الله الشر. قلقت ؟ وبعدين إيه الحكاية. دا نظام نَق بقَى. طب وفيها إيه لما أنام طول الليل كدة مرة واحدة. ياستي خلّي بالك، مايحسد المال إلاّ أصحابه.

قالت: أنا أصحابه؟

قال: أُمالّ مين؟

قالت: النهاَردة الخميس.

عندما انتفض كانت فورة اليقظة موجِعة.

لم يكن هناك أحد.

لم تمتد يدٌ إلى كتفه. مع أنه مازال يحس لمستها الرفيقة.

– أنا صاحبتك؟

– بكل المعاني. مالكة حتى النهاية

قال: صفقة فاوستيّةَ!

أنت صاحبتي، مالِكتي، أم أنا الذى خلقت أسطورتك؟وبيتكِ كعبتى؟

«رامة عجيها النغم صارت مغنية

بالليل تغزل محارمِ تفكُّها الصُبحية
تطير في السما وتمشي ع الميَّة
أنا عشقت
وصارت قِبلتي هيَّة»

هي المغنيَّة، إيزيس الإلهية، ليليثْ حواء الأولية عشتروت سميراميس بلقيس ڤينوس الواند اليّة.

الم يخطر بباله بينلوبى الوفيّة؟

«زمانك طاب يا رامة.. زمانك طاب»

هأنتِ تسكنين شجرة الصفصاف العالية أُم الشعور والجميزة الهائلة،طيرُكِ اليمام وغذاؤك حبّ الرمان،يا أم البركة ربّة الخصوبة أمارة الخير، من بيت إلى بيت أبحث عنك ومن فيض للماء في السواقي السبع التى تنعى بلا انقطاع إلى البحر العظيم.

هل أنت إيزيس الجديدة، أم أن ايزيس امرأة ككل النساء– كما لا تتوقفين عن أنَ تقولي –تسعى في الأرض كما تسعى النساء، تحيا وتسعد وتشقى وتسقط مريضة وتجري وراء ما يجرِي إليه الناس من رزقٍ وجهد، للوصول إلى سلطةٍ ومكانة ولذةٍ للجسم وروحٍ عن النفس ومتاعٍ للروح وسعي لملء القلبَ الذى يفزعك أن يفرغ،، وريّ للجسد غامض الوضاءة الذي يروعك أن يظمأ؟

واجهةٌ رخامية سامقة ناعمة وقباب شامخة امبراطورية، سماء تنسدل على سطوح الجسم الملساء، صوّان الجرانيت مِن أسوان ورديٌ أُصهب لايكاد البصر يشخص إلى ذروته الشماء ، صلب يتحدى تقلبات الزمن، وراء

هذا المجد المانع وداعة التضرع إلى العَبّ من هوى الجسد، خلف هذا الصرح وجدتك رقيقة مستكنّة متعبة، خانعة قليلا وخائفة قليلا، قابلة للانتهاك.

الجسد الغلاّب وقع عليه العُدوان إثر العدوان، كأنما هو - هذا الجسد- قد استدعى العدوان. ومع أن عواء الضباع يتعاوره، قديشعّث عراه، الاّ أنه يظل منيعا.

قالت له: بعد ذلك مررت طبعا بأبو قرقاص. في آخر البلد، مثل ما عندنا في مصر، أو اسكندرية،تماماً، عشش يعيش فيها الناس، ألواح من الصفيح أو الكرتون أو الجريد أو الخشب أو الصاج أو حتى الطين، متساندة على بعضها بعضا، متلاصقة، تركن أحيانا إلى بيوت مبنية بالطوب الأحمر أو الأسمنت، الناس أيضا رجالاً صبيانا وبنات يركنون إلى بعضهم بعضا، ينامون ويأكلون - رأيتهم مازالوا يقضمون الجعضيض أو اللفت المخلّل، نعمة من عند ربّنا والعيش الحاف بدقّة الملح فقط. ويتضاجعون معاً. هم، يسمعون ويرون كل شيء، الاباء ينامون أحيانا كما تعرف مع بناتهم، والأخوة والأخوات الصغار لايبخلون على بعض بشئ من أجسامهم، أليسوا أخوة؟ «هوّ مش أخويا برضو أزعلو ليه.. وبعدين دا أبويا، خيره عليّ، خلّه ياخد مزاجه» أيْ والله، دون أيّ تورّع مما يعرفه الحياء البورجوازيّ الشهير، أشياء معلنة تقريبا، لأنها تحدث للجميع، في هذا التكدس البشريّ الحيوانيّ معا، وبعد ذلك لاكهرباء طبعا- إلا بسرقة التيّار من فوانيس الحكومة- والماء يأتي من النيل في الزلع والحلل والصفائح والبلاليص، هل هذا يشبه تقريراً اجتماعيا؟ كيف أقول لك ما رأيته بعيني، حتى قضاء الحاجات الجسمية الفيزيولوجية- يعني، اسمح لي بالتقعّر- كيف أقول لك كيف يفعلون ذلك، في آخر كل مجموعة عشش أرض فضاء حفروا فيها حفرات

متعددة، مازال الأولاد والرجال معا، بينهم وبين النساء والبنات ألواحُ خشب رفيعة تسللت المياه حتى نصفها، والرائحة، والذباب، والكلاب والقطط.. تقول لي لماذا ضربوا، لماذا حرقوا؟ منهم أولاد وبنات المدارس الحكومية، طبعا، عندهم في وسط العشش تليفزيونات يرون فيها، جماعةً، شريهان وفاتن حمامة، وبنات الإعلانات. ليس هذا كله جديدا. لكني رأيته، نزلت من العربة الحنطور، تركت عمّ أحمد ومشيت بينهم، كان من الضروري أن أراهم.

المصفحات تسد مداخل البلد. عم أحمد العربجي فرقع بالسوط على حصانه أمامهم، فانطلق يعدو، لم يجرؤ أو لم يرد، ضابط الأمن المركزيّ الشاب في حلته السوداء وخوذته، ومدفعه الرشاش، أن يوقفه، أو لم يعن أصلاً بالأمر.

النوافذ والأبواب وواجهات بيوت البلد نفسها- جوًّا بعد تجمعات العشش- عليها علامات سوداء ذات ألسنة من الدخان المترسبّ على الحيطان، الضلف الحديدية في المحلات مطبقة ونازلة، معووجة إلى الداخل من أثر خبطات الأحجار التي مازالت أكوام منها على أرض الشارع، وسط برك راكدة من ماء الإطفاء، في برك الماء علب صفيح وكرتون وورق تواليت غرقان وزجاجات مكسورة، رائحة الجاز تفوح منها مع رائحة الشياط والخشب المحروق. محلات منهوبة فاغرة الأبواب، بعضها عليه عوارض خشب على سبيل حماية الخراب فيها، وبعضها متروك على حاله، الحيطان عليها آثار الحريق وعلامات بيضاء مستقيمة مكان الأرفف التي انتزعت أو سقطت، حطام السيارات هنا وهناك متناثرة ومركونة على الجدران، سواء، في الشارع أو على الرصيف.

الخسائر؟ تريد أن تعرف الخسائر على وجه الدقة والتحديد؟ قالوا إن

كل الخسائر التي وقعت علي المحلات العامة ستعوّض بالكامل. المحافظة ووزارة الأوقاف، حلّني.. مت ياحمار، لامؤاخذة يعني، وما الجدوى؟ «المحلات العامة» يعني إيه؟ ماذا عن المحلات «الخاصة» ماذا عن الخسائر التي أصابت الأرواح وضربت القلوب؟ هل تعوّض، هذه؟ كيف تبرأ، هذه التلفيات؟

أقرأ لك، ياسيدي، قائمة منشورة:

تكسير الزجاج والنجف وثلاث سيارات ١٢٤ و١٢٨، ١٣٢ وحجرة الغفير بكنيسة مارِ جرجس.

قلب وحرق ٥ سيارات ٥٠٤ خاصة د. ممدوح فؤاد. أشرف سعد. د. مجدى كامل. مراد دنيال. ماهر بهيج وسيارة ١٢٨ خاصة بالمستشار صموئيل ابراهيم وسيارة الدكتور طلعت فهيم طبيب الوحدة الطبية بمنشية دعبس في أبو قرقاص.

صيدليات حنا كيرلس وشاكر شكري حرق بالكامل.

صيدليتّان للدكتور ماهر جميل بشارع المستشفى تم تكسيرهما وسرقة مبلغ ألف جنيه.

صيدلية يوسف غطاس بشارع الجمهورية.

مخزن خشب ملك رفعت ناجي تمّ إحراقه بالكامل.

مصنع حلويات أسعد حبيب حرق بالكامل.

حلواني أنيس أمام الكوبري حرق بالكامل.

محل أزياء (فورام) حرق بالكامل.

ساعاتي مرجان حرق بالكامل.

محل إكسسوار يوسف شفيق حرق بالكامل.

مغلق خشب جميل عزيز حرق بالكامل.

مَقْلة ومَحْمَصة رضا تكسير الزجاج.

قهوة حبيب تكسير الواجهة

صيدلية. د. وليم تكسير الواجهة.

بقالة سعد باخوم تكسير الواجهة.

عطارة كمال عزيز تكسير الواجهة.

جميع لافتات المحلات والعيادات التي يمتلكها مسيحيون.

حريق كنيسة مار جرجس بشرق البلد.

قالت: وهكذا وهكذا، القائمة طويلة. هل يهمك أن تسمعها كاملة؟ سوف تستغرق وقتا. (سوف تستغرق ثلاث صفحات كاملة من هذه الرواية)

قال: كفاية. كفاية. أعرف الباقي.

قالت: طيب أقرأ لك من الآخر:

«أما الضحايا والمصابون في أبو قرقاص، فهم:

نشأت عبد السيد ثلاث طعنات في يده ورقبته.

فتحي فلتس ارتجاج في المخ.

حليم فهيم صدمة عصبية أدت إلى الموت بأزمة قلبية.

جبرة عيسى وأطفاله حروق من الدرجة الأولى.»

قالت: لي صديق مهندس، من أقاربنا، قال لي: («لن أنسى مطلقا في الستينّات الأستاذ منير حنّا مدرس الرياضيات في مدرسة نوسا الإعدادية ومدرسة أجا الثانوية وحبّه الذي كان يحيطنا به وتفقّهه في الشريعة الاسلامية ومباراته لنا وتسابقه معنا وتحديه لنا في حفظ سورٍ من القرآن الكريم.

ولن أنسى كذلك في الستينات عندما شرعنا في إعادة بناء مسجد الحي بقريتنا «نوسا الغيط» بمحافظة الدقهلية واستقدامنا لنجار مسيحيّ استوطن هو وأسرته قرية

«نوسا البحر» المجاورة وسكانها كلهم من المسلمين وعاشوا بينهم لافرق بين مسلم أو مسيحي وتم الاتفاق مع هذه الأسرة المسيحية لتصنيع منبر المسجد حيث كانوا يعملون داخل المسجد حتى يحين وقت الصلاة فيتركون العمل جانبا لتناول الغداء ثم يواصلون العمل بعدها. تلك هي سماحة الأديان التي بعث الله بها أنبياءه لجميع خلقه، فلا نحن تحرجنا من إدخالهم المسجد ولاهم ترددوا في تلبية رغبتنا ومشاركتنا العمل.

ولن أنسى الصداقة والحب الذي يربطنا بزملاء العمل من المهندسين المسيحيين المتدينين والذين لم يتحرّجوا من دعوتنا للإفطار في شهر رمضان في بيوتهم، ولانحن تحرّجنا من إقامة صلاة المغرب عندهم بعد الإفطار.

تلك ياسيدتي هي أخلاق الشعب المصري الأصيل والذي أراه متميزا عن كافة شعوب الأرض كلها، بلا أدنى تحيّز، بتدينه وطيبة قلبه وعرفانه بالجميل وتسامحه ولايخجل من فقره بالرغم ممايراه البعيدون أنه شعب قد أنهكته سبل المعيشة ولقمة العيش جرياً وراء حفنات من ريالات أو دولارات، ولكن هيهات فإن معدنه أصيل ويعتزّ بكرامته ويثأر لحرماته ويظهر معدنة النقي وقت الشدائد.»)

ليست هذه الحكاية نادرة، بل منها عشرات ومئات، من جانب ومن جانب آخر مكرورة ومشهورة أوشكت أن تصبح مملة.

قال : حكيت لك من قبل، كيف زرت عزبة ونيس في البحيرة، سنة ١٩٤٠، مع خالي ناثان. كان فيها عددمن عائلات الأقباط لايزيد عن خمس عشرة، عشرين، عائلة بالكثير. أما سائر أهل العزبة فكانوا مسلمين. قال لي خالي:والمسيح الحيّ ماكنا نحسّ بذلك أصلاً، مسلمين أو أقباط، لكن العزبة لم يكن فيها كنيسة. وذهبنا للعزبة، في صبيحة عيد القيامة، قال لي نذهب نعيّد على الجماعة، ونعزم عليهم للغداء معنا، من طبيخ ستّك

آماليا، طبيخ العيد بقى، وركب خالي حماره الأسود الضخم، وأنا على الحمار الأشهب الصغير. عندما وصلنا إلى مشارف العزبة، ودخلنا حاراتها الضيّقة، شكمنا الحمارين إلى خطوٍ مترفق وئيد، رأيت عم محمد عباس، بعمامته البيضاء النظيفة، ووجه داكن السمرة ولكنه صبوح مشرق وباسم، مازلت أرى أن سنّته الأمامية كانت ناقصة مما جعل ابتسامته، بشكلٍ ما، أظرف وأوقع.

كانت معه، ع الصبح، جماعة بهيجة سعيدة من أهل العزبة بالجلاليب النظيفة المزهّرة والمراكيب الجدِيدة التي تبدو ناشفة قليلا في الأقدام الضخمة غير المعتادة عليها، واللبِدَ البنّي والسوداء كاملة التدوير على الرؤوس الحليقة.

كنا قد ترجّلنا، فما يصح أن نظل راكبيْن، وسرنا وراءهم ونحن نمسك في أيدينا مقودي الحمارين.

ورأيت عم محمد عباس – خالي ناتان قال لي على اسمه فلم أكن أعرفه من قبل– يدور على أبواب الأقباط، واحداً واحدا، يقرعها بقوةٍ وفرح، ومعه جماعته، ويردِد: إخرستوس أنسْطِي، ويأتيهم الرد، بقوة وفرح، من داخل البيوت: أليسوس أنِسطِي، المَسيح قام، بالحقيقة قام.

ولم يخطر بذهني، عندئذٍ، أن ذلك مستغرب أو غير مألوف، كنت أعرف أن الفلاحين لاتعرف من شهور السنة إلا أسماءها القبطية المصرية القديمة، تزرع وتقلع وتجمع عليها، ويعيّدون الآن على جيرانهم بالقبطية: المسيح قام، بالحقيقة قام.

حكى لي خالي ناتان، يومها، أنه كان هناك يوم الأحد الذي فات أيضا، أحد الشعانين. قال إن أقباط عزبة ونيس كلهم، عائلات سيداروس

ورزق ونخلة وروماني وآبادير وولِسن وغطاس وفانوس وعازر وويصا وزخاري وفام وبباوي وقوس وسكلة وتودري، كلّهم كلهم، الشيوخ والكبار والأطفال، والنساء في جلاليب العيد الحريرية الملونة وعلى رؤوسهن الطُرَح الشفافة النسيج، خرجوا يركبون الحمير والبغال وفرساً أوفرسين أيضا في قافلة بهيجة ذاهبة إلى الكنيسة في قرية ميت وهيب المجاورة، على بعد عشرة كيلو مترات تقريبا، على الريّاح البحيري، يهزون سعف النخل الأخضر الوارف، مازال بعضه غضاً طريا يكاد يكون شفافّ النسيج، والصلبان، وشبابيك القدس، التي سهر الصبيان والبنات يخصفونها من الخوص، وهم يرنّمون ويصيحون: أوصنا يابن داود، هوسانا، هوسانا، أيها الداخل إلى أورشليم، قال لي خالي إن كل من كان يقابلهم في الطريق كان يستقبلهم بالبشر والترحاب وبالعبارات الحلوة في الطريق، قال لي إن أحداً من الأخوة المسلمين لم تصدر عنه عبارة نابية كالتي نسمعها الآن من أقزام أكل قلوبهم البغضاء والحقد الأسود.

منذ أيام قلائل، وبعد صمت طويل، قالت له بالتليفون: تعالَ، اشرب معي فنجان قهوة.

قال: لم أعد من رجال القهوة الآن، بالكاد أشرب فنجانا في اليوم، أنا الآن من شرّيبي الشاي.

قالت: ما كلّ هذا العقل..؟

ثم استدركت: هذا التعقّل.؟تعال ياسيدي أشرّبك شاي أو قهوة كما تحب. أما أنا فما زلت أشرب عشرين ثلاثين فنجان قهوة في اليوم.

أكان في إشارتها إلى التعقّل تحريضٌ على الجنون؟

قالت له : أذكر أيام زمان، وأنا راجعة من الموقع، عدّينا على ملوي،

في السيارة الجيب يقودها سائق الهيئة، حسن السروجي، تذكره من غير شك؟ الواد السالك المخلّص، الذي يدهن الهواء دوكو، كما يقال، كان يومها آخر شيك على سنجة عشرة، السويتر من بورسعيد على القميص الكاروهات والبنطلون الجينز، عاوج الطاقية- صعيدي،لا يمكن أن يخرج عاري الرأس، وناقص يغني غنّيوة.

منذ أيام عرفنا أن الإرهابيين في ملوى - في ١٩٩٥ إلى متى؟- ما زالوا يفرون، يهربون إلى الزراعات وعبر الطرق الجبلية، ومازالت محلات الجواهرجية، أقباطاً ومسلمين، تنهب وتستحلّ، ومازالوا يضربون بالرصاص.

هل تتقوض أنقاض المضض وتُفَض القضيّة.ضربة رمضاء لا تنقضي لكني لست مهيضا ولا منقوضاً. غموض الوضاءة تضارب الأضداد. الضواري تقرض حياض الضحى رضيخ الضريّ ومواضي العضب ضجيج البغضاء يرضّ أضلاعي والضباب يضمّني بقبضة ضارية أهضب بالغضب على ضعف مفترض رضواني ضرام أضرحة الماضي. أدحض الفرائض وأرفض الفروض أروض ضيقتي على الاستنهاض ونقض الغمض.

مازالوا بعد إخضاع الفضاء، قضافاً، ضحايا ضيم عريض، يقضمون الجعضيض يخضدون الغضا في وضر الحضارات وضوضائها، رابضين، ضامرين، يتضوّرون، لكنهم لا ينقرضون.

ضربت الحضيض بعد ارفضاض فيض الضباد المضمخ منك. رضوض أعضائي تحريض على فضيحة أنت ضالعة فيها. نفاضة تضيء في الضنى تتقبّض القضبان تغيض الرياض أضنّ بضياع ومضة من ضحكتك الفضيّة.

القباب السامقة ضارية القوة تصعد في داخل سماء النفس، خفيّة مع ذلك ومدفونة في الأرض.

سحابٌ يطفو، تحت طبقات التربة التي تلوح لي سقفاً عتيقا بل أزليّ القدم.

وحشةُ الملتقَى في ظلمة الروح.

ومع ذلك فإن الساحة المبلولة بالخضرة اليانعة يهمي عليها مطر هيّنٌ خفيفِ الوقع في غروبٍ هادئ، بينما الجبل الشرقي يحمّر قليلا ثم يدكن تضرّجه إلى كهبةٍ رمداء مقفرة الإيحاءات.

الجدار القديم الرمادي المنسيّ الذي مازال حياً ينبض، أمّا الداخل فهوعتمة.

أُرغن يوهانيس ايرجسون تمتد نغماته المِليئة عميقة الصدر امتدادَ ذلك السور السامق في إدفو حتحور مكامنه الغِائرة سدف التجويفات السرّية التي تتجاوب فيها أصداء ينفسح لها فجأة أفق نهاية النهار من غموض الصحراء إلى غموضِ الصحراء نعومة الخضرة في الزراعات الكثيفة التي تفور في جوفها جروح عميقة ملوثة تغيب ألوانها حفيف عيدانها الغاصة بالعصير ترنمه ترجيعات آخر سلّم الأرغن هذه الجلالة والبساطة معا توجعني هذا الحنان وهذه الوداعة في يديها الرخصتين ونهديها الهادئين هذا القبول التام في سموقه لانهائيّ الصعود إلى السماء هل هو قوطيّ الكبرياء أم هيروغليفيّ الشفرة؟كبرياء التنازل التام صرامة حبي عرامة شهوتي سطوة تسليمي خضوع تام هوسموق تام من أحدنا ومن الآخر سواءً قداديس الصنوج الفرعونيّ على تموجات جسدِها تحتي في ذروة النشوة في ليلة جنوبية سرّية وتردى الهبوط إلى حضيض هويّ أغوار الذات ليس بعدها من أغوار.

آه يا رامة هل انتهى العزف حقا؟

هل طوت أوركسترا الجسد غامض الوضاءة آلاتها؟

قالت (هل أنسى قطّ ما قالت؟) : «أُحبك أكثر مما سوف تعرف أبداً»

لماذا أريد أن أضع يدي على آثار طعنة الرمح، أن أطلب شراباً من خلّ ومرّ مع النبيذ الناعم الرقراق؟ لماذا؟

امتهان الجسد؟

تمرّ الحقب والدهور وما زال الجسد في العنفوان، كأنه هو محط الكرامة ومعقد عزة الروح.

الخوزقة والتشبيح والتصليب ورشق الرأس على الرمح وتعليق الأوصال وشنق المتمردين على البوابات عريضة الأحجار ورمى أجسام النسوان ليس عليها إلا اللباس الملوث بالدماء والإفرازات لتنقرها البواشق والحدأ إحراق الساحرات والزنادقة على الخشب المسجور بالنيران تصعد لِتلعق الأطراف وتعمي العيون بالدخان والبخور بينما الصلوات والقداديس تتلي كفّارةً واسترضاءً للرّب المنتقم الجبار قطع الرأس بالفأس أو الساطور أو السيف الحاد وتدحرجه من على النَطع مع التهليل والتكبير فسق الآباء بالبنات وبالأولاد أمام المرأة المهدودة الحيل في عشش الصفيح والكرتونِ التفريق بحكم المحكمة بين جسدى الزوج والزوجة مازالت الأجساد تطوى وتجوّع ويقذف بها من أرضٍ إلى أرض الهوتو والتوتسي والصرب وأهل البوسنة والشيشان الذين يرفضون الانضواء تحت جسد روسيا الأم المقدسة غازات «أوشفالد» وقبور الأسرى المصريين يحفرونها بأيديهم ليسقطوا فيها بالرشاشات والدبابات تحت نجمةداود مقاتل الأقباط والمسلمين معا، مصريين جميعا أولاد مصريين، في حقول صنّبو ومدارس ديروط الشريف.

الجسد الملتبس المهين الطعين مازال وضيئاً شامخاً مع غموض أوصاله.

ركام التاريخ نُصُب الراهن القائم أمارات على الآتي الذي كم أريد ألا يقوم أنقاض الحياة الآن تتحول إلى حطام التاريخ.

هل يُمتهَن الجسد وحده؟ أم أن الامتهان يضرب عمق الروح؟

هل فقدنا أثمن ماعندنا؟هل فقدنا جسده الذي كان رؤيا؟هل فقدنا جسد أبوللو أم يسوع أم الحسين؟

هل تريدين تغيير العالم، مازلت، رامة؟ أم انتزعت نفسك من قبضة أيدى الحلم العظيم الكسير؟ مازالت أطراف الحلم تنوشَ جسدَي، أعرف أنني لن أغير العالم، لا أسلّم بمعرفتي، أجد نفسي يحاصرني الحلم.

الجسم يتذكّر، الذراعان تتذكّران، الشفتان تتذكّران: حس الذاكرة أقوى. أي أفق هائل الانفساح فقدناه الاندفاع نحو تغيير العالمَ تغيير الوطن تغيير الجسد؟

ينهار الحلم الذي شاهَ واندحر، وتنطفئ النجوم.

لكن الحلم لايموت.

قال: يبدو أن هناك دائما قوة لا واعية هي التي تفكر، وتقرر، لي، في غيبة التفكير الواضح المنطقّي متصل الحلقات، يبدو أن هذا القابع جوايّ، تحت يملي عليّ أنواعا من التأجيل، والحيرة، وانعدام القرار، بل التوجس الفيزيقى والتردد على مستوى الجسم نفسه..

قالت: نعم، هذا أعرفه.

أكملَ: حتى إذا ما جاء القرار، عقلياً أم جسمانياً، بعد ذلك، يجئ ساطعا قوياً في غاية النضج والجلاء والإقناع، لايتخذ أكثر من خطفة برق لكي يثبت ويرسخ فلا قلق فيه ولا تسويف ولا نكوص.

قالت: نعم، وهذا أيضا أعرفه.

لماذا اليأس من التواصل إذن؟

لماذا اليأس من الوصول؟

كانت العربة الحنطور تنزل ربوةً رمليّة صخرية، يسوقها عم أحمد العربجي العتيد.أعرف – ولاأعرف تماماً– أن رامة بداخلها. ولكنني لم أكن قد عرفت رامة، لا، بل عرفتها قبل أن أعرف أيّ شيء، مَن هي؟ مرآتي في عتمة غدٍ غير كامل الوضاءة.

عجلات العربة المكسوة بحلقة، غير مشذّبة الحواف، من مطاط عجلات السيارات، تغوص في الرمل، ثم تخرج، تخبط بالأحجار والزلط، تصطكّ بصخر الربوة العاري لاتكاد تكسوه طبقة متقطعة ومتطايرة من الرمل الخفيف. الحصان الناحل قوي الصدر يهبط بقوة، والنيل يظهر تحت التلّة الموحشة، لايكاد يفصلٍ بين السفح الحجري وشط النيل إلا شقّ رفيع من غيط غلبت فيه، حرشات الجعضيض ونباتات الحلفا الشوكية متقاربة حادة السنان على زروع الملوخية الرفيعة.

رأى الثعبان الكبير يصعد برأسه، وعينيه الحكيمتين، من الغيط، جلده المرقّط واضح بحراشيفه الدقيقة في خطوط دائرية متعاقبة،لونها بين الأصفر المغبّر والرمادي الداكن، تضخم جسده فجأة،وضرب بذيله ذي الزعانف ماء الشطّ، بعنف، أحسّ الماء يطسّ وجهه، ساخنا. قال هل جاء؟

المراكب في النيل خاوية، مقبوضة الأشرعة،غابة من الصواري النحيلة، تبدو له كأنها راسيةعلى رمل الشطّ الذى يسقط، في جسر طينّي جاف مشقق، وعر المسالك، إلى المياه الحمراء إذ تهضب وتتدفق ولها

هديرٌ مكتوم.

كأنني، في محرّم بيه، في فناء كنيسة العذراء، ولكنها الآن في أخميم.

أخرج من القدّاس، أذهب إلى بياع الجرائد الذي فَرَش بضاعته أمام الباب الحديديّ الخارجيّ.

أشترى منه «البلاغ» و«اللطائف المصورة» وعليها صورة قطار عسكريّ إنجليزيّ نسفه ثوار فلسطين فخرج عن قضبانه وتطايرت في الهواء أجسام العساكر ملوّحين بأذرعتهم فاغرى الأفواه والعيون، في يدي فرع من سعف النخل المجدول، بينما بهجة عيد الشعانين في الداخل تصل إليّ بخفوت.

كأنما سمعتها تقول: أنت تعرف أن الطفل المبدول، يعني – أنت عارف– الذي فيه كيان آخر، لايشفى لايبرأ مس الغريب إلا بأن يوضع في قبرٍ مفتوح، ولكن معمور وليس جديدا، لم يدفن فيه أحد من أوّل شهر مسري إلى آخر شهر أبيب، اثنى عشر شهرا قمريا– مع أيام النسى، بالتمام.

والرجل المبدول؟ كيف يخرج منه الكيانُ الملتبس الغريب؟

فَمنْ هي التي قالت، من داخلِ عتمةٍ غير مستبينة؟

وكأنما سأل نفسه: هل كنت طفلاً مبدولا؟

وكأنما قال: العشق هو على الأغلب اشتعالٌ فيزيقي عابر وسريع الزوال، يحرق الكيان الغريب، يذيب شوائب الروح.

وقال: أما الوجْد، والغرام، فلعلّه حنينٌ إلى ما وراء الجسد.

وقال أيضا، مع بلديّاته ذي النون العارف بكل الآلهة: «أموتُ وما ماتت

إليك صبابتي، ولا قضيت من صدق حبك أوطاري».

وقال معه بعدذلك: «في حشايَ داءٌ مخامر لايريم، هدَّ مني الركن وانبثَّ إسراري».

ها أنني لا أطيق الكتمان ولا أطيق البوح في آن. وأعيش - هنا- على التخوم بين الظلمة والنور، في مملكة الأعراف، مملكة الظلال الرمادية، أنين الوجع وتنهدات النشوة في وقت معا.

«تحمَّلَ قلبي مالا أبثّه وإن طال سقمي ومكنون إخباري»

لكني لا أملك إلاأن أقول.

«ولاح إصباحٌ كنتِ أنتِ ظلامه»

ما أقرب النور إليّ وما أشد نأيه عني. طالما امتزج النور بالعتمة، ليكونا وقتا خارج المواقيت، طالما امتزج روحي بروحك - وأكثر- جسمي بجسمك ليصبحا من روح العالم، فإذا هما جسد واحد ملتبس.

قال: وما كانت صحبتي للشعراء والصوفية القدامَى، وشغفي بأغاني الحب المصرية، إلا نوعا آخر من ترميم جوانب الروح المنهارة، صقل للخشونة التي خلّفتها عوادي الأيام وتقلبات المحن على حيطاني من جوّه.

قال:أي عبث! فمافي صحبتهم ولافي شغفي- ولا في الترميم-من عزاء.هو جهد عقيم أريد أن أكفّ عنه، ولاأملك إلا أن أمضي فيه.

«من لم يَمُتْ في الحب لم يعشْ به،حديثي قديمٌ في هواها، ومالي مثْل في غرامي بها»، هأنذا أعود إلى التمثّل بالأقدمين. ألم نقل كلّنا هذا الكلام، وأحسسنا كلنا بهذا التفرّد الموهوم، نحن أهل الهوى «كلنا في

الغرام مافيش كده، مافيش كده»، أغنية بليت وما بليت جدّتها، كأنها تصعد حيّة فتيّة مشتعلة من رمادها المتكرر، رماد قلوبٍ قديمة الاَحتراق. فهل أنا ميّت أم حيّ، أصيل أو مبدول،على التخوم الغامضة الملتبسة دائماً بين العتمة والوضاءة؟ أسأل باستمرار، باستمرار، إلى حدّ الملل، وأجيب– إلى حد الملل أيضا–بأنني لا أعرف أن أجيب.

ما بين علّة الهوى وسقوط يده القاتلة مجدُ الرحمة وسطوع الحُسن وتوقُّد حبّة القلبَ الزاهرة بألسنة النار، والتوقُ إلى ماهو مستحيل.

قال: ياشيخِ.. ألست تعمل إلى أن يتم عندك هذا المطمح العزيز، أن تصل إلى نقطةٍ تفضّ فيها الأوهام؟

قال: مهما لجّ بي المسعى لا أصلِ. مازالت الأوهام–والكلمات الكلمات الكلمات – تخثّل روحي. ومهما حاولت الإفلات أو التملّص فإنها متلبثّة لاأعرف كيف أخلص. لا أريد أوهاما. أريد أن أبلغ نقطة انعدام الأوهام.

ها إنّ حِملْ دمي ثقيل، كماقلت.

فهل كان قليلاً أن نظرتِ إليّ – حتى– فكم بالحرّى ما عرفناه معا من صبوات العشق وأمجاده.

الآن وقد حَطّ النوى وشطّت الشقة وأحمالُ القلب رازحة، فهل إليك مِن سبيل؟

إنّا ألقينا عليك قولاً ثقيلا.

في الزمن الغابر، كانت تنتظر، بصبرٍ يوشك أحيانا على النفاد، أن يفرغ

من طقوس التواليت في الصباح.في مرّة قالت له: «طيب اعمل حسابي!» فارتاع قليلا، وقال: «ياخبر..لم أكن أعرف أنك تنتظرينني..!»

قالت له: عندما تخلص، تعال أفطّرك.

كانت الآن ترقد على الصوفا العتيدة، تحت صورة المولد، الحجر الأبيض العاري وراءها دافئ، نور المشربيّة منمنم بأرابيسك النقش الذي لا تنتهي موسيقيّة أنغامه، خرير الفسقية الصغيرة في الردهة الوسطانيّة خافت ومتراوح الإيقاع في ارتطام الماء الهيّن بالرخام، وشجرة القشطة عريضة الأوراق، مشرّجة الخضرة، عالية تظلل طرف الصوفا.

وهو جالس مستند بظهره إلى الحائط الحار، ساقاها على رجليه، ورأسها على مسند الصوفا.

تزحزح قليلا، وانحنى عليها، ودفن وجهه في دغلة شعرها وهو يمسّده بيده، بينما يده الأخرى رابضة على حجرها الذي أحسه يمتلئ وينبض، فعمّته الرائحة الحريفة بين جانب وجهها من أعلي ومنبت الشعر الوحف، يجوس بفمه، ببطء في نفث خفيّ من فوح البشرة الندية قليلا، حتى ينزل إلى الفم المفتوح يعبقه الذى فيه هبوةمن أثر عذوبة السكوتش المسكرة وحلاوة رضاب الريق، كم استطعم مذاقه وكم فاض بمناعمه حول انتصابه.

همست في بحّة غائبة: ماذا تفعل ياحبيبي؟

ردّ عليها من عمق العتمة الوضيئة، وقد عاد إلى حافّة وجنتها ومغرس شعرها:

– ماذا أفعل؟ أحبّك، فقط. أقول لك، بطريقةٍ ما، إنني أحبك.

قالت: أنا أيضا.. أنا أيضا.. أنا لك دائما، دائما.

حتى في غور نشوته خطر له، خطفًا: «دائما» كلمة كبيرة.. كيف يمكن الوفاء بها؟

أحاطت رأسه بذراعها اللينة القوية، أحسّ طراوتها وقوامها اللدن المتماسك على عنقه، قالت له: انتظر، انتظر أحكي لك عما حدث اليوم. لا، خلّك كما أنت، أحكي وأنت كما أنت.. أنا لا أكاد أراك في التفتيش، دائما مع العمال والملاحظين والمهندسين وصاحبك المعلم سيّد زهران.. لا، هذا طبيعي. ثم استأنفت، بعبارتها التي أصبحت الآن مأثورة: اسمع ياسيدي، اسمع يانور عيني، خد عندك:

«تمكنت شرطة السياحة والآثار، وقسم مكافحة المخدرات ببني سويف من ضبط فلاح وبحوزته ١٨ تمثالا من الآثار الفرعونية النادرة وكمية من المخدرات والأحجار الأثرية الكريمة وأحيل إلى النيابة للتحقيق.

وكان اللواءان أحمد حلاوة مدير شرطة السياحة والآثار وحسن رشاد مدير أمن بني سويف قد شددا على تتبع لصوص الآثار وتجار المخدرات في الوقت الذي أكدت فيه تحريات العقيدين صلاح زيادة رئيس مباحث الآثار وسيد مختار رئيس مباحث المخدرات والرائد أحمد زغلول بإشراف العميدين السباعي أبو الليل مدير المباحث ومحسن خفطى مدير مباحث السياحة قيام أحد المزراعين ويدعى محمد أحمد شديد، ٤٥ سنة، مسجّل سرقة آثار ومخدرات بالاتجار في الآثار الفرعونية النادرة.

وأضافت تحريات العقيدين حاتم عثمان رئيس المباحث وأحمد

زغلول رئيس مباحث الآثار أن المتهم يحوز كميات هائلة من نبات القنب الهندي المخدر وطرب حشيش. وبعد استئذان النيابة تمكن الرائد إبراهيم كمال من ضبط المتهم وعثر بمنزله على تابوت خشبي يرجع للعصر الفرعوني و ١٨ تمثالاً أثريا نادرا وكمية من الأحجار النفيسة منتزعة من مومياءات ملكية، ومنها حجران من الزمرد يرجح أنهما من مومياء لأميرة فرعونية اكتشفت حديثا، كما تم ضبط كمية من الحشيش والقنب الهندي فأمر المستشار ناجي عبد العظيم المحامي العام لنيابات بني سويف بحبسه»

قال، دون تعليق: أنا عطشان. اسقيني يارامة.

نهضت وصبّت له ملء كأسه، شعشعته بالماء المثلج، ومكعبين فقط من الثلج. قالت: لم أنس. ماء، واحد لواحد، مع خرطتين اثنتين ثلج.

وكانت عيناها محتدمتين وهجتين، كأنما عادت إليهما وقدتهما اللازوردية، خضرة البحر المشتعلة القديمة.

ظَمَئي إليكِ كظَمَئي إلى حقيقتي، لا أعرف سبيلا إلى انطفائه.

في هذه الأيام الممزّقة التي يملأ فيها وجه المأزق كلّ إطار العالم: مأزق قصور الكلمات، وذبولها، وعقمها، أعرف أنه ليس مأزقا شخصيا فحسب، ليس أزمة خاصة. كم يبدو ضجيج موسيقى العالم، وشعر الدم المسفوح هدراً، كله، فضولاً وتزيّدا بلا معنى ولاجدوى.

لكن الصمت أيضا جدير بأن يحطّم جدران القلب.

فليتحطّمْ يا أخي!

ما الذي يبقى – ماالذي بقي دون أن يتهاوى وينقضّ؟

أحس أن انحسار المحيط قادم، وأن الصمت له الكلمة الأخيرة. فهل معنى ذلك أن نضوب المحيط وانحسارعبابه ليس له تلاطم الخضمّ الذي يضّم مسامع السماء؟ وهل معنى ذلك أن الصمت، نفسه، ليس له كل هدير الرعود ودويّ هزيمها؟

طبعا لن ينكشف رملُ القاعِ في المحيط، ولاصخرُه القديم أمام عين الشمس القاسية المجهدة. أبدا. ثبجِ المحيط لاقاع له. وحتى صمت حبّى يملأ أطباق الأرضين وأجوازَ العلا بقعقعة موسيقى الزلزال. شوقي إليكِ من غير تضوب.

فاضت بي فيافي الفقدان فريسةَ الفُرقة كم أفتقد دفء إلْفك هاقد أفْرِغ فؤادي أفوت من نفيٍ إلى نفي في الفراش كانتِ فهود فرائصكَ تفترسني farouchesلهفي إلى معرفةِ خفاياك صفقة فاوستية أم فرض لا مفرّمنه؟ انفصامك عني أفناني عزيف عواصف الفجيعة فريضة فرقاني سفاسف الفواصل بيننا تفوق أفهامي أطرافك الفينانة تحف بي فيالق لاوقفة أمامها عرفت ترف الفراديس في أفوافك ترشّفت أفاويق فمك المفتوح يتلقف تدفقي الدفين ما شفائي من fardeauفادح تنقصفَ له فقراتي فقرةً بعد فقرة في فرقعاتٍ وتفاريق حتى فنائي هل اقترافي الفرح بمفاتنك يفضي بي إلى حافّة مخوفة المفازع؟ تلفي فيك سرف وفضيحة أوصافك لاتفرغ الفيروزتان من طرفيك الفارهين فناران في مفازات فانتازياتي رهف عزف فتوحك fredonnementرفّاف انفلق سفين عرفاني فألفيته s'effondrer في خفاء فروع شجرتك ملفوف بهارؤوس النمور والكباش والوعول الشجرة السامقة تَسحيل امرأتي المجنحة المرفرفة في عنان السحاب تسفّ فإذا بها غزالة قيس الذي قال لها: «إليك عنّي، ليلى، فإنني مشغول عنكَ بلك آناء الليل وأطراف النهار» المهَا الخرافية تطوف في قفار أوهامي المحرقة لا أفيء

فيها إلى ظلّ ظليل دمي مسفوحٍ على سفح خصرك وعلى رُبى ردفيك هل أجد على هذه الأرض أو بعدها نصفةً من حيفِ عينيك أو طغيان فتونكِ؟

كانت نعومة وجهها بإزاء وجهه مثيرةً ومهدهدة في وقتٍ واحد، وكانت عيناها شبه مغمضتين، تحته، في ترقُّب نشوةِ اللذة، وكانت وجنتاها مضيئتين— نعم، مضيئتين – بغموض.

قال لها: عندما غنيتِ لي غنوة السَبَان، وقلتِ: والتالْتَه لغريبْ حفضتُه باسمَ الله أحسستُ أن غربتي قد ارتفعت عني وطأتها.

قالت، فيما أحسَ أنّ ثَم شبهة سخرية خفيفة أو لعلّه استغراب طفيف، أودعابة، وهي تتساءل بنوع من السهوم:

– تقول إنك عرفت أنك انتَ الغريب المحفّض باسم الله...

هل كان اعترافه بأنه «غريب» قد أحزنها قليلا فدفعها إلى السخرية؟ لماذا سمّى نفسه غريبا؟ألم نكن أقرب الناس إلى أحدنا الآخر؟فلماذا الغُربة؟

قالت، بصيغة الفعل الماضي: كُنّا قريبين جدا.

عاطفيٌ أنا في خبيئتي،سنتمنتاليٌ بأسوأ المعاني. مازالت مشاهد الحزن المصنوع بإتقان في السينما أو التليفزيون تصعد بالملح إلى عيني، تذيب على الفور قشرة التصلّب – لاالصلابة– التي أحرص عليها.الأفلام الرثّة، الأغاني الرثّة، والقصص الرثّة تبكيني، تحيلني ضعيفا هشاً بلا مقاومة. أعترف بهذا لكِ وحدكِ، لماذا أستطيع أن أخلص بكل ما نفسي معك وحدكِ؟ أجدهذا الخلاص الخام الصافي، أما في الحياة –وفي العمل، وفي الشعرِ (أحيانا أنا شاعر)– فأنا أضع هذا السعي نحو الخلاص – كما لابد أن

يحدث - في إطار معين، وسياقٍ معين، مشذّب، محكوم في داخل بنية- يعني- تمليها هذه الضرورة، ترميم المنهار، استعادة الماضي حتي يصبح راهناً قائما، في هذا العمل نوع من الخلاص المركّب - هل يقولون «المبنين» ؟- المندرج في بنيانٍ ما، حتى في فكره، وتوشيته وتخليصه من شوائب الشيء الخام الأصلي. كم مرةقلت لك إن خلاصي على يديك وحدك، لم تصدقي، وتخاذلت أنا، هل عليّ أن أنفذ «خلاصي» وحدي؟ أم أنه - في النهاية- لا خلاص ؟لا خلاص.

السؤال المعذّب أيضا: هل كان في هذا التخاذل مني وسيلتي لكي أغرق نفسي في «العمل» ؟ هل أضع العمل- الفنّ- بكل قيوده، وتطلباته القاسية، فوق حرية الخلاص ونعمته؟ هل كان من الممكن أن حيلتي في التخاذل والنكوص، والقصور عن الخلاص الشخصيّ وسيلة خفية- وقاتلة- من أجل خلاصٍ متوهَّم في الحياة في العمل، في الفن؟ وهل كنت تعرفين ذلك، ومن ثمّ قبلت هذا النكوص مني، بل دفعتني إليه دفعا؟ ثم في النهاية، أين هو هذا «العملَ» وقد أفنيت فيه العمر؟ لست أعمل، ولست أحب. هذه أيضا ستمنتاليّة ؛ أيضا. على الأقل لم آت أبداً ما يعدل -أو حتى يقارب أيّ اقتراب - ما عرفته،وما كان يمكن أن أعرفه معكِ من حياة.

أعود إلى عاطفيّتي (الرثّة) فهاهي ذي الحياة تنقضي أيضا، محبطة، غير متحققة، ،وقاصرة جدا. ما صنعته من حياة أو من فنّ شيء زهيد، زهيد جدا (على الأقل) بالمقارنة بما حلمت أنّ أصنع، أكاد أسقط الآن هذا الحلم من يديّ، فماذا أصنع على أى حال، من حياة أو من فنّ؟ أترميم المتساقط، أبعث المنقضي؟ أنت ستغضبين من هذا الكلام، لعلّك ستجدين فيه قليلا من الصدق، وربما كثيرا جدا من «اتخاذ مواقف» يعني وربما كان لك الحق في هذا. المهم أن فيه صدقا ما، بلا شك. هذا أمحضه لك القول خالصا، وأريد أن أنفي عنه كل شبهة «لاتخاذ المواقف» وكل

مايشبه ادعاء. ليس هذا في نيّة هذا الكلام على الإطلاق، حتى إن اتخذ شكله، حتى إن بدا فيه ذلك، على الرغم منه. ألم أقل لك إنني لا أعرف كيف أكتب، ولا كيف أتكلم؟ ، ولا كيف أعرف.. كل ما أعرفه أن أحاول هذا كله، جهدي، بكل جهدي. وطبعا، أخيرا وليس آخرا، لا أعرف كيف أحب. لعلّني أحب الحب نفسه، بشكلٍ ما، وعلى طريقتي الخاصة، ولعلّ معرفتي الوحيدة أنني أحبكِ.

لم يكن من عاطفيته – رثة أو غير رثة– ما حدث ليلة أنْ قالت له، على غير انتظار، إنها مسافرة من الغد، في رحلةِ تفتيش مفاجئة.

كانا في استراحة دهشور. كان قد انتقل في الليل إلى «جناحها» يعني الجزء الخاص بالست المفتشة من الاستراحة المبنية من قسمين بينهما ممر مسقوف. وكانت أم برهوم قد أعدت لهما العشاء –كلاً على حدة، في «بيته» لوحده، وقالت تصبح على خير يابشمهندس، وخرجت من عنده، أقفلت الباب وراءها، وقالت باللهجة نفسها وبالصوت نفسه تصبحي على خير ياست رامة. وكأنما كانت تعرف أن ما بينهما لايقف دونه حاجز ولاباب.

أخذ عشاءه وذهب إليها.

أغفى على سريرها بعد سكْرة الحس والروح التي تحققت ليلتها، قرب الفجر، وسيقانهما متشابكة متواشجة، كأنهما كيان واحد متعدد الأطراف.

تيقظ فجأة في غبشة الفجر الصعيدي الرماديّ بأنفاسه العذبة وذلك الهدوء الذي يكاد يكون ساحقا، وجد أنها قد أخذت مخدتها وغطاءها ونامت على الكليم الأسيوطي. كانت مستغرقة في غيبتها الخاصة، بعيدة جدا

وجميلة جدا، لاتُنال، لاأمل في الوصول إليها، أبداً.

عندما تمدد بحرص إلى جانبها، فاجأته الدموع.

هل كان يبكي الفقدان الذي يعرف أنه سوف يجيء؟ هل كان يبكي السعادة والفرحة والخلاص التي لا وصف لها والتي عرفها معها وعرف أنها لن تتكرر أبدا؟

قال لها: حكيت لكِ هذه الحكاية، من قبل. أنتِ طبعا عرفتها.

قالت: لم تحكها. لم أعرفها. أنا عشتها معك.

قالت له عندئذ، عندما استيقظت فوجدته بجانبها:

– يقطعني. بعد هذا الحب كله، أصحو على دموعك ياحبيبي؟

لم يستطيع أن يوقف الدموع. كانت تنسال، بصمت.

قالت: ألأنني قلت إنني مسافرة غداً فجأة؟ ياحبيبي المرّة الجايّة لا تأخذ كلامي مأخذ الجِد. لاتصدقني كل مرة، لاتصدق كل ما أقول. لاتبكِ مني، بل ابقَ اسخرْ مني– قليلا وحياتك، لا تذهب إلى آخر الشوط يعني– ابق هاجمني مثلا، لاتتردد أن تقول لي: بطلّي نزواتك وشطحاتك! لكن لا أستيقظ على دموعك، بعد ليلة حب، بكل مافيها!

– كيف سمحتُ لنفسي أن تريني أبكي؟

– وهل تتصور ياحبيبي أنه لايصح أن أراك تبكي؟ هل أنا أحب طرزان مثلاً؟

بعد ذلك، كانت دموعه التي يُخافِت بها جدا، يجهد أن يكتمها

تماما، يبلغ في ذلك أن يردّها وأن تعود إليه سيطرتُه على نفسه بعد لحظات. لم تكن تريه أنها لاحظت شيئا، لم يكن عندها أي رد فعل، كان الصمت–ومايبدو أنه اللامبالاة التي تشبه الإدانة –هي القناع الذي تحتمي به أو الدرع التي ترفعها أمامه.

عندئذ كانت الدموع – مثل الموسيقى – حَدَثاً في ذاته، ليس له إيحاءات، وليس إسقاطا على حالات، بل هو مجرد فعل موضوعيّ له بنيته الخاصة المغلقة على نفسها، هي كالموسيقى شيء خاص بصاحبها وحده.

ما كانت «مراثي إرميا» تدفعها إلى الدموع بل كل قصارى الموسيقى أن تحلل صياغاتها العضوية بين مقوّماتها بعضها بعضا.

يوم أن انتظرتُ وصولها بالقطار إلى المنيا، كانت «عاطفيّتي» تلك متضاربة التيارات، الانقباض، وما يشبه اليأس من أنها لن تأتي، قلت لن أذهب للقائها في المحطة لأنها ببساطة لن تأتي، لأن الحكاية كلهالا أساس لها من الأصل، هي لم تعد تذكرني، لم تسلّم علي حتى وهي مسافرة منذ شهر ونصف، كانت في المنطقة، الموظفون حولها وهم يودعونها، المدير العام قدري بيه عبد الفتاح، تنازل – يعني – وجاء ليسلم عليها. دخلت فكأنها لم ترني. قلت هاهي ذي من الآن نسيت وجودي نفسه، كانت هي التي بكت بالأمس بكاءً مرا، انهمرت دموعها فجأة غزيرة مدراراً بشكل لايصدّق، طوفان من الدموع ألجَمه وشلّه عن أى كلام أو أي فعل، قالت إنها لاتستطيع أن تلحق به في الواحات – كما كانت قد وافقت من قبل – قالت إنها لابد أن تعود للقاهرة لكي ترى منَال، كفاية، لايمكن أن أتركها كل هذا الوقت، لا أستطيع أن أتصل بها، ماذا أفعل؟ لابد أن أعود، وتركته يذهب إلى الوادي الجديد – مهمّة معبد هيبيث – وحده، كان قد علّق على سفرها معه أحلاماً متفجرةَ الازدهار.

عندما مدت إليه يدها، قبل سفرها للقاهرة، كانت مازالت تتكلم مع أحمد، تنظر إليه في عينيه، كما تفعل أحيانا مع الرجال فيجن جنونهم وتركبهم الأوهام، ثم استدارت وابتسمت إلى قدري بيه الذي جلس، بجلالة قدره، على كرسي في الصالة الرئيسية للمنطقة، لم يستدعها إلى مكتبه بل جاء إليها مع سائر الموظفين، قلت أحسست الأرض تميد بي- أليس هذا مايقال عادة؟ -لكني أحسستها بالفعل - الأرض - تهبط تحتي، بل كأنني لم أعد أحس بنفسي، لم أعد أعرف من أنا، قلت لم تكن قد نسيتي فقط، بل لم تكن في أي وقت تؤمن بي. قلت: لماذا تؤمن بي أولاً، من الأصل؟ من أكون لها حتى تؤمن - أولا تؤمن- بي. هل كان كل ذلك شعورا بالعطف منها، أو ما يقاربه؟ لن أحتمل هذا أبدا، لا أطيق حتى أن أتصوره، لكني أنظر إلى الواقع في عينيه دون حول ولا مواربة، لم يكن الأمر إلا أنها رأمتني فقط، هذه هي كل الحكاية، قلت.

وقلت: دائما الحكايات تشي بعدم حقيقة هذه العلاقة.

كانت تقول له: احكِ لي حكاية.

فيرد: ولكني لا أعرف أن أحكي حكايات.

فتقول ببساطة، وحبوط، وقبول أيضا: طيب.

كانت تسلّم دائما أنه لايعرف أن يحكي حكاية، كما لو كانت معرفته بأن يحكي دليلاً دامغاً في يقينها على أنه يحبها حقا، على أنه قادر على أن يخترع لها حكاية حتى لو لم يكن يعرف. مجرد رفضه- أو عجزه- عن أن يبذل هذا الجهد- جهد أن يخترع لها حكاية، جهد أن يروّض نفسه على مشقةٍ -هي بذاتها متعة- برهان على أنه لايحبها ولايريدها.

كما كان ذلك الشأن في أنه لايذهب إليها، بل هي التي تذهب إليه،

على عكس المعتاد في مثل هذه الأحوال.

قال: أيُّ شيءٍ معتاد في مثل هذه الأحوال؟

كأنه -في تصورها- لايريد أن يتجشم عناءً في سبيلها.

كأن في ذلك دلالته التي لاتُدحض.

كانت لاتريد أن تستسلم للنوم، كأنما لاتريد أن يسرقها منه النوم، كأنها تستخسر أن تضيع منها ساعات الغيبة عنه حتى وهي في حضنه، تقاوم النوم إذن. تتشبث به، بيقظتها معه، وترى في مقدرته على الإغفاء بعد الحب دليلاً آخر على أنه لايريدها بالقدر الكافي.

قال: ماذا يمكن أن تَطْلُب منها أكثر من ذلك؟

وقال: طلبُك المستحيل يكاد يدخل في نطاق غباءٍ غير متصوَّر.

رآها، مرة أخرى، في قاعة الاجتماع مع قدري بيه ونائبه ومديري الفروع ورئيس البعثة البولندية ونائبه والمسؤلين في المنطقة.

كان قدري بيه عبد الفتاح غارقاً في جسمه الضخم، المِروحة الكهربائية الكبيرة الدوارة في السقف تدور بأفرعها التي لاتكاد ترى من سرعتها، بصوتِ وشيشٍ منتظم، تقلّب الهواء السخن. يبدو المدير العام غائباً عن الاجتماع، هو أحياناً ينفض رأسه في إيماءةٍ تشي بأن النوم قد غلبه لحظة، تكاد عيناه الجاحظتانَ قليلا أن تغمضا، ثم إذ هو يقاطع رئيس البعثة البولندية الذي يتكلم بانجليزية علمية ولكن ليس فيها أي نحو، يكسر كل القواعد النحوية دون حرج، ولكنه ينقل فكرته أو تقريره بوضوح خطِّي، قاطع، وبالمصطلحات العلمية المضبوطة تماما، وجهه الطويل ناتيء العظام ينتهي بلحيةٍ مخروطية شقراء يشوبها شيب متناثر يعطيه سمت العلماء حسب

الصورة التقليدية- ياروجي عليه راجل كُبّارة لكن عسل، قالت له مرّة- تؤكد هذه الصورة صلعته الكاملة اللامعة بندى عرق خفيف، وتتناقض مع الصورة ملابسه غير التقليدية، قميص كاكي فضفاض فيه قَطْع صغير من الجنب يظهر منه جلد صدره شاهق البياض، بعكس وجهه المحمرّ الذي لفحته الشمس، وإذْ بقدري بيه يتكلم في صلب الموضوع- بعد أن بدا كأنه كان نائما- وكأنما كان يسمع كل كلمة، ويلخّص اقتراحاته على شكل آراء مطروحة للمناقشة، وإن كانت في الحقيقة قرارات نهائية قد استقر عليها مع مساعديه قبل الاجتماع، وضمن بذلك نفاذها في نهاية الأمر.

كانت – على غير عادتها – تلبس قرطاً طويلاً أخضر يهتز ويُماشي لون عينيها اللازوردتين، وكان يرقبها وقد خدرت حواسه قليلا وشرد انتباهه عن الكلام الرسمّي والتقارير التي تقال بكل جدية تلوك وقائع أو تصورات يعرفها هو من قبل- كما يعرفونها جميعا – حق المعرفة، سمعها وناقشها وجادل فيها مرات عديدة، هذه الموضوعات التي تعود الآن على مائدة الاجتماعات لكي تسجل رسميا في محاضر سوف يوقعون عليها المرة القادمة، لمجرد إبراء مطالب الشكليات، ولكي تحفظ بعد ذلك في أضابير الأرشيف. ما الذي ينفذ فعلامنها؟ أقل القليل.

كانت تنظر اليه – هي أيضا تعرف كل هذه الموضوعات، ليس فيها من جديد عندها- تحدق إليه بعينيها الواسعتين الخضراوين اللتين يموت فيهما حبا، لكنها لاتراه حقا، ترمقه كأنها تلقي بنظرها إلى ما وراءه، كأنه شفّاف أو كأنه لايوجد من الأصل، تمد يدها إلى شعرها وتعبث فيه ببطء، بحركة كأنها غير مدركة، وهي مع ذلك تتابع كل كلمة تقال، وتتدخل في الوقت المناسب لتقول كلمتين مناسبتين.

ها هوذا رأسي على طبقٍ مشتعل، هل اجتزّته رامة أم أنا الذي قدمتُه

طوعاً للذبح؟

هأنذا أرى رأسي في الطبَق المشتعل– في وسط الاجتماع– أراه وهو مجتثّ بحزٍّ مصقولٍ نظيف الدوران. أراه مع ذلك، من خارجه.. عيناي تريان الرأس المقطوع، وهما مفتوحتان تنظران إليّ من هذا الرأس المقطوع نفسه.

تريان رسالة لا أستطيع أن أفسّرها.

هأنذا قد قطعتُ الصحارى الشاسعة في وقْدة الشمس وفي بهرة القمر، وفي العتمة الدُجيّة وفي سطوع الوضوح، فهل وصلت إلى الحافّة؟ هل أصل إلى أفقٍ مخايل لايغيب ولكنه لايأتي أبدا؟

هل أنتِ حافّة أفقي؟

هأنذا عاري العظام.

الفصل الثامن

قناع الأبنوس الأسود

كان الماء – والفرح – يغمرهما، في حوض البانيو الملئ.

وكأن الجسم الدافئ قد اتحد بالماء الدافيء وهو مع ذلك يحتفظ بقوامه وتماسكه، ويؤكد،في الغمر المحيط، وجوده الخاص. يترقرق الماء على حركاتهما المتهللة المستمتعة. للتلامس الحميم صوت سيّال، له طبطبة هينة من تلاطم ليّن رفيقٍ، ومذاق آخر شائع ومتحدد في وقت معا.

سكك الشهوة لامسدودة ولاهي براح.

حورية البحر مهرة النيل القديم يترجرج الماء حولها– وحولي– ويطفو نهداها، بخفة كأنما قد فقدا ثقلهما وإن ظلا قويين نافرين قوامهما مليء ونضر البشرة وناعم. ثمرة النبق العنبة السوداء قد توترت وبانت فتحتها الدقيقة حادة كأنما تفتقت عن عصارة مكتومة على وشك الاندفاق. أما الزهرة الأرجوانية النهمة فقد قامت واشتد عودها، متطلبةً تلبي النداء.

مغمور في هذه العصارة الشفافة من الحياة، متورط حتى العنق فيها.

يهمي الموج الطفيف على استدارات الكتفين الشامختين وينسال على الخصر الهضيم. كيف يحتمل هذا الخصر الضيق المسحوب روعة مجد الصدر؟ أما الردفان فهما راسخان على أرضية البانيو العاجيّة المهتزة إذ تتموّج، وقد التفّت السيقان الأربعة بعضها ببعض، كأنما هنا كيان مائيّ واحد متعدد

الأطراف يجوس ويتلوى ويتمدد ويعتصر نتوءاته الجسدية الداعية التي لطّفت الرقرقة حوافّه الرخصة ممسودة البطن مبتلة وطرية. يحس أوصالَه، في هذا الكيان، تتحلل وكأنما السائل الدافئ الساجي قد أصبح أكثف بمادة الجسد.

الآن يصدّى إليها.

هل انقضَى ذلك كله، حقا، انقضى بغير رجعة، انقضَى فعلا؟

أهذا هو السؤال الذي يردّده الواحد عندما يموت؟ والإجابة هي هي، محتومة ونهائية. نعم. انقضى. ذلك كله قد انقضى.

القناع الأبنوسيّ ينظر إليّ، بجفنين مثقلين بالألم والعزم، شفتاه ملتويتان في طيف ابتسامة بعيدة عن دنيانا لكنها صادرة عنها، طافية على غمرها بعد أن كانت غارقة في مياهها.

قلت لسامي: راودني قناع أمنمحعت الثالث منذ طفولتي.

قلت: وأنا، ربما، في الحادية عشرة من عمري نعم، أعرف الآن أنني كنت في الحادية عشرة، في فترة الظهيرة، عندما تآوي أمي إلى نوم القيلولة القصيرة، أنزل بعد أن أوصي أخواتي ألا يقفلن الباب ورائي بل يتركنه مواربا حتي لأدق عليه عندما أعود. أجري حافيا على شوارع الأسفلت النظيفة الساخنة قليلا. الشبشب تحت ذراعي، وجلابيتي تطير معي عبر شارع راغب باشا ثم شارع صلاح الدين، حتى أصل إلى مبنى كومبانية النور حيث يفرش بائع الجرائد مجلاته القديمة على الرصيف، أشتري - أو أستأجر- الأعداد القديمة من المقتطف والهلال. وأعود بكنزي الهشّ الثمين، جرياً. صورتة مقتطعة من «الهلال» بالروتوغرافور الأزرق. قوة النظرة - الآن كما كانت عندئذ، ومازالت- في القناع الأسود، عمق الأبدية لاقرار له، ضربة المطلق التي لاوقاية منها.

هذه النظرة نادتني. لم أستطع أن أقاومها.

في أحد شوارع كوناكري التي كانت قد تحررت من الفرنسيين منذ شهور قلائل، العربة الكارّو- مثل ماهي عندنا في حواري الاسكندرية- لكنها الآن مكدّسة بالأقنعة والمنحوتات من العاج والأبنوس.

فهل كان القناع الأسود يترصدني، منذ ١٩٦٠ ؟

يعرف أنني ضحيته، شاهده، وقاضيه، الاتهام والدفاع معا، في محكمة متصلة لانهاية لنظر قضيّتها، بينما الحكم قد صدرمن قبل.

طول عمري عشت على رحمة الغرباء.

أو هكذا ظننت.

ألسنا كلنا كذلك، غرباء وأحيانا رحماء؟

القناع ليس بغريب ولا برحيم، حتى من وراء قسوة اختيارٍ كأنه حتمٌ مفروض عليّ في الوقت نفسه.

كان حول العربة الكارّو في الشارع الرمليّ الخالي تقريبا، ثلاثة، أربعة، منا. في الصبح الذي بدأ يسخن ويتطاير ضبابه الخفيف على سماء سوف تصبح بعد قليل لافحة محرقة، حولنا بيوت صغيرة من دور واحد، على طرازٍ يشبه الطراز الريفيّ الفرنسي لكنه أفريقيّ، البيوت ضيّقة صغيرة، السقف بالقش المتكاثف الملبّد تتدلّى بعض أطرافه الشعثاء على الحيطان المصنوعة من الطوب النيئ الرماديّ المحمرّ قليلا، والأبواب مفتوحة، وفي الفناء الصغير المسوّر أدوات الطبيخ معدنية وفخارية وصفائح فارغة عليها رسوم باهتة لنمور حمراء. دجاج، ماعز، بطّ صغير يتدأدأ، أصواتها ثاقبة شاكية

ومتنافرة تصطدم بأسوارٍ مفروضة عليها، وغريبة عنها.

كنا نقلّب في التماثيل الخشبية والعاجية المكوّمة على العربة الكارّو، متراكمة، متمددة بسيقانها مفرطة الطول ورؤوسها المخسوفة إلى مثلثات مجردة، أذرِعتها متلوّية كأنها أخطبوطات متصلبة الأطراف، حول خصور رفيعة كالإبر.

الفنان يقف على رأس العربة، كأنما لاصلة له بمخلوقاته الغريبة التي صاغها من أشواق أحشائه وابتعد، صامتاً لأنه لايعرف إلاّ لغتها، فخوراً ومتعاليا تحت مظهر الدعة الكاملة.

نظر إليّ القناعُ الأسود.

عرفني، عرفته، كنا ننتظر أحدنا الآخر. لكن لقاءنا لم يكن فيه فرح بل رهبة. كان لقاءً محتوما، فقط.

قالت لي: الخواء، الفراغ الأساسيّ في مركز حياتي. فجوة لم يملأْها أُحد، ولاشيء.

قلت: لاشيء؟ لا أحد؟

قالت: مع كل الحب الذي غَمَرَ حياتي، أكثر من مرة. حتى أنتَ. مع كل شيء، ظلت هذه الفجوة فاغرة.

كانت عيناها بعيدتين.

– وستظل فاغرة. من غير تحقق، لن يفي بالوعد الكامن شيء.

–أليس هذا أيضا اختيارا؟

قال: مع التورُّط في الحياة، بل الاندفاع في غمراتها وتقلباتها، مع سعي متصلٍ إلى التكشّف والاكتشاف، مع تلقّي الضربات وأيضا تسديدها إذا اقتضى الحال، أليس هناك تخلّ أساسيّ، واحتماء به من وراء قناع، في نوع من اليأس؟ ألم يكن هذا- من جانبي أيضا- فراغاً في مركز عميق، وحشةً في مقابل وحشة؟

هذه العلاقة كلها تجري بأدوارها المضطربة أو الساجية سواء. في نوع من الغَسَق، عتمة الحيطان الدافئة (علي الأقل في بعض الأحيان دافئة، وليست ضاربة البرد ولاعالية جدا) سريّة الحب سريّة المحبة سريّة المعرفة. احتجاز شمسٍ سريّة، انقطاع نسيج سماءٍ سِرّية.

القناع الأسود جامد لايجيب.

قناع من الارتداد الجهْم، عيناه نافذتان مفتوحتان ولاقرار لهما، يأس لعلّه لايدري بنفسه، نأى بنفسه عن دنيانا الحافلة المزدحمة بالحيوات، بينما الماء متموج ساخن من نور السماء، نور عينيها.

قال لها وهي تنحني عليه بكل مباذخ جسدها الغضّ الوثير:

— مع الانغماس في غمرات الحياة، ومجالدتها، المتعة بها، والألم، هناك دائما قناع الارتداد، قناع التخلي،قناع الرضَى بالحرمان.

لم يكن ثم عَوَز وهو يمسُّ بشفتين هادئتين —مرتجفتين قليلاً— نبقة نهدها المليء وهي تبوسه، بخفة ومداعبة، كأنما لتعدِل — توازِن أو تصحّح — كلّ قسوة مايقول.

قال: مع ذلك، أيظل قناعا؟ أم أن القناع يصبح هو الجانب الآخر غير المنفصل عما يخفيه؟ من الجانب الآخر للقناع ملء المتاع. أيصبح الستر

انكشافا، والحجاب رؤية؟

قال: أتعرفين، أتصور أن ابراهيم عندما سمع صوت الله وقدم ابنه للذبح، في تقواه، إنما هو قد تخلّى عنه، تركه لله، كان هذا هو التخلي الذي جاء رداً على تخلٍّ آخر، عندما ترك الله آدم يأكلٍ من شجرة المعرفة، وأنزله من سماء السذاجة والبراءة الكاملة، سماء نور العمى الصافي، إلى الأرض الملتبسة، جزاءً وفاقا.

قال: أتصور أنني إذ تخليت عنك - نعم، نعم، لا تقولي «لا» تخليتُ حتى لو كنتِ أنتِ من قبل قد رفضتني - لم أفعل إلا أنني قدمت نفسي للذبح، وسمعتَ صَوت الله، وهأنذا منذ الأزل أتخبط على جسد الأرض الملتبس.

قالت: ياحبيبي، لماذا تعذبني؟ وتعذّب نفسك بالكلام، وماوراء الكلام؟ ألست معي، ألسنا الآن معا، في حضن بعضنا بعضا؟ لماذا، وأنت معي تلوذ فجأة بالغسق؟ لماذا عتمات الأسئلة التي لا إجابة عنها، بينما الشمس ساطعة؟ لماذا جانب الظلال أو الظلمات؟

قال وهو يحاول أن يبتسم، بشجاعة، أو مايظنه شجاعة:

- احتجازُ هذا الجانب مني، عُزلته وانقطاعه. حتى في قلب حُمياً الاندماج.

قالت، بتصميم، وقد أحس جسمانها الناضج الوفير ملتصقاً به، حتى العظام، مضغوطاً إليه بقوة الرغبة اللاعجة في التبرئة، والاندفاع إلى بكارةٍ جسدية:

- هذا غير صحيح ياحبيبي، ليس ثم انقطاع ولا احتجاز، اسألْني أنا.

قال: كيف أسألك؟ هل أنتِ موجودة؟

وهو يحيطها بذراعيه، تلتفّ ساقاه بفخذيها، يعتصرها:

– هل أنتِ هنا؟ هل أنتِ موجودة؟

– ياخبر! ياحوسْتي..! كل هذا وأنا غير موجودة عندك؟

– نعم. سؤال الأساس. نعم. نعم. موجودة. وحياة النبي موجودة... وجوداً لاينقضي أبدا.

مَنْ؟ مَنْ هي التي توجَد؟ مَنْ هي التي كانت –وستظل أبدا– موجودة؟

قالت، بشيء من الغضب تحاول أن تداريه إذ تمد بنانها الرخْص المكتنز إلى فمه تمس شفتيه مداعبة، بلمسةٍ سريعة:

– لكنك سألتَ فعلاً هذا السؤال. مجرد أنك سألته، ياحبيبي، كفاية.

قال لنفسه .الآن: كيف أحتمِل؟ لماذا أحتمِل؟

مسُّ حدّ السكين، سنانُها صلب، وبارد، لايرتفع عن حافة العنق.

القناع الذي يراه الآن مخضرّ اللون، بل يانع الاخضرار، لامع، مدهون باللاكيه مصبوغ، على شفتيه ابتسامة واسعة ثابتة، حمراء الشفتين، نغمة الصلاة رتيبة مترامية الامتدادات تتردد فيها أصداء غابات يهمي عليها بلا انقطاع المزن الموسميّ المنهمر وتجوس فيها نمور عاقلة العيون تحيط عنقه الممدود للذبح بأذرع نصف وحَشية نصف أنثوية مدملجة موثقة بأساور فضّية عريضة وعريقة التاريخ. دفء الذراعين يهبُّ على جانبي وجهه ودموع الكهولة تتقطر ببطء من عينين مسدودتين. التاج الذهبّي قائم الحواف ناعم

المعدن وأظافر يديها فضية بيضاء مدبّبة تمس مسار السيل اللبنيّ المتدفقّ ولا تخدشه حركة إيماءات محسوبة ودقيقة الإيحاء وعلى الجانب الآخر منه دقات النبض عالية بل مدوية ترتجّ فيها صدمات الأقدام الأربعة مشرعة المخالب ترتفع عن أرضٍ ندية طريّة العشب المبلول حاجباها المقوسان يظلّلان الجفنين المليثين المسدلين على آبار الوحشة الخضراء ثرّة فياضة بل طافحة بالحنان الصراح آه.. آه.. أنين الحنين موجع لاينتهي.

قال: سؤال متصل لا إجابة عنه أبدا.ولكنه يظل يُسأل أبدا. مامعناه؟ ماجدواه؟

لك جلال الكائنات التي جسدت لنفسها كتلةَ العالم ونعومته، ولك ابتذالها، مَطروحة للعابرين، أزهار إلهية لايمكن أن تضاهي سعة عينيك، وحياءها النهائي. هل الموت أهون من هذا الانقطاع؟ نعم. أم أن العالم مازال موضع سحرك؟ العالم؟ هذا العالم التكنولوجي الممزّق الكفء، نصفه جائع ملقىً على جانب الطريق، يتضوّر، ونصفه متخم بالطعام المصنوع وبالفعالية الفعالة، نصفه متوحش بالصواريخ والقذائف، ونصفه مطعون لافي رحمه فحسب بل في صميم روحه؟. ممتهن ومضروب ومحاصر. أما زال هناكَ مكان لهذا الذي لا اسم له غير الحب؟ مهما تخفّى وراء ألف قناع؟ أم أنني أتكلم لغة منسيّة بل مندثرة، هل يستطيع الكمبيوتر أن يسمعني؟ أن يعرف ما أقول؟ هل كلماتي الحارة تلك- كم أخشى أن تكون هي أيضاً قد ابتذلت حتى عمق الرحم - هي، أيضا، ذلك القناع الأسود الحيّ المجسّد بكلّ عضويّته وتموّجه، ومع ذلك جامد، حياديّ، إلهيّ؟ أما ننتهي من هذه الأسئلة؟بلا جدوى، بلا معنى.. أهو -يعني- ضروري، وجود الجدوى، وجود المعنى؟

كان مكتبه في الخليفة مزدحما بالأثريّين والموظفين، يخرجون

ويدخلون، فقد اقترب ميعاد تسلّم الدفعة الأولى من آثارسيناء التي استولت عليها إسرائيل أثناء الاحتلال، وكانت مراجعة قوائم القطع المنهوبة عمليّة شاقة، وخاصة أن بعض المصادر العلمية التي جاء بها تفصيل نتائج عمليات معينة من الحفريات الاسرائيلية كانت بالعبرية، وكان لابد من الاستعانة بمترجمين يجيدون اللغة بحيث يكونون على إلمام، كذلك،بالحد الأدنى الضروري من معرفة التاريخ المصريّ القديم والمواد التي تدخل في تركيب الآثار وأساليب صناعتها وتطورها من دولة إلى دولة وربما من أسرة إلى أسرة،لم يكن ذلك سهلا، وكان لابد من مراجعة الترجمة على أيدي أساتذة العبرية المتمرسين وأساتذة التاريخ أيضا، الأوراق على مكتبه متراكمة – وإن كانت منظّمة – الأثريون والموظفون يدخلون ويخرجون وينتظرون في المكتب الذي تسقط فيه شمس صباحٍ شتويّ دافيء من نافذة تطل على الأحجار الرمادية المتآكلة في جدران بيوت عتيقة متساندة تبدو متهاوية لكنها مازالت راسخة، التليفون يدق، وهو يجيب بسرعة ويأخذ مذكرة بخط صغير مخطوف، عمل مكتبيّ مهما كان استشاريا إلا أنه مرهق ومثقل متطلّب، عندما دخلت عليه في ثوبها السابغ.. أنيقا وغالي المظهر، واسعاً عند الصدر قليلا ومحبوكاً عند الردفين قليلا، به شقّ خلفي بين الساقين يصل إلى ما فوق خلف الركبة بقليل يتيح لها حرية الحركة ويتيح لساقيها العبلتين المليئتين– في الكولآن النايلون اللامع لمعةً خفيفة– إيقاعاً نشطاً وموسيقياً وفياضاً بأنوثة لايمكن احتجازها.

انحنت على مكتبه، من فوق الدوسيهات ونسخ القوائم، ومسوّدات الخطابات والمذكرات، قالت بصوت عال كأنما من التحدي وبالتأكيد من الغضب:

– لن نخلص أبدا من هذه الدورة التي لاتكفّ من النهب والخطف

والتهريب، وأيضا من التواطؤ.

قال بما يشبه نفاد الصبر، وإن كانت فيه ابتسامة خلفية:

– إيه ياستي تاني؟

– اسمع ياسيدي: «أمرت النيابة بحبس فنّي ديكور على ذمة التحقيق لاتهامه بعرض قناع أثريّ من الكارتوناج المذهّب، المرجّح أنه يرجع للعصر اليوناني الرومانيّ.»

قال: يكاد يكون هذا ضمن الروتين الأسبوعيّ، أو حتى اليوميّ. كل يوم والتالي نسمع هذه الحكاية.

قالت: وإيه؟ قال كان عارضه بـ ١٥ ألف جنيه.

قال: بَس؟ لا والله قنوع ابن حلال.

– القناع من الكارتوناج عليه طبقة من الجصّ، غطاء مومياء سيدة. الوجه مذهّب، الباقي يحمل الرسوم والنقوش المعتادة.

– من أين أتى القناع؟

– من الوادي الجديد. هذا غير معتاد. تنقّل بين أيدي المهرّبين من واحد إلى آخر، من الوادي الجديد إلى كوم امبو، إلى صاحب ستوديو تصوير بكورنيش النيل، تصوّر، ومنه إلى الديكوريست الذي بدأ يعرضه على التجار، شف الشبكة، وقع أخيرا بين أيدي شرطة السياحة والآثار. من يعرف لماذا؟

كان المكتب قد سقط فيه نوع من الصمت، والترقّب، بل التوجّس، أثناء هذا الحديث.

قال، نصف ساخر نصف مشفق، بصوت يبدو محايداً، قليلا:

- والله غلابة كلهم. صغار. الدور والباقي على الحيتان الكبار الذين يدبّرون ويخطّطون، الحفر والتنقيب عيني عينك من غير إذن ولاتصريح، شقّ اللوحات بالمناشير الكهربائية في عزّ النهار، الشحن والتصدير من المطارات، بل طبع الكتالوجات، كتالوجات أنيقة، «علمية» دقيقة، تصوروا ياجماعة، بالصور الملونة والتفاصيل والمقاسات وطبعا الأسعار، توزع في أسواق أوربا وأمريكا، جهارا نهارا. مافيا دولية حقيقية منظّمة، لها قاعدة كبيرة هنا.

لم يتكلم أحد، كلهم تجنبوا النظر إليهما.

قالت، بغيظ وأسى: زمان كانوا ينهبون الآثار بتصريح من الوالي، من الخديوي، من السلطان.. يشحنونها حيث تعرض في أكبر متاحف أوروبا وأمريكا، بعد ذلك اسرائيل نهبت، بقوة الاحتلال، الآن اختلف نوع التصريحات، أصبحت الحكاية حكاية تجارة رائجة في سوق تدور فيها مئات الملايين من المارك أو الدولار أو الاسترليني.. كله ماشي..

- أي نعم. يوه ياستي.. عندنا- عندهم يعني- تجارة الكلَى، والعيون، تجارة الأطفال والنساء، كل شئ، كل شيء منظّم مدروس علميا، داخل في حسابات الكومبيوتر، التداول هنا ليس للعرض في المتاحف المحترمة على الأقل، بل للسمسرة، شهوة الامتلاك، العرض في البيوت- القصور المحروسة بالإليكترونيات والحرس المدجّج بالرشاشات والقاذفات، داخل مناطق مسوّرة بالكهرباء، محرّمة إلا على المحظوظين.

قالت: والنبي كفاية.. بلا وجع قلب.. كل هذا لا جدوى من الكلام فيه. لكن والنبي مسيرهم يتجرجرواع المحاكم.. مسير المستخبي ينكشف.

بينما كان الآخرون، في المكتب المزدحم، ينصتون بانتباه، صامتين. هل ينتظرون سقطة كلام؟ هل يترصدون هفوة في الإيماء إلى مسئولين -

كبارٍ أو صغار -تصلهم الأخبار على الفور، مضخَّمة ومفخَّمة بما يلزم من توشيةٍ وتفويف؟ والذي منه؟

هل هي محض صدفة أن تأتي لتحكي له قصةَ قناع من الكارتوناج المذهب في اليوم نفسه الذي اكتشف فيه ضياع قناعه الأبنوسيّ الأسود الذي كان قد اشتراه، في أبريل ١٩٦٠، من بائع جوّال غلبان- هو فنان حقيقيّ أيضا- في أحد شوارع كوناكري؟

كان ليلتها يضع القناع على مكتبه في البيت، عندما أحس أنّ القناع يتحرك وحده، ببطء، بهدوء، متجها إلى السقوط.

لم يصدّق، فرك عينيه بحركة تلقائية، تصوّر أن نظره يخدعه. مدّ يده ليمسك بالقناع قبل أن يقع على الأرض، لكنه لم يستطع أن يقاوم حركةَ القناع الذي كأنما تشدّه قوة غير منظورة، من خارجه، أو تدفعه طاقة خفية، من داخله، أمسك القناع بكلتا يديه. لكنه كان أقوى منه. كان يتحرك. لم يستطيع أن يوقفه. صاح بأعلى صوته في هذا الليل:

- ماذا يحدث؟

عندما بَحَث عنه في كلّ مكان في البيت، على الأرفف، وراء الكتب، من حجرة إلى حجرة، لم يجده. لايذكر أنه أهداه أُحدا، ولا أعاره أحدا، لم يذكر حتى أنه رأى القناع منذ فترة. أين ذهب؟ كيف ضاع؟ هل سرق؟ وحده هكذا دون شيء آخر؟ هل هناك من يهوى جمع الأقنعة، زاره واستحوذ عليه لنفسه؟ هل هناك في هذا القناع سرّ مخبوء؟

هل كان هناك قناع أسود، من الأصل؟

لماذا طافت - هي- بذهنه عندئذ؟

قال إنها لم تزره في بيته منذ سنوات.

قال إنه لم يرها - في أي مكان - منذ سنوات.

قال إنه كان يسارُها، وعلى معرفته الحميمة بأعمق وأخفَى خلجات جسدها- وروحها أيضا؟ -فقد ظلت غريبةً عنه، لا يعرفها حقا. لكنها تملأ ليلِ عمره الطويل، نعم رأى... رأى ومضة الحب-أو مجرد العشق، مجرد القربى، ماذا يهمّ؟- في رنوتها، نعم سمع... سمع جرس نجواها وشكواها وأنين وحشتها وشهوتها، وتدفُق حكاياتها، وملء صمتها، أسكرته، كم أسكرته لمسات يديها، وخمر حبّتي العنب في نهديها، وثمرة شبقها المنتصبة الحارة المبللة، نعم، نعم، نشق عبق شعرها الغني الفوّاح بحرافة أرَج وثير. نعم، لقد عمرت وحشة روحه. لكنها - قال لنفسه- ظلّت غريبة عني.

هأنذا قد عدت وملء يدي حصاد حياة مثقلة، آفلة، تطوف بي أحلامٌ بالية، مزقاًمهلهلة تتعلق بحواف الليل الصامتَ القادم، خِرقاً جافة الآن، متهدلة، متدلية على خشونة أحجار متداعية.

هل يشرق النوم بصبحٍ كئيب؟

هل صخر السماء صامت - كالعادة - لايجيب؟

هل تظل تروِدني في نظرتك ابتسامة ملغزة؟

ذلك أنني- في النهاية- لا أعرفك حقا، لا أعرف شيئا حقيقياً عنك. وتظلّين على قربك الحميم- كما لم أقترب من أحدٍ في هذا العالم قط- غريبةً عني.

تلك نغمة قديمة، قديمة.

في هدأة غرفتي المقفلة أومأتِ لي. وفي يدك زهرةٌ شائكة، تطعنين لحم لهفتي نعم، أنتِ.

أنتِ التي هوَّمتْ بي أطيافُك، طيفاً بعد طيف، منذ فجر الصبا السحيق، فجر العمرَ المرهق الثقيل. ومنذ ذلك الحين– من الأول – كنت أعرف أنكِ لست لي. لماذا إذن ظللت تملأين ليلي الطويل؟ أنت لن تعرفي قط جوعي المهجور، ولا أحد يعرَف، أو سيعرف أبدا. وحتى اذا عرفت فماذا إذن؟ من يعرف – حقاً– أيّ شيء عن أيّ أحد؟ ألم أظل أُعيد وأزيد هذا القول المكرورِ؟ دون ملل، دون إجابة؟ هل تعرفين – مثلاً– جذاذات هذه الأحلام المهملة في تراب العمر القاحل؟ كنت قد سألتُ أحد أطيافك المراودة، من زمان: أآنشد في عمق عينيك صدىً ضاع مني؟ لم أُكن أعرف عندئذ أنهما خضراوان – صفراوان لاقرار لهما، ولم أتيقن قط لونهما، مع أنني كم ضعت – وأضيع– في عمقهما. هل دفنت عينيَّ – أنا– مفتوحتين تغمضان، في دفء نهديك؟ نعم. نعم. نعم. مازالت عيناي مفتوحتين، ظامئتين. وحشة ساحتي هل تستطيعين أنتِ– بل حتى هل تريدين– أن تعمريها؟

هأنذا أُلملم أنقاضا من حيطان روحي، تجرح خشونتها كفيّ، كما فعلتُ دائما. وأدفنها – أو أحاول– في هذا الغسق الأخير. ومهما ضحكت – أو بكيت أو سخرت أو شردت، مهما نسيت – يعني تناسيت– فما زلت تملأين ليل العمر، حارةً، متلوية، ومازالت وحشة روحك غير الشبعان تملأ ساحتي، في غير جدوى لكِ، ولا لأحد. شأننا كلنا، شأن كلّ الناس.

قال لنفسه، بشاعرية رثّة يعرف رثاثتها بل لعله يلتذّها:

– ضاع مني الطريق، ضعتُ في تيه بهيم، وتداعت الحيطان حولي، من زمان، وما من جدوى لكل خبرة في الترميم. التراب سحاب لايريم، فإذا

خيّل إليّ فجأة - في شطط الوهم- أن النور يشرق على قناعٍ وجنتك الناعمة، تقبضتْ أطراف هذا النسيج المشدود على حوافّ هذه الحيطان، وتمزقتْ بصوت خفيض.

هل أنا أعرفك؟ ياللسؤال..!

نعم، أعرفك. وتظلين - على معرفتي- غريبةً عني.

كانت قد قالت له:

-ألم أقل ذلك مرة؟ في حديثك أكثر مما ينبغي، بكثير، من الشَجَن.

فهل قلتُ لها: بل أقلّ القليل، مقارَناً بما فيه فعلاً من الشجن.

- لكن هذا الشجن.. ألا ترى أنه - يعني -لايليق؟

- بل هو مجرد حق وصدق، ببساطة. هل تعنين أن فيه شيئاً من زيف؟ ليست فيه ذرة من شائبة..

قال: صحيح. ولكن غير كامل. ومن ثم فهو غير صحيح، بمعنى ما. هذه طبقة بدائية من الحفريات، راسخة هناك في القاع.. لم يتحيفّها الزمن، من عهد ماقبلَ الأسرات، ربما.

لكنها غير معنّية بالصرح الشامخ القائم فوقها، باديا للعيان.

صديقه رجاء الدُقْلي، الذي مات الآن، بالسرطان - كم من أصدقائه ماتوا الآن! - كان قد أهداه كتابه الشعري: «إلى صديقي الذي أحبه، ولا يصدق أنني أحبه» من غير شجن، لكن بعاطفة لاشك فيها- حتى بمجرد إثارةِ الشكِ فيها، ومستغربة قليلا من صديقه،« لايصدّق أنني أحبه» أي شجنٍ مضمر في هذا التقرير البسيط. كان طويل القامة، صعيديا، ذاكبرِ

ومرارة في السخرية، شعراً وحياة، ومات مبكرا جداً عما ينبغي، بالسرطان. أفي الموت ما ينبغي ؟وما ينبغي ؟

قال: كيف نفرّق بين الشجن وصدق المحبة– وتصديقها؟ إذا كانت أغاني الحب عند المصريين القدامى «مسلّية» ؟ فما معنى الشّجن هنا؟

قالت له: ياحبيبي لن تعلم– ولن تتعلم أبدا.

قال: أنت التي صارعت الشجن، ولم تقبليه قط. نداؤك لي بالليل، من نومك، كله شجن، كله استرحام.

قالت: لن تفهم أبدا.

في كل حياة (في كل طبقة من طبقات الحفريات) راهنتُ بكل شيء، حتى حافة الموت. ولكن فقط حتى الحافة. لم أخطُ بعدها الخطوة الضرورية التي تجعل لها معنى وفي كل مرة خسرت الرهان.

لم يعد هناك الآن ماهوبعد الحافة.

«أموت – إذن– وما ماتت إليكِ صبابتي، ولا قضيت من وِرْدِ حبّك أوطاري ؟» أهذا هو؟

أهذا يقينٌ أم هو «صفاء العلم في القلب واستقراره فيه» ؟

«وليس لزيادات اليقين نهاية» ؟

أيقينٌ كأنه وطن أقيم فيه، يقين دائما هو موضع السؤال. ومن ثم..فلا يقين. ومع ذلك فاليقين قيام دائم، لاينزاح.

لأنها قالت له، مساهمه النظرة: أنا لكَ، في كل الظروف، في كل

وقت. تأكد من هذا. دون أن نحتاج إلى أن نؤذي أحداً.

لأنه زعم أن الزمن عندها هو الآن فقط. لحظتها الراهنة - فقط- هي الأبد، هي كل الوقت.

قال: عندها حق، اللحظة هي كل الزمن.

قالت: أنا لا أحمل ساعة، أبدا. لا أقيس الزمن بالساعة.

قال: صحيح.

- دون أن نؤذي أحدا.

قال: ياحبيبتي لايمكن أن تكوني لي، حقا، إلا إذا كنت - أنا- لكِ حقا. وعندئذ كيف يمكن ألا نؤذي أحدا؟ التورّط إيذاء، بالضرورة.

قال: هل تذكرين حكاية الاستهلال في ألف ليلة؟ أول حكاية فيها؟ ألم أحْكِ لك من قبل؟

قالت، تنظر إليه جامدة، رافضة: لا.

قال يراضيها: أفكّرك ياستي.. كان هناك من يأكل التَمْر. لاعليه ولابه. أهناك أشد براءة من أكل التمر تحت نخلته؟ دون أن ينال من أحد، دون أن يؤذي أحد أو يؤذيه أحد؟

قالت: آه.. آه، هذه الحكاية.

قال: نعم.رَمَى نواة التمرة، فأصابت بنت الجنيّ غير المنظورة، وقتلتْها. كان عليه أن يدفع الثمن.

قال: إيذاءٌ في كل فعل للإرضاء.

قالت: أُحبك إلى درجة أنني على استعداد–حتى – لأن أعتنق أفكارك.

كأنما كان ذلك أقصى ما يمكن أن يؤذيها به: أن تعتنق أفكاره،حتى.

قال لنفسه: لماذا إذن يقيني أنها لم تقل لي قط: «أحبك» ؟

قال: هل «أفكاري» هنا هي أيضا دياتني.. التي لا أعتنقها، التي لا أدين بها على أية حال؟

قالت له: لاترتكبْ أية حماقة. لا تفكّر. كفاني ما أنا فيه.

هل حماقتي أنني لم أرتكب فعلاً هذه الحماقة الأخيرة؟

يعني أنني احتميت بقناعي، أم أنني اقتنعتُ بقناعها؟

سيدة المتناقضات، متناقضة الأحزان والمباهج، متضاربة الأهواء والمنازع، متلاطمة المعاشق والمكابح، إيزادورا إيزولده زمرّدة هل أنت زامرة الحيّ أم ضحية حابي، هل إنت المتّوجة الامبراطورة أم الغانية الهلوك؟ هل أنت رمز العشق أم أنك واقعة من وقائع الحياة اليومية متجسدةً ومحددةً ومؤسيةً قليلاً في كل أمجادها المندثرة بالضرورة لأنها عرضية وزائلة بالضرورة؟ في كل وقت معناها والآن فقط. دائما معناها اللحظة العابرة، معا.

الأُنس هو وحشتك مني ومن نفسكِ ومن الكون كله.

الأنس هو وحشتي إليك.

يقيني قائم ومشكوك فيه، غير مستتبٌ وغير مسبّب.

قال لها: عندما تكونين راضية، وتحسين أنك محبوبة– أنت دائماً محبوبة ولكن متى تحسين ذلك ومتى لا تحسين؟– عندئذ تنادينَي، من نصف نومك، بصوتك الطفليّ الصغير المتطلّب: «أين تذهب؟ لاتتركني..»

وعندما تكونين محبَطة، أو خائفة، أو غاضبة- لم لا ؟- عندئذ الصمت، والانغلاق على الطويّة، والاستدارة على الذات.

لم يذكّرها أنه في بيت الشعرى اليمانية العتيد، عندما أهداها ذلك الخاتم الصغير، بفصوصه العقيقَ الصغيرة الحمراء المشعة التي تتوافق مع برجها، قال لها: هاتي يدك، أغمضي عينيك (كما يقال في الروايات وفي الأفلام، تماماً، لكن من غير صنعة الروايات والأفلام) قالها بتعثُّر، وتحيُّر ونصف تردُّد، وأخذ يدها الرخصة اللينة، كان جفناها المغمضان يرتعشان بحركة عينيها المغلقتين، وكانت سمرة وجنتها مضرجة مضيئة من داخلها في نور غرفة نومها المستكنّة الحميمة، كانا على الأرض، هي تستند بظهرها إلى حافة السرير الذي يبدو له الآن عالياً وخلفياً وعريضاً جداً، وقد مدت إلى الأمام ساقيها العاريتين تحت قميصها الخفيف، فامتلأ بهما الحيزّ الممتد بين السرير والتليفزيون الذي يهمهم خافتاً وتتراوح ظلاله ومضاته، بينما هو قد أعطاه ظهره، واستدار إليها ووجهها مغمض العينين قد انسدلت عليه سكينة الاطمئنان وتوتُّر خفيف من التوقُّع والانتظار لايصل إلى اللهفة ولكنه لايسقط إلى صمت الجمود، أخذ أصبعها البنصر المكتنز، أفرده، قليلاً من بين أصابعها، وفي نور التليفزيون المكبوح المتراوح كان الخاتم ذهبّي اللمعة يومض ومضات مشعّة حارة بفصوصه الدقيقة في لون النبيذ القاني، انزلق الخاتم بسهولةً في إصبعها، لا هو واسع فضفاض ولا ضيّق خانق.

كان وجهها قناعاً حياً، آخر، بل هو القناع الأوّل والأخير، يضيء من داخله: أميرة من طيبة القديمة قد استنام جناحا الصقر الملكيّ على جانبيّ وجهها.

فتحت عينيها النجلاوين، ضرب قلبَه سطوعهُما المتقلّبُ اللون، قالت، وصوتها يتهدج بانفعال حقيقيّ:

- رمزيّةُ الخاتم.. كيف أتحمّل معناها ياحبيبي ؟

لم تقبّله عندئذ على الفور، بل انتظرتْ قليلا. كان في قبولها للخاتم ماهو أكبر بكثير مما يستوجب قبلة الرضى المتوقّعة. من غير قبلةٍ كان فيه إدراك عميق.

أو هكذا يتصور الآن، بعد ستة عشر عاما.

هذه اللحظة هي الأبد، أليس كذلك؟

لكنها قالت له، بعد ذلك: لن أدعك تفسد حياتي!

أيْ أنه كان بمقدوره أن يفسد حياتها.

هل هو إفساد؟ أهذا ما كانت تعني؟ أم أنه كان ليحملها على أن تعود إلى جوهر الحياة، الجوهر الحقّ الوحيد الصحيح؟

قال: ياللكبْر..! يالحماقةِ صلَفِ الغرور..!

هل كان معها في الپيرسِوار الخفيف المستطيل الطافي على ثبج أمواج ساجية منبسطة حتى آخر المدى؟ أهما في شاطئ ميامي، بعد الصخرة بيعيد؟ أهذا ممكن، وهو الذي على حبّه البحر وتدلّهه به يخشاه خشية الهلك، ويهجس به دوماً أن «سينكسر السفين»؟ والموج الأزرق عميق الزرقة مترقرق هادئ الإيقاع، والپيرسوار يِنزلق بانسياب ناعم على السطح الساجي، هي عارية تماما أمامه، وهو لايرى نفسه. كأنما ينظر إليها من وراء نفسه، يراها بعينٍ داخلية.

كان قد قال لها إنّ أثَر المايوه على جسمها مازال واضحا، مرسوما على بشرتها، كأنه مفصّل تفصيلا، فقالت:ياسلام..بس كدة..وخلعته، لكي تصطلي بالشمس، دون حجاب، كلها، فلاتلوح درجات السمرة القمحيّة غامقة وفاتحة على مقاس المايوه، بل تندمج كلها في تدويرات

الجسم المرتخي الآن على الخَشَبة الضيّقة الرقيقة الطافية، تحتويهما معا وكأنما تحتوي سعة العالم كله، تنحّي العالم عنهما، فلا يكاد يبدوالشاطئ المزدحم إلا كأنه مرسوم بقلم رماديّ غير مصمت لا كثافة في خطوطه.

كنوز جسمها الخبيئة متكشّفة، من غير أدنى ايحاء إلا بذاتها، تحت شمس الظهر، هادئة وادعة لاغواية فيهاولا استثارة، عاد هذا الجسم إلى براءة أولية لاتحمل أي معنى إلا معنى ذاتها، لا تومىء بشيء إلا بذاتها، جسدانية تحررت من جسدانيتها وظلت محتفظةً بها كاملةً تامةً غير منقوصة.

أيّ ضوء ساطع في ذلك الحلم المفتوح على أفق لانهائي.

أيّ سلام.

قال: عندي لك حكاية رثة، أخشى أن تكون رثة-كم من حكايات رثة عندي! - لكنها بالتأكيد حكاية لك، حكاية معمولة لك أنت.

قالت: قُلْ ياحبيبي، لاتخَفْ من الرثاثة أبدا.الرثاثة قيمةٌ مضافة مُقحمة وليست كامنة ولا جوهرية، أوهي في الوقت نفسه صِنْو السمو والنبالة، بلا انفصال.

قال: نعم.

قال: كنت على القهوة، في مرسَى مطروح ،بعدالمغربية، معي ظلّ النعمة الملازم لي دائما في دروب الحياة المفتوحة،وكانت الأنوار الكهربية البذيئة دائماً معلقة في حبالٍ متدلية على المباني، ومتوهجة في عصيّ النيون اللبنية الضوء، عربات الفاكهة المحملة بأكوام البلح الأحمر والأسوَد والجوافة والمنجة على الرصيف أمامنا، والبقر المطروحيّ السارح عندئذ يتخطّر بما يشبه الجلال، ويلتقط رزقه من الأرض، لايتعرضّ له أحد، ذكّرني

ذلك بالهند قليلاً، هل تذكرين الهند؟ لم يكن المحافظ قد أمر بعد بمنع البقر من التجوال بحرية في شوارع مرسى مطروح. والراديو يجأر بأعلىٍ طبقة صوت، الشاي السخن الماسخ الطعم قليلاً أمامي في كوب صغير كدِر الزجاج بزرقة باهتة، وأهل مطروح بلباسهم، البدوي الليبيّ الأبيض، الصديري الصغير المرتفع عن الخصر، والسروال الأبيض الخفيف والطاقيّة، جنب المصيفّين وأولادهم ونسائهم يقزقزون اللب ويعودون بأكياس العيش السخن ولوازم العشاء، الكاريتات تجرها حمير هزيلة مقروحة أوفارهة شامخة.تجري تقرقع في شارع اسكندرية، والباعة يمرون على القهوة ببضاعتهم من كل شيء، من ألف صنف وصنف، الفسدق وليف الحمّام واللعبة عشان حماده، ورائحة الفلافل تهبّ مع رائحة البحر فجأة إذ يتغير اتجاه الريح الخفيفة، هل ترين الصورة، بكاملها، بكل تفاصيلها المملة؟ فجأة سمعت وردة الجزائرية:

خدْنا حلاوة الحب كله، في يوم ولِيلة.

حلاوة الحب كله

في يومْ ولِيلة...

قالت: لماذا تتصور أن هذه حكاية رثة؟هي حكاية جميلة. هي ليست حكاية على الإطلاق، لكنها جميلة.

قال،كأنه غير مقتنع، وإن كان قد رضي فيه مؤقتا قلقٌ صغير:

– الله يخليكِ ياحبيبتي. هذافقط من جمالِك..من ذوقك.

قالت: طَبْ اسكتْ. وتعالَ في حضني.

لم يقلها – كأنما خجِل–إنّ عاشقيْ فيرونا لم يعرفا إلا ليلة واحدة، إنّ

كل مأساتهما لم تستغرق -كلها- إلا ثلاث ليال، إنّ شيئاً لايقاس بالساعة، إنّ العمر كله قد انقضى - ولم يندثر- ليس في ليلة واحدةٍ ربما، وإنما في ليالٍ معدودة، لاعداد لها مع ذلك.

قالت له: ألم نقضِ معا شهرَ عسل لامثيل له؟

كانت تقفِ بالباب، بين الغرفة ذات المشربية وشجرة الظّل السامقة التي تحتها الشكمجية وقد تناثرت عليها، في فوضى محسوبة، عقودها ذاتِ الحبّات الكبيرة والجلاجل والشراشيب المعدنيّة، وأساورها الفضيّة، وحلقانها الهلاليّة واسعة الاستدارات، وبين غرفة الطعام التي فيها الوحش الموسيقيّ الإليكتروني العتيد، وهي تهمس مع أغنية وردة من تسجيلٍ رائق حيّ: «حلاوة الحب.. وياحس..» جرس حرف الحاء، من شفتيها الدقيقتين، إذ تضغط بفمها على حرارته وسلاسته ويحتدم الحاء بلثغة طفيفة غير محسوبة، من بين الفرجة التي لا تكاد ترى بين سنتيها الأماميتين، تدور شفتيها وتحتكّ حاء الحلاوة في نعومة وحميميّة من حافة الحلق الخفي، وللسين حسيس» ..باحس..الحسّ كله، الحبّ كله» يتجسد في تنغيم وتحديد وسيولة وانسيابَ هذا الجرس الصاعد من بطانة عضوية وثيرة، وهي بثوبها السابغَ المنسدل على أوصالها، مستندة إلى قائم الباب، تخايله لابصوتها الهامس المثير فقط، بل بابتسامة مراوغة لاتكاد ترتسم على المحيّا الصبوح.

في ١٠ سبتمبر ١٩٩٤ كأنما كانا في مؤتمر من مؤتمرات الآثار، هل هو في لندن أم في أسوان؟ضجيج المؤتمرات المعتاد والحركة الدائبة للناس مندفعين إلى القاعة الكبيرة أو متفرّعين إلى قاعات اللجان المتخصصة، اللغط يرتفع ويهبط، حفيف الأرجل على خشب الأرض العارية وعلى سجاد الممرات، تردّد الأصوات غير المستبينة، واللهوجة، والهرج المنظّم للحاق بالمواعيد، زحزحة الكراسي، تجارب الميكروفونات قبل البدء في المحاضرات أو المناقشات، وإذا هي تأتي من بعيد، نازلة على سلّم معدنّي

حلزونّي الدَوران، درجاته مضلّعة حديدية اللون، وفي يديها أيدي الزميلات، يضحكن ويثرثرن وهن ينزلن السلّم معا، متعاقبات، بحركات إيقاعية ليس فيها تعثّر أو تردّد بل خفّة التطاير وموسيقيته، وإذا هي ترسل له، خلسة، قبلةً خاطفة في الهواء بتدوير شفتيها ومدهما إليه، بأهون إيماء، قبلةً في الهواء فيها تواطؤ حرجٍ ومودة -أو محبة؟- نصف معلنة نصف مضمرة في صفاء الحلم الكامل. سوف يأتي المضض، والتساؤل، فيمابعد.

في آخر السلّم، على الردهة، مسدس ضخم حكومي الشكل موضوع على كرسيٍّ خيزران. يأتي من يرتدي ملابس عسكرية – هل هو ضابط شرطة؟ أم جيش؟ كأنه من عساكر أمريكا اللاتينية، شديد الأناقة، محبوك، حتى في لبسه نوع من القسوة الصارمة الدقيقة، ولكنه مصريّ الوجه جداً، بأنف كبير، أسمر وممتلىء بالصلَف والاعتداد، يتسلم المسدس من على الكرسي.

أهذا تسليم؟

لايصعد السلّم حتى قمته، ولا ينزل حتى نهايته.

سأل نفسه، كما يسألها دائماً، دون هوادة ودون إجابة:

-على السلّم، دائماً؟ لا طلعت، كما يقال، ولا نزلت. هل نحن فقط رقصنا على السلم؟ بكِل معاني ذلك، أي بلا أدنَى أهميةٍ على أي حال: وهل أنا مجرد عابر عرضّي، وكل هذه القصة أيضاً سحابة عابرة؟

أم أن مجرد العَرَضية، والزوال، هما قانون الخلود وسرّه؟

كانت قد قالت له: أوجعتني..

قال: هل مازلت ياترى ؟ أم أن ذلك كان مجرد غنج، ودلع؟ قولي لي، حتى لايعود بيننا ألم نصنعه بأيدينا. كفى الألم الذي يوقعه بنا العالم، والآخرون. الذين نحبهم، أنا وأنت. هل هذا يوجعك؟ لا أريد أن يبقى شيء بيننا لايقال. هل تعديني ؟عديني!

ها نحن لانوجع أحدنا الآخر. انتهى.

يعني أنا لا أوجعكِ على الأقل، فيما أظن.

ولاشك أنني حرصت على ألا أُوجع أحداً.

وهو تخاذُل، أو لعلّه خذلان.

أهذا صحيح؟

كان من شروط الحب الحق أن أتقبّل الوَجَع، أوقعه ويقع على، حتى الذبْح. أنْ أعرف كيف أوقع الوجع، مهما كان عظيماً. وإن أعرف كيف أحتمله. هذه هي أخلاقيّة الحب الصحيح، ليست أخلاقية خوّارة طريّة متحوّطة تزعم أن عينها دائماً على الآخرين، بينما عينها – في نهاية الأمر–على مراعاة الذات، والحياطة عليها، الولوغ في أنانيتها تحت مزاعم الإيثار.

اللي راحْ راحْ ياقلبي
قسمتك لله
مَاقلت لكْ نفضُها
هدِدْتني بالآه.

تموُّج الآه في صوت عبد الوهاب متقلّبٌ بالشَجَن –طبعاً أكثر مما ينبغي بكثير– ماهو القدر الصحيح من الشَجَن؟

وساوره أيضاً صوتٌ خشن رجوليّ وكله شجنٌ مخفيّ:

كان حلمْ وراح

إنساه وارتاح

ساقاها وهي تسير أمامي منهكة من الشبَق، والعمل، والمشي، شيء مافي هذه المشية المثقلة، على خِفة إيقاعها، جاذبية ما، إنهاك في الجسم كله، نوع من الاستسلام لهذا النهْك وتحدّيه، ورفضه معا، يوقظ فيه رغبةً نائمة.

كانت بالليل، قبل أن تأوي إلى نوم عميق مجهَد وفوريّ تقريبا، على إثر صراعات الحب الطيبة، تقول له بصوت متهاوٍ، فيه غنجها الذي لايريد الآن شبقا بل حبّاً فقط:

- عايزة حلاوة طحينية، حلاوة شَعْر،تلاقيها في الثلاجة، في علبة بلاستيك زرقاء. هاتها لي، من فضلك.

أم كانت شيكولاه موسْ؟ برغوتها البنّية لدنة القوام؟

كأنما هذه العذوبة المطلوبة تكلّل مافي جهاد الحب من حلاوةٍ ومن مرارة، تلغيه، وتهبط به إلى مستوى آخر، صريح، ساذج، نقي، ليس فيه تعقيدات روحية، مستوى الأكل، التحلية.

قالت له:إنت عايز؟

قال: نعم.

ومع ذلك فقد كان التفاف تلويات الحلاوة الطحينيّة الشَعْر في فمها، وتحت شفتيها، وهي تلتقطها بلسانها الدقيق الحاذق المدرّب على أشياء

كثيرة، يثيره أيضا، وهو يعرف أنها مدركة لاستثارته، وهانئة البال بها، إذ تنظر إليه وترى علامة يقظته الحسّية، وهي تأكل وتمص وتجذب الخيوط الطويلة المتدلية المتراكبة بعضها على بعض، نظرتها تكتفي بابتسامة في العينين الآيبتين إلى النوم، فقط.

هل كانت تلك الحلاوة طحينية شَعْر، حقاً، أم كانت كؤوس الشكولاته التي تغوي الشهية بلدونتها وتماسكها معا؟ وهي تلعق الرغوة العجينية الداكنة، لامعةَ اللون، من ملعقتها الصغيرة، وتلحس المعدن الفضيّ بأناقة مدرَّبة ومهذَّبة ولكن غنية بالإيحاء والإغراء؟

فهل انقطع المشهد، أياً كان، وحلّ يقين الظمأ؟

كأنما أراها فقط بقوة الإيمان، بالحفاظ على الأسرار والبوْح بها في آن، بطمأنينة القلب وترويضه على قبول القلق معا، بنور يبلغ من سطوعه أن يعشي البصر تماما فلا رؤية، وإنما رؤيا البيد وراء البيد، بلا أفق. ارتفع عني كل ريب، ومازلت ضحية هذا التغييب الذي ليس فيه غيب، أبدا.

في بيت الشِعرى اليمانية الذي لايريد أن يبارح روحه قط– لقد انقضى إلى غير مآب، كعبة هجرها الله تظل مع ذلك قدسيّة في حِسّه– كانت قد خرجت إلى مكتبها، أما هو فقد كان. في إجازة.

كانا قد استيقظا متأخرين، كلاهما، وكأنها لم تكن تريد أن تستيقظ، على غير عادتها. فقد كان أحياناً يفيق من نومه، فيجد أنها تشتغل في البيت، تعمل الحوض، تصب الماء بحرصٍ وهدوء، تجفف الأطباق والأكواب والفناجين والفضيات بعناية دون أن تصدر عنها جلبة الاصطفاق المعتاد، حتى لا توقظه، أو يسمعها وهي تتحرك في الشقة، من غير صوتٍ تقريبا، ويعرف أنها تعيد النظام إلى آثار عربدات الشرب والأكل وعنف متعات الليل،

ويحدس أنها تهش الغبار برفق عن الأثاث الأنيق، القليل بأناقة، وتمسح الخشب الموجنة اللامع الصقيل بخرقة صفراء طرية تعيد إليه لمعانه وتوهّجه.

كان السرير العريض مهوشا، تحت لوحة الديك الأحمر الهازج، أبدا، بصيحة لا انطفاء لها، ، على حافته الدبّ البني الصغير الذي تحبه والذي اشتراه لها من المنشيّة الصغيّرة في زمنٍ آخر، وكانت الملاءات مضطربة ومكوّمة بعد ليلة صارعا فيها الحب، على سلالم صاعدة، إلى السماء، وغالبا النوم وتقلبت بهما أهواء الحس المشبوبة أنواؤها.

لم تكن تقبّله عند اليقظة – عادة– فقط صباح الخير ياحبيبي، بنغمة تصف النوم المتمطيّة الشبعانة، أو بعد أن تكون قدجاءت من المطبخ أو صالة البيت. لم تكن من النوع الذي يقبل على اليقظة ببهجةٍ وإشراق، بل هي أساسا طائر ليليّ.

شربت قهوتها السادة وسيجارتها الأولى، وهو مازال كسولاً في السرير، وقالت: ياه.. تأخرت على أي ميعاد معقول للشغل، أو حتى غير معقول، . لن أغيب ياحبيبي. أسلّك ورقتين، وأشوف المسائل كده ع الطاير، واجي لك، حمامة..

كان مازال بجاكتة البيجامة الطويلة، وحدها، على اللحم، وَصلّها للباب، ووقف خلف الضلفة الواحدة العريضة، حتى لايراه أحد هكذا، نصف عريان، وهو يرسل لها قبلة خاطفة في الهواء.

ماذا فعل في ساعتي الصبح هاتين، حتى عادت؟

سمع موزار في الغالب، وقرأ صفحاتٍ من أشعار الحب عند المصريين القدامى من ترجمة إزرا پاوند، قلّب في صورها الفوتغرافية القديمة، رآها

طفلةً مدوّرة الوجه، بضفيرتين، وصبيّة غريرة وذكيّة العينين جدا، بمريلة المدرسة، وقد استطال وجهها ونحف قليلا في فجر المراهقة، ورآها في حلّة التخرّج بالروب والقبعة المربعة ذات الحافة المستقيمة الناتئة، ممشوقة القوام، صامتة الكبرياء، ثمّ حزن خلفي -غير مبرر وغير مفهوم في تلك المناسبة - في عينيها الضاريتين بطعنة مبكرة.

عندما عادت دخلت غرفة النوم مباشرة، طوحت حذاءها بقدميها بالحركة التقليدية، نضت عنها كلّ ملابسها على الفور، ووضعت قميص نومها القصير الخفيف.

نظرت إليه بحدة، وغضب:

- لم تكن تستطيع - يعني - أن تسوّي السرير؟

بُهت قليلا. لم يكن ذلك من قبيل مايدخل في نطاق المتوقّع، لم يكن قد فعله، وحده من قبل، ولا تطرقت إليه عاداتهما. كانا يسويّان السرير معا.

قال، محاولاً أن يجعل المسألة كلها خفيفة:

- انتظرت حتى تعودي، لنفرشه معا، على طريقتك.

فقد كانت لها صياغتها الخاصة- فعلاً- في فرْش السرير، تطوي الملاءات بحيث يكون الطرفان الجانبيان الطويلان- الأيسر والأيمن- متساويين، وتدخل الحافة العريضة التي عند القدمين أسفل المرتبة، وتجعل الحافة الأخرى عند رأس السرير على طيّتين متساويتين تولج بينهما، ببراعة،رأس البطانية الخفيفة الحريرية الملمس تقريبا، وتكسو ذلك كله بغطاء السرير اللامع، بعد أن تدس أطرافه الأربعة في جوانب السرير الخشبية. وهكذا مما لا يستطيع أحد أن يؤديه، بهذا الحذق، والسرعة، إلا بعد مرانة ودربة

طويلة، وكان فقط يساعدها على الجانب الآخر من السرير، يشدّ أو يطوي أو يرخي، بينما يداها تقومان بما يشبه السحر.

بادرتْه، بشيء من العنف تقريبا:

– يا أخي كنت عملته بأىّ طريقة كانت والسلام. بسّ كنت عملته.

أهذه بداية خناقة بيتيّة صغيرة مما يحدث عادة بين كلّ زوجين؟ وكأنهما في بيت الزوجية، بعد انتهاء شهر العسل بسنوات، مثلا.

أم أنها أحست أنه يمارس طقسا– أو عادة– رجوليّة، يترك «شُغْل البيت» للمرأة، زوجة أو حبيبة على السواء، لأنه ككل رجل شرقي فوق هذه الأشياء، مثلا، بينما هي المرأة المتحررة– الند، الحبيبة وليست الزوجة –يمضُّها ذلك، وكأنما تحس في ذلك كله استهانة، إنْ لم تكن إهانة. فهي ليست أقل من رجلها مكانة، أو منزلة.

استشعر ذلك كله، على الفور، ولكنه مع ذلك أُخذ، وصمت، وغامت نفسه بظلال الصدمة وتهويمات الاسترابة وفقدان اليقين.

هذه الأشياء الصغيرة، دائما، تهوله.

ظل السرير مهوش الفرّش، مضطربا، مكوما بملاءته وأغطيته.

أعدتْ وجبة غداء خفيفة وسريعة، سَلَطة وسمك بارد مع نبيذ أبيض، وكانا يتحدثان عن هذا الأمر أو ذاك، كأنْ لم يحدث شيء، ولكنها تدرك في صوته – طبعا– ذلك الارتداد إلى الداخل، ذلك التحصّن وراء الكلام العاديّ الصغير لكي يخفي المضض والتشكّك كأنما لايريد الآن الضرْب في متاهات لايعرف المخرج منها ولا إلى أين تفضي.

نظرت إليه نظرة طويلة، متأمّلة، وقالت فجأة بصوتها الذي كلّه مصالحة ومداعبة وأنثوية غنجة، دون أدنى تبذّل أو تنازل أو افتعال:

– آه ياني.. أحطّ صوابعي العشرة في الشقّ منّك.. أنا حاطقّ من جنابي.. طَب أعمل إيه ياحبيبي.. ماهو بالعقل.. ده حتى ربنا عرفوه بالعقل، كل حاجة بالعقل، ما أنا هو معاك.سبت الدنيا تضرب تقلب وجيت لك.. طب ده يعني إيه؟ مش تستحمل لي كلمة كده، لاهنا ولاهناك..؟

فماذا كان بوسعه أن يفعل؟ إلا أن يقوم يبوسها في خدّها وعنقها وشفتيها دون تورّع ودون حساب؟

القواقع شائكة السنان مكومة متناثرة على لحم النهدين البضّ الرجراج، تدوي دخائلها بهدير بحارٍ مكنونة، الفراشات البيض ترفرف على الردفين الراسخين في استدارتهما المكينة.

هاقد ضربت أيدي الليالي بيننا.

ولكن كل شيء، كل فعل، كل كلمة تقريبا، تتردد وتتكرر من جديد، في نمطٍ آسر مستحوذ قابض مستمر، ولكن متجادّ بدماء نضرة، كل شيء قيل، ويقال من جديد، كأنه جديد، ولكن لا جِدّة فيه لأنه بكر – كلّ مرة– مفترع من أوّل وجديد، لم يسبق له ظهور، لم تسبر له أغوار، بل لم يكد يمس سطحه من قبل.

انتصاب القلب لهذا الحب دواماً لاينال منه أفول..

أصبحت أحلامي بك الآن أقوى من كل حقيقة، أو أوشكت أن تكون، لفرط مثولها وحضورها الحيّ الحار الموجع. فماذا حدث للحقائق عندي، وعندك؟

أمّا أحزان العالم فقد أصبحت الآن طامية، لا خلاَص منها. غمرتْ الأرض هذه الأمواج المثقلة بدماءٍ متخثّرة، تترقرق بل تلتطم وتدوّم في قلبي أنا أيضا، لا تنحسر.

أمواج القهر، والظلم ، والقسوة، وتكسُّر الآمال.

كيف تخرج الشوكَ من قلبك؟

أم هل تريد أن تخرجه، حتى؟

التوق والنفْي، التوحّد والنُكْر، التموّج الرقراق وجمود الأوصال، الاندماج والتخلي، في سلسلةٍ لاتنتهي، متصلة، في إيقاع متناوب، مضطرب الذبذبات، لكنه لا ينقطع.

مازال القناع الأبنوسيّ الأسود يحدّق إليّ، أم أنني الذي أُحدّق فيه، لايحول عنه بصري؟

حتى لو كان قد ضاع، أو سقط، أحسه ثقيلا على وجهي، لا أستطيع أن أنفضه عنّي، كأنما قد تحجّر ملتصقا بجلدي وعظام وجهي، ليس ثم فرجة ولو هينة بمقدار شعرة بيني وبينه، قناع صامت عاقل قانونه الزمت المزعوم أنه حكمة، قناع محبط وراضٍ بالحبوط.

لا.

الأظافر المثلومة لاتني تخمش القناع، تشقّق فيه شروخا، تُسقط منه فتاتا، تغور في خشبه الأسود وتتكسر إذ تترك فيه حفراً وخروماً وثغراتَ، لكنه لاينصدع، لاينشق، لايسقط. وما تني المخالب المتلوية المقصوفة السنان تخدشه، لاتكفّ.

اختلطت عليّ الوقائع.

فهل كان لديّ مثل هذا القناع أصلاً؟

ما الذي اشتريتُه من فنّان كوناكري الواقف بعربةٍ خشبية مكدسة بنفايات فنّه، بدائع مغمورة ومقضيّ عليها بالنسيان، وهو نحيل، لامع العينين، غير مكسور الروح؟

ماذا اشتريت منه؟ قناعاً من الأبنوس الأسود لعله لم يوجَد قط، أم تمثالاً لوجهِ امرأةٍ زنجية جميلة- كالحلم-من العاج السمنيّ الأبيض؟

هل كلّ هذه القصة إذن تخييلات، وشطْحات وَهْمٍ عنيد؟

قال: إذا كان الحسين بن منصور، وهو يسير إلى الصلّب قد استعار أبيات الحسين بن الضحّاك الخليع، فإنه، هو، قد استعار أبيات الحلاّج، وهو واقف دائما في ظلّ الذراعينِ المتقاطعين لحبّه، لم تكتمل مسيرته إلى الصليب، لم يرتفع على الخشبة، ولم يسقط عنها..

الفصل التاسع

يقين العطش

وكانت جنجر روجرز تنظر إليّ بعينين ماكرتين، معابثتين، ضاحكتين ومغويتين في وقتٍ معا. وكان وجهها الجميل يسقط عليه شعرها المتهدّل المسترسل حوله في فوضى مدروسة ومهندسة توحي بالحرية لكنها لاتومىء إلى التحلّل، وكأنما رياح الانطلاق هيّنة العنف تطير بالغدائر الناعمة كما يمكن أن تفعل يد الحبيب.

كانت الكتب القليلة مرصوصة بعناية من وراء زجاج البوريه الذي تحوّل إلى مكتبة وعلى خشبها الخلفي– فوق صف الكتب– رسمت بالحبر الأزرق علامة تعجب كبيرة جدا. وعلى قاعها جمجمة غزال مصوحة، بيضاء، جلبتها من الصحراء الليبية في ١٩٣٨ أثناء عملي الصبياني الجادّ مع خالي ناثان في إعادة رصف «طريق المعاهدة» الذي أصبح الآن الطريق الصحراوي. عادة رصف منذ أكثر من نصف قرن؟منذ أن كنت في الثانية عشرة؟ كأنها إرهاص بأنّ حياتي سوف تنقضي في الترميم، في إعادة الرصف، في ابتعاث الحياة في الأنقاض.

صورة جنجر روجرز، بالروتوغرافور الأزرق الداكن جدا، رافقتني طول صباي، وأنا أقرأ عن أخناتون، عن الأدب والدين عند قدماء المصريين، أو أفتح «التنين الذهبي» على أشعار كيتس عن «المرأة الجميلة بلا رحمة» وأشعار شيلي عن «أوزيماندياس» الهائل أحجاره المجيدة متناثرة ساقطة على رمال الزمن.

كانت نوريس، بعد ذلك، تجسيداً لهذا الحلم الصبي الذي امتزجت فيه چنچر روچرز بشهر زاد، والمرأة الجميلة القاسية تتخايل وراء قناع كليوباترة. وكانت ليلة النزول إلى البحر، عند السلسلة، في نزعة محرقة نحو إنهاء ألم هذا الحب المحبوط بالضرورة، نحو الارتماء في غمار الموج الأسود الصخّاب، ليلة في آخر الشتاء، وعندئذ وجدت على طحالب الشط أول تجليات التنّين.

أما رامة فَمَنْ تُجَسِّد، غير ذاتها بالطبع؟ هل هي تجلٍّ أخير لإستير امرأة خالي التي نمت على فخذيها الكبيرتين الدافئتين، وأنا في السابعة، بعد أن رأيت الموت لأول مرة ينقضّ بجسد بنت يانعة ألقت بنفسها من نافذة مدرسة البنات أمام بيتنا في غِيط العنَب؟ هذا الوجه الأسمر الرائق، هذا الجسم المتفجر بأنثوية لاتحبس، والصوت الحنون؟ بديل لأم متوهّمة مشتهاة أم «كا» قرينتي؟ أختي، صعيدية الوجه، ماتت، منذ خمسين سنة، في عزّ بكوريّتها؟ أم هي في النهاية بنت ضربها احتياج لا ينتهي للحنان الأبوي؟ هل هي تجسد للأسطوريّ، وللخالد؟ ألم أقل لك يارامة إن أسئلتي لاتنتهي؟

ومع ذلك فها هي ذي الأسئلة الكبيرة تُسأل، والقضايا الأساسية تُعالَج والإجابات الحقيقية يشار إليها، بالإيحاء أو بالإيماء، ويبقى كل شيء، كل شيء، بلا إجابة، ولا أمل.

هل هو يتمتع باليأس؟ بما في القنوط من راحة، حتى لو كان تقريراً بالعوز وركوناً إلى الافتقار؟ مادام «اليأس سرادقاً على النفس مضروباً بكل مكان»؟

أم أن هذه المتعة- حتى - محرّمة عليه، ينكرها على نفسه، يتردد يقينه من التأكيد إلى الدحض، ومن الثبوت إلى الانتفاء، والتراوح بين هذين

القطبين باستمرار. في التباسٍ متصل غامض العتمة غامض الضوء؟

عندما جاءها في استراحة تونا الجبل كانت تُعد العدة للانتقال منها بعد سنتين في الموقع. كان الهدوء شاملا ومقلقا إلى حد ما، بعد أن كان قد رأى هذا الموقع يعج بالحركة، منذ عدة شهور، حين كان العمال الصعايدة نازلين طالعين في داخل الحفريات الواسعة العميقة، منهم من يرفع المقاطف المعبأة بالرمال والتراب والهدَد الصغير، إلى أكوام بعيدة نوعاً ما، منهم من يغربل الرمل والتراب المحفور حديثا في غرابيل واسعة القطر، دقيقة الخروم، ومنهم «الخبراء» القدامي في الكار يكحتون جوانب الحفريات بحرصٍ وبطء، يعرفون قيمة كل شقفة وكل شظيّةٍ وكل عظمة بشرية أو حيوانية، المفتشون والمهندسون والملاحظون والريسا يروحون ويجيئون يشربون الشاي الأسود المغلي في الاستراحة الكبيرة، أو في النصبة غير الشرعية غير المسموح بها التي أقامها بعض شطّار العمال وراء الموقع، كلهم تحت شمس الصعيد الساحقة حتى في آخر الشتاء يتصببون عرقا، أطراف سجايرهم المشتعلة تبدو نقطا صفراء متوهجة في نور النهار ثقيل الوطأة، صوتِ العربات الحديدية الصغيرة تتدأدأ علي العجلات الثلاثة ذاهبة محملة بالهدَد أو راجعة فارغة وهي تكركر على الأرض الصخرية ثم تغوص فجأة في الرمل الناعم إذا غفل عنها سائقها لحظة إذ يدفعها بجهد أو يعود يجري بها، خاوية جرياً مرحا أو على مهلِه.

كل ذلك قد سكت.

كانت الاستراحة التي نزلِ فيها طه حسين في وقتٍ من الأوقات خاوية الآن إلا من الأثاث الحكومي العهدة، نزعت رامة عنها كل ما عمرها من أشيائها الشخصية الحيّة، أجزاء من ذاتها، طيلة سنتين كانت إقامتها فيها متقطعة، ولكن موصولة لفترةٍ لا بأس بها بعد كل انقطاع، شالت صور

منال، وعزّة، المصحف الشريف الكبير، مفتوح على قاعدته الخشبية القديمة (اشترتها من خان الخليلي وعندها فاتورة بالتاريخ والثمن والختم!) تحف زجاجية دقيقة من بافاريا وسكسونيا، صناعة القرن السابع عشر، أوانٍ ملونة مرهفة الصوغ من سلوفاكيا، كريستال على أشكال السمك والطاووس وصوانٍ مفلطحة منقوشة في لحمها الداخلي بأزهار ونباتات فارهة، من مورانو،أقنعة خشبية سوداء من الكونغو، ومن إندونيسيا، تماثيل إتروسكيّة من المرمر رقيقة الصياغة، ليس فيها قطعة أثرية مصرية واحدة– قطعاً لدابر الشبهات بلاشك – رفعت مفارش الموائد المطرزة أو المشغولة بالبرودري، لعلّها من شوار أمّها عندما تزوجت قبل أربعين سنة،ولفلفت أغطية السرير والملاءت الساتان الناعمة الوبرة، لم يتقلب عليها في حمّيا الحب قط، لم يكن قد بات معها في الموقع، قط، جاءت زيارته الأولى بعد هذا الانقطاع – القطيعة؟ – وهي تستعد للرحيل في اليوم نفسه، على طول.

راعه عدد أطقم فناجين القهوة والشاي، السيفر الغالي، والأكواب الصغيرة والكبيرة، والأطباق، وكل البريك أبراك الثمينة أوالزهيدة، تلفّها بعناية في ورق جرائد تحشوها بالقشّ، وترصها على طبقات من القش المفروش في كارتونات كبيرة.

كان لحديثهما صدىً يتردد بين الجدران العارية، وأرضية البلاط في الاستراحة التي خلّت فجأة الإمن هياكل الأثاث الجامدة.

كان مازال مأخوذا – قليلا– بمرأى كمية الأشياء الكراكيب الصغيرة الرهيفة النفيسة، وهي مشغولة عنه، تجمعها وتغلّفها بالورق الأزرق والقش، أو تطويها، وتولجها في أكياس كبيرة من النايلون.

قال لها: هل تسمحين لي بملاحظة صغيرة؟ أقولها طبعا بكل الحب الذي تعرفين، لا على أي سبيلٍ آخر، لم أكن أعرف غرامك هذا بالملْكية،

رغبتك في التملّك والتجميع والاستحواذ.

خطر بذهنه عندئذ – كالبرق– أيكون ذلك أيضاً موقفها من الحب، من الرجال؟

قالت، ساهمة قليلا، وقد توقفت لحظة عن التغليف والرصّ والترتيب، كأنها لم تنتبه من قبل:

– نعم. عندك حق. يجب أن أقلل من هذا النهم للتجميع ولتراكم الأشياء.

قال لنفسه: وتراكم الرجال؟

قال لها: أيكون في عملك بالآثار تعويضٌ من نوع ما، أو استبدالٌ على نحو ما لهذه النزعة؟ أنت تشرفين على اكتشاف ما تركه أجدادنا في مقابرهم الجميلة، من أشياء الحياة، تعملين على تنسيقها وتبويبها وتصنيفها وتسجيلها، أنت تستخرجين كلٍ هذه الأكوام من «الأشياء» من «الموضوعات» وتعيدينها إلى ملكية البلد، كأنك تستبدلين ذلك بملكيّتك أنت لها، تتخلين عن استحواذك الشخصيّ لها، تعوّضينه باستحواذ البلد كلهَا، أيمكن أن يكون هذا صحيحا، هل هو مجرد شطح منّي؟

أم هل أنّ صداقاتك ومحباتك ومعاشقك يارامة هي أيضا تكديسٌ وإحاطة لنفسك بما لاغنى لها عنه من ملكيات واستئثارات؟

زامت قليلا، في نوعٍ من المغاضبة والإنكار، مدت شفتيها الصغيرتين البريئتين من كل زواق، حمرتهما الطبيعية أقوى من أي زواق، وأصدرت مايمكن أن يكون صوت التصديق أو النفي أو التساؤل في وقتٍ معا.

يكاد هذا الصوت أن يكون طفليًا.

من غيابة نومها العميق، في الزمن البائد، جاءه هذا الصوت:

– أين تذهب؟ لا تتركني. خلّك معي..لا تذهب.

انحنى عليها هامسا كأنه يكلمها وهي مختبئة كامنة في داخل جسمها الجميل المنطوي على نفسه، فخذاها العظيمتان مضمومتان إلى بطنها الوثير، ذراعاها تحيطان إحداهما بالأخرى حول صدرها، نهداها مضغوطان بينهما كأنهما ينعمان بهذا الحبس الحميم، وقال:

– راجع إليك فورا. حبيبتي لن أتركك أبدا.

قال لنفسه: لم أف بوعدي. هأنذا قد خنت الأمانة. عقابي لاينتهي على هذا الإثم الذي لاغفران له في أي مكان.

قال: لكني لم أتوانَ عن حرارة الحركة إليها، لم أكفّ عن طلبي، حتى إن كنت لا أقوى على الوفاء.

أحيانا يعزي نفسه، مخاتلا ومخادعا نفسَه في الحقيقة: «ما الودّ تكرار الزيارة دائما،ولكن على مافي القلوب المعوّل» ألم يقل القدماء هذا كأنهم لم يتركوا شيئا لم يقولوه؟ لكن ما أشد سذاجة هذا التصور، ما أبسطه، وما أدعاه إلى الراحة أيضا، هل يستكين إلى أن مافي القلب في القلب؟ الحقّ أنه فقط على الفعل الخارجيّ، الموضوعيّ، الملموس –المعوّل. المعوّل على أن يخرج مافي الداخل– كامنا ودفينا– إلى الخارج، إلى ترجمة في السلوك، إلى اختيارات في فعلِ الحياة.

أين يقين العطش؟

حتى هذا يقع في خبيئة المدافن الجوّانيّة، لم تقع عليه معاول

الكشف.

ثم أنه عاد للّواذ بمهربه الأثير عند القدامى، وقال معهم، ترنيمةً داخلية «أرى الأيام صبغتها تحول، وما لهواك في قلبي نصول، يخاف من النوى من كان حيا، وإني بعدكم رجل قتيل» أم أن لغة الشعر العربي القديم أحدُّ اشتعالاً، وأعمق فجيعة، وأكثر امتلاء بالرثاء للذات، مما يطيق؟ هل هو حقا «رجل قتيل» أم أنه فقط يحيا في داخل قبرٍ جميل مصمت من الكلمات القديمة والجديدة، ومهمّات الترميم التي تجعل الأشياء —والمشاعر ربما— مُهنّدَسةً أكثر مما ينبغي، مصقولةً أكثر ممايبنغي؟

أخذتهما سيارة الهيئة حتى باب المسافرخانة.

قال للسائق: كتر خيرك ياحسن، روّح انت، خلاص. سنتصرف في العودة.

لم يكن حسن الذي نُقل للقاهرة الآن، يلبس الطاقية، بل شيئا بين البيريه والعمامة الصغيرة، مازال أنيقاً مع ذلك— على طريقته الصارخة— لأن العياقةداء.

قالت له بعد أن رجعتْ السيارة، حوّدتْ بحرص، واستقامتْ للخروج:

– أبوعلي سايق فيها، عامل فنّط، لكن واد جدع.

كانا قد عبرا تحت الحيطان السامقة لجامع سيدنا الحسين. داخل الجامع سكينةٌ وسلام وأنوارٌ هادئة مريحة الإضاءة، رأيا، معا، محبّي الحسين ومريديه، مستندين إلى الأعمدة الرشيقة، على السجاجيد، سارحين في ملكوت، مرتْ السيارة ببطء على دكاكين بائعي البخور، والنراجيل، والعطور

البلدي، وفندق المشهد الحسيني والمكتبات القديمة، والكتب المجلدة مذهبة العناوين من تزوير بيروت، صفوفاً متعاقبة، والكتيبات الخفيفة الهفهافة ذات الأغلفة الورق الزرقاء الباهتة والصفراء الباهتة التي تتكلم عن خصائص البغال وصفات الحور العين في جنّات النعيم وقصة الإسراء والمعراج وأحكام النساء في الطمث والعدة والإتيان من دبر ومنام الملكة شيحة وقصة الجمل والغزالة ومفتاح السلامة من أهوال يوم القيامة ونزهة الجلاّس في نوادرأبي نواس، يعرفها ويحفظها ويستعيد بعضها إذ تشقّ السيارة طريقها على هينة، أمام دكاكين ورق الدشت المقصوص بإحكام في مكعّبات عريضة متساوية تماما مرصوصة فوق بعضها بعضا حتى سقف الدكان الضيق المعتم رطب الأرضيّة. ثم انحرفت السيارة في مزنق نصف دائري ودخلت أمام «قهوة الطيّب» وباعة الكشري والبلح الأمهات ومصلحة الموازين والمكاييل حتى شارع قصر الشوق الضيّق القابع تحت جدران الجامع العتيق ومن أمام البيوت المتضامّة أبوابها مفتوحة عن ممرات ترابية تخرج منها الكتاكيت الصفراء وصغار البط تنقّ وتتدأدأ وتلقط رزقها من روث الأحصنة على أرض الشارع وقطيع الخرفان المختومة صوفها بالأحمر والأزرق، أمام أكوام صغيرة من البرسيم، نفذت إلى بطن السيارة رائحة الضأن الحريفة من صوفها الملبد، الستّات على الأبواب، مقعيات على أعجازهن الضخمة أو العجفاء، ينظرن إلى السيارة دون اهتمام، وينصرفن إلى تنقية الرزّ أو العدس بينما شيخ فانٍ على رأسه – في عز حرآخر الصيف– طاقية صوف رمداء مغزولة باليد، يدخن سيجارة رفيعة ملفوفة كأنه لن يدخن بعدها أبدا، فمه الأدرد مطبق على جسد السيجارة الأبيض النحيل،بلا أسنان، إطباق المستميت على لذة توشك أن تفنى ولا تعود أبدا. على جدار الجامع العتيق أفيش سينما، عن فيلم «لن أعود» بألوانه الصارخة، تقشّر جانب منه والتوى وانفكّ عن الحائط العريق، نظر إليها، ونظرت إليه، بفهم، وندّ عنها هذا

الصوت الطفليّ، هو الآن صوت الغضب المكبوت - على غير عادتها - والحسرة التي لا مخرج منها إلا بهذا الصوت الفيزيقيّ المكنون، لكنها قالت: «حتى هنا ظاهرة سمر وجدي ، أخطبوط الابتذال، والهبر، والفساد» تناثرت مياه الطفح الراكدة على أرضية الشارع، طستها العجلات، رغم تمهلها، فارتفع رشاشها إلى نافذة السيارة المفتوحة وأصابتها بضع قطرات منها وسطعت الرائحة العطنة ثم انجابت.

قامت المسافر خانة في نهاية المطاف شامخة، مهيبة، جميلة في وجه كل العطب.

وقام الخفير للتحية: «صباح الخير يابيه. صباح الفلّ ياست رامة. المسافرخانة نوّرت والله. دا زارنا النبي. أي خدمة يابيه؟نعم؟ لا، كله تمام إن شاء الله. كله آخر سيتم» كانت جلابيته البيضاء النظيفة تبدو ومريحة للعين. وكانت زوجته تحمل رضيعا تلقمة ثديها المرتخي، تمسكه بيد وباليد الأخرى تشوي ثلاثة أربعة سمكات بلطي متختخ على صفيحة فوق وابور الجاز، في مدخل الأثر العريق، بعد الباب الخشبي السامق السميك، شاخ جداً الآن، لايفتح ولا يقفل، لكنه محتفظ بنكهة شموخ عتيقة، رائحة السمك المشوي بالردّة، وفحيح الوابور المتّقد يملأ الممر الجانبي في المدخل. أمام باب المرحاض البلدي المفتوح، بنت منكوشة الشعر لم تسرّحه ويمكن لم تغسله من أيام، فستانها المشجر الجديد طويل عليها ونازل تحت قدميها المتربتين في زنّوبة بلاستيك خضراء ووراءها ولد أصغر منها، عليه نصف جلاّبية فقط، تغطي - بالكاد- عدّته الذكورية الصغيرة المتهدلة، وإصبعه في فمه، عيناه معلقتان بالزائرين اللذين أحسّ، بفطرة سريعة، أنهما مهمّان، وأن في أيديهما مصائر أبويه.

سلّمت رامة على الخفير، وسلّمت على زوجته بدماثة وابتسامة آسرة

– كعادتها– نصفها ناجم عن خبرة طويلة، كأنها فطرة ثانية، بمعاملة الناس، هذه الطبقة من الناس على الأخص ولكن كل الناس عادة، ونصفها الآخر نابع عن حرارة روحها، عفوية وتلقائية وغير مصنوعة.

عبرا عن القاعة الكبيرة الفسيحة ذات السقف الخشبي العالي متقن الصنع، بهتت ألوانه الآن، وفيها رخام مكسّر وفسقية عطلانة. أقحمت عليها كراسي مهكّعة ومكتب نصّ لبّة، متهاوي الأركان. ما مكانها هنا؟ لزوم إثبات وجود للبيرقراطية العتيدة في المصلحة أو الهيئة أو المجلس الأعلى، لاتهم التسميات، لكن البيرقراطية هي كلية الأهمية.

تجاوزا العتبة، سلّمين رخاميين قلقين وخطرين، إلى الحوش الضيّق، في وسطه نخلة صغيرة ونضرة تحيط بها الجدران القديمة المشروخة. تطل على الحوش أكبر وأجمل مشربية باقية، عليها تراب، صحيح، ومسحة من عزة ذاهبة، لكن جمالها المنمنم مازالت له رهبة وسطوة.

قالت: انظر إلى الشقوق الطولية. هذا الجانب كله لن يحتمل طويلاً.

قال: الهيئة أنذرت الفنانين هنا في هذا الجانب أن يخلوا مراسمهم. طرد، أو خرج بطوعه عم ربيع، رأيته مرة هنا، أنت، النحات الفطري العجوز، وكل الآخرين، لم يبق في المسافرخانة إلا عدلي رزق الله، وزهران، وبلبع، فقط. في الجانب الآخر، هنا، هذا الجانب سليم نسبيا. لامفر من الترميم.

قالت: أنت تعرف، من خبرتك القديمة، لن تكون هناك ميزانية كافية، فإذا وجدت فلن تقوم بالعمل بيوت خبرة عريقة محترمة، سيحدث– كما تعرف– ترقيع مؤقت، وتلبيس خارجي على جروح غائرة، وتلييط بملاط أو ألوان حديثة فجة.

قال بحزن: من يدري إلى متى يصمد هذا المبنى الفريد الجميل،

ومتى يسقط، كما سقط غيره، مالم تلحقه عناية الله، أوعناية البعثة الألمانية التي أعادت إلى قصر بشتاك بهاءه ورونقه القديم.

لم تقل شيئاً.

قال: هل تعرفين أن فلوبير كان ينزل هنا، عندما كانت المسافرخانة هي الفندق - الخان- المفضّل، وأنه كان يقيم في الغرفة التي يقع فيها مرسم عدلي رزق الله الآن؟

قالت، ساهمة، بنصف اهتمام: لا، لم أكن أعرف، أهذا صحيح؟

كان مما يسوءها -قليلا، ولكن بالتأكيد- أن تُقال لها معلومات لم تكن تعرفها، كأنما كان مفروضاً أن تعرف كل شيء.

قال: أظن. لست موقنا. يخيل إليّ أنني رأيت صورة قديمة للكاتب، هل كان مفروضاً أن تعرفي كل شيء؟

قال: أظن. لست موقنا. يخيل إليّ أنني رأيت صورة قديمة للكاتب، هل كان فلوبير أو بيير لوتي؟ ملابس عربية فضفاضة، يطل من هذه المشربية، هل أنا أخلط بين المشربية وبين بيت السحيمي أو بينها وبين خان آخر؟ الله أعلم. ماذا يهم؟ ليس من عملي -ولا من همّي- التوثيق التاريخيّ على أي حال. لكن الصورة مؤكدة.

وعندما صعد السلّم الرخاميّ الجانبيّ المتهاوِي، بحذر، بين الجدران السامقة المصمتة، هاجمته فجأة صورة بيت الشعرى اليمانية، البيت الذي عرف فيه أجمل لحظات حياته. لسلم الحجريّ المحصور بين حيطانه، يفضي إليه حوش فيه الجميزة العتيقة، والزير تحتها، ونوبيّة البوابة الخادمة السودانية.

امتدت ذراعه دون أن يدرك تقريبا، ماذا يفعل، وأحاطت خصرها الهضيم فوق ربوة الردفين العظيمة، ضمها إليه برفق، توقفا في النور الخفيف، قبّلها على شفتيها ببطء وحنو. كانت المفاجأة قد أدهشتها لحظة، أعطته وجهاً غائبا، ثم دبّت في الفم المفاجأ حرارة تدرجت إلى حدة واحتدام متطلّب وحلو التلقّي، انفصلا وهما ينهجان قليلا. الاستثارة والاستجابة، كلتاهما، كانت سريعة عابرة ولكن عميقة الأثر.

ساوره هاجسه الملازم: الترميم كذب، الفن كذب، لأنه شئنا أم لم نشأ تجميل. لأن الأصل بكل خشونته، أو بهائه، أوبكارته، لن يعود.
للحطام - أو للانهيار- جماله الخاص الذي لاينبغي- لايجوز - «إصلاحه» أو تعديله، أو إعطاؤه صورةً مغايرةً مهما كانت مقاربة أو مشابهة، أوحتى مطابقة لأنها ليست الأصل.

أهذا كله كذب، حقا؟

أم هو الصدق بعينه لأنه خلْقٌ جديد، وفقاً لمعايير جديدة هي الأحق ربما أو الأجمل ربما، لكنها جديدة على أي حال.

لاشيء يحدث مرةً أخرى. لاشيء.

كلّ محاولاته لترميم المنهار من أمره -أو أمر أيّ شيء- لابد أن تبوء بالإخفاق، إن ما يرممه ، مايبتعثه، ليس هوما حدث، ليس هو «البضاعة الأصليّة» أبداً. على أحسن الفروض هو صورة مخايلة بأنها مطابقة - ما أبعدها مع ذلك عن هذه المطابقة - لما كان . اللوحة لاتعود لبهاء بكارتها قط بعد أن يعمل فيها فرشاته وألوانه الجديدة، التمثال لايسترجع قوة وقعه أبدا بعد أن يعيد تركيب شظاياه ويستكمل ماضاع من أطرافه، البناء لايقوم كماكان في الأصل، أبداً، بعد أن يرمم ركنه الساقط أو يعيد معماره حسب

تصوّره طبقا لأصلٍ قد ضاع للأبد. ليس ثم استعادة، ولاتطابُق من باب أولَى، ولاابتعاث، حتى، لشيء قائم ولكنه كامن. هو دائماً خلق آخر، تغيير، أو جدة أخرى.

وإذن فإن كل قضيته خاسرة.

خاسرة حتى قبل أن تبدأ.

قضيته هي أن الماضي لاينقضي، وأنه ماثل أبداً.

أيّ وهم!

أيّ تشبثٍ طفليّ بخلود مستحيل!

على العكس، عندما رُمّمت المسافرخانة– وكل العَظَمَات الأخرى– فقدت شيئا لايعوّض، أو بدتْ مشوّهة وجريحة.

أهذا ما يحدث أيضاً في أمرِ نفسه؟

أهذه القصة كلها، معادةً ومرممةً، قد اعتراها شوّهٌ لا برء منه، ونالها حيّفٌ على يد تجميلٍ –أو تقبيحٍ – متوهَّم أو حقيقيّ؟مقصودٍ أوعفويّ؟

من ذا الذي يستطيع أن يجيب؟

من ناحية أخرى، لعلّ البنيان الجديد هو وحده القادر على كشف الجوهر الذي كان يختفي وراء قناع الماضي؟

لعلّ «البضاعة الأصليّة» في النهاية هي الصورة الزائفة التي يعيد إليها الترميم والتجميع صدقها الداخلي الدفين؟

أليس في ذلك كله ألَمٌ لايُطاق؟

ألمٌ لايطاق.

هل كل الناس تتألم هذا الألم الذي لايطاق؟ كأنني أبحث عن عزاءٍ في هذا السؤال! أعرف أن هذا سخيف، وأنه وقتيّ، وأنه عابر، لكنه متكرر، مستمر. وأوقن مع ذلك أنه يمكن احتماله وإطاقته، والحياة معه. أليست هذه حياتي؟ أن أطيق الألم؟ ولكني مللت، مللت، ضاق بي الملل من كل هذا الايجاع.

لاياشيخ..!

وماذا في ذلك كله، يعني؟

الناس كلهم يتألمون، ويَخلُصون من الألم بطريقةٍ أو أخرى، لماذا لاتعرف أن تخلص منه أنت؟

لأنه دائما تهاجمني سوراتٌ من حمى قديمة، أسئلة قديمة، حمّى توجّع قديم.

لأنك لا تصمد لها؟

بل أقف في وجهها. ألاترى؟

قلنا، أعدْنا وزدْنا ألف مرة، الألم ليس رومانتيكياً ولا حاجة. الألمٍ واقعةٌ حسّية، فقط، لَعلّها واقعة روحيّةٍ أيضا، وماذا في ذلك؟ الألم شيء خام، خشن، مشعّث غير مصقولٍ وغير جميل بأيّ معنى من المعاني.

اسألْني أنا.

سلّمنا وآمنّا.

طيّب وماذا بعد؟

لاشيء.لاشيء.

هذا هو؛ ببساطة.

عندما قرأتْ رسالتَه الطويلة، بعد سنوات، قالت له:

- كنت سعيدةً جدا، وحزينة جدا.

قال - أفهم، على نحوٍ ما، أنك كنتِ بها سعيدة. لكن لماذا حزينة، بالضبط، يعني؟

قالت: على لحظات ضائعة، ضيّعناها بسوء الفهم، أو زيغ الفهم، أو قلّة الفهم، أو اللافهم، أو لأسبابٍ أخرى. لكنها ضاعت. خسارة.

أحس كما لو أنه كان في السابعة عشرة، مُحباً وضائعا، هو، الذي ضاع، وليس فقط ما انحسر ولن يعود أبدا من لحظَات سعادةٍ مفقودة.

استدركت قائلة: ولكن يبقى أنه كانت هناك لحظات مَجْد.

هتف: ياه..! نعم، نعم، تقولين لي؟ وأي مجد، وأيّ تحقق! نعم. نعم!.

عندما جاءت، صَدَمَه مرة أخرى إلى ما لانهاية، مجد جمالها. كأنها تنضج وتظل نضرة على الدوام، مشعة وباذخة الأنوثة، وكأنه مازال في السابعة عشرة، قال:

- مازلت أحبك كما لو أنني عرفتك وأحببتك بالأمس فقط. بكل قوة هذا الحب.

مرّ بإصبعه على حاجبيها. كان يحلم بهذا منذ سنوات.

قالت له: لم أفهم ما دار بذهنك أنّه ما كان بيننا في تلك الجلسة مع صديقك. أحقيقةً ظننت هذا؟ كيف خطر ببالك؟

لم تذكر اسم صديقه، مع أنه كان واثقاً أنها تتذكره.

قالت: الحكاية كلها أنني كنت أريد، بكل حرارة قلبي، أن أبرر حبّك لي، أمام صديقك. لماذا أنت تحب هذه المرأة. أردت أن أبرّر مشاعرك نحوي. هذا كل شيء. ماذا قال هو، صديقك؟

أجابها: غضب جداً. قال إنني لم أرَشيئا، إنني مجنون، إنني لم أفهم شيئاً، وأشياء أخرى من هذا القبيل.

قالت: كل ما دار بيننا هو فقط حديثُ مثقفين، يعرفون الأوبرا مثلاً، إلى آخره.

فلم يقل لها، في تلك اللحظات القلائل التي أُتيحت لهما، ونعم فيها بوجود حسنها الطاغي معه، ومجد حضورها، ومحبّتها، لم يرد أن يحمّل تلك اللحظات الهاربة مالاتحتمل، فلمَ يقل لها، كما لم يَقل من قَبل لنور الدين:

وفيم كانت ضرورة أن يحكي، يحكي هو، عن أوضاع الممارسات الجنسية في «كاماسوترا»، في نيبال وتايلاند، بكل تفصيلاتها الذهنية، وبكلماتٍ علمية؟

ولم يقل لها أيضاً: وماذا كان بوسعك أن تفعلي، ياترى؟ أن تأخذي موقف التزمت المتحشّم الزائف؟ أن تقومي منصرفة بعد ذلك مباشرة مثلاً؟ ولماذا لم أوقف، أنا، هذا النوع من «الخطاب»؟ نعم، أصدّقك تماماً، وأنا على نحوٍ ما سعيد به، سعيد بأنك أحسست أن يكون حبي لك مبرراً في عيني صديقي، أنتِ فعلتِ ذلك حقاً. ولكن.. هناك دائماً في قلبي المتحيّر

«لكن...» في لَدَد الحب و«الغيرة الطفليّة»، كما قلت – هناك أسئلة كأنما قَدَري ألا إجابة عنها.

فلم تقل شيئاً.

عندما دخلتْ كان وجهها متضرجاً، نديا بالعرق، وأنفاسها متسارعة، قالت إن المصعد كان معطلاً وأنها نزلت وصَعدت تسعة أدوار على قدميها.

كانت غرفته حارّة، قالت: «هل هذه هي الغرفة التي يخلعون لها الملابس!» وضحكت. نضَت عنها الجاكتة وبدا كتفاها الرائعتان المدوّرتان من تحت البلوزة ذات الشريطين العريضين التي تكشف عن ذراعيها المدملجيّن وعن جانبٍ صغير من صدرها تبدو منه حمّالة السوتيان الأبيض، ناصعة البياض. كانت بشرتها ناعمة الشكل والملمس، مغوية، وكان يموت أن يأخذها إليه، يحضنها، يطفئ عطشاً قديماً محرقاً، يعرف أنه لن ينطفئ أبداً، ولن ينطفئ لمجرد أن يضمها إليه. لكنه، لسببٍ ما، لم يستطع إلا أن يلمس كتفها لمساً خفيفاً، وأن يقبّل يدها بسرعة، ويضع يده عليها لحظة.

لم يقل لها ما كان يعتمل بقوة في صدره.

«أنت تعيشين إلى الأبد»

ومضت تحكي له حكايات لانهاية لها. عادت إليه شهرزاد القديمة التي عرفها واستمع إليها وسحرته من عشرين عاماً–وأكثر–حكت له أشياء، وشربا معاً من فنجان قهوة كبير واحد، محوّج ع الريحة نفّاذ الطعم وثقيل الرائحة، لكنه طول الوقت، دون أن يتوقف ذلك لحظة واحدة، يريد أن يقول لها فقط: أُحبك. أُحبك، ولم يقلها، ولم يكن يريد أن يقول شيئاً غيرها. أُحبك.

وهي تنهض لتمضي، قال لها: أعطيني حضناً.

كانت قبلتها حانية وحارة وحقيقية، كم أحسَّ شفتيها ناعمتين من الحنو والحب، كم أحس تدويرات جسمها مطواعاً ولدنة وحميمة إليه. عادت إليه كل أمجاد هذا الجسد، بكل طراوتها وسطوتها معا، ذراعاها تحيطان بعنقه ثم تنزلان فتطوقان وسطه، تضمه إليها بخفّة.

قالت له: خلِّ بالك من نفسك. اكتبْ لي.

عطشي لايُطاق، أمطارٌ لاتسقط. اخطبوط متقطع الأطراف يحيطني بالحبوط حطام أوطار حطت بها طوارق البطلان العاطفيّة تتفطر النياط من وطأة القطيعة تطبق أخطار مطردة طال بي طراد طموحاتٍ مطروحة على أطراف البطاح طوقتني وحطّت على طيور الطوامّ خطوط رقطاء تطيح بي.

انفرط سمطُ أطماعي في الانطلاق وسط مناطقك الطيّعة تطاردني خُطاك المتطايرة على صراط غير موطّأ وغير مطروق شرائط قطيفتك حول بطنك إطار يبطّن اسطوانتي أنبطح على سطوح طلّحك في ورطة طلّعك طريح مطالبي غير المطواعة أميط المرط عن أطايبك المطويّة أستطعم عطر الطَلى الطامي من مطرحك الطريّ الطهور يتقطر عليّ طوراً بعد طور أطفو وأهبط على طواياه الطازجة الرطبة تتخطر طواويس طروب أخالط الطينة الطافحة حتى أرطمها.

أنت وطني الوطيد يحوطني بعطاء وطمأنينة عندئذ تضطرب طيورُ الطَرب وتخبط الطبول أطلال طقوس كانت سَطوتها قاطعة.

أُحوِّط على أسطورتي.

في طريقهما، مشياً، إلى جامع قلاوون، وقفت رامة، الهانم أرستقراطية الذوق، على محلٍ يعلّق على بابه في عرض الطريق قمصان النوم الحريمي الشفتشي والسوتيانات المبطنّة والكيلوتات المخرّمة بدانتيللاّ ميكانيكيّة، على

بعد خطوات من الجامع العريق، واشترت منه مدورة حمراء ذات كريات قماشيّة بيضاء، سوف تلفّ بها شعرها الفواح بشذى الشبق، وقميص نوم أحمر ساتان لميع من النوع الذي تهواه بنات البلد: ديكولتيه فسيح يتيح للصدر حرية كاملة، ومقمّط على البطن، ثم ينتهي فوق الركبة بكورنيش واسع متعدد اللفلفات - سوف يعرفه في زمن متوهم أو فعليّ ماذا يهم؟- تنخرط منه ساقاها العبلتان السمراوان، بقوةٍ وفاعلية.

- والله جَمَرودين النبي جَمَر ١٤ عاد.!

وقف العربجي الصعيدي أمامهما وهي تشتري أشياءها.

قالت له بخفوت: فاكر عم أحمد العربجي، في المنيا؟

فابتسم، صامتا، وهو يتأمل عربجي الكارو، بعمامته البيضاء الكبيرة تنزل حتى حاجبيه الكثيفين وعينيه الثاقبتين، واقف على عربته الكارو، في يديه لجام البغلة المدندشة بغمّات ودلأيات نحاسية، تهز رأسها فتصدر عنها جلجلة وصلصلة رقيقة ومرهفة. على العربة حمولتها من النسوان أهل الحتّة - أو بلدياته من الصعيد لا فرق- وبناتهنّ وأولادهن، مكدسات جنبا إلى جنب، الصغار على حجور الأمهات أو على صدورهن يرضعون في الشارع من أثداء سمراء لاتكاد تخفيها طيات الملاءات الملفوفة على الوسط والملقاة بإهمال على الكتف، الملاية اللف البلدي اختفت من زمان، الطرح الصعيدي والشيلان القلاّبة من الأحمر القاني الأرجواني إلى زرقة لامعة داكنة باهتزاز وبرها في الهواء، في آخر العربة الكارو رجلان ثلاثة، صعايدة أو أولاد بلد، كأنهم في خجل لأنهم يركبون العربة مع النسوان والعيال، ولكن للضرورة أحكام.

- شي.. حا..وعنسيب الجَمَر لمين؟

وهو يقرقع بالكرباج القصير يحرص ألا يصل إلى جلد البغلة القوية الفارهة.

قالت له، همسا: لاتُرَعْ ياحبيبي. لي نزوات من هذا القبيل.

أجابها باسما، بخفوت، دمه متسارع النبض: أموت أنا في نزواتك.

كان عليهما أن يمرا فوق عوارض خشبية ملقاة أمام باب الجامع المهيب، عبر برك من المياه الطافحة، وأن يلتقطا الخطى من بين ذكر البط الذي هبّ إليهما يفحّ وينافح عن حريمه وقد تبعنه يتدأدأن في مشيتهن وتهتز أطرافهن الخلفية في حركة موقّعة وهن يطبطن ويدرن رؤوسهن شمالاً ويمينابانتظام.

العيال الذين تجمعوا فجأة، عشرات منهم، خرجوا من خيام أقيمت في صحن الجامع ووقفوا يتفرجون على البيه المهندس والستّ مفتشة الآثار، ومن تحت الخيام صوت البوتاجازات وبوابير الجاز واصطفاق الغسيل في الطشوت المليئة بالماء والصابون، وروائح الطبيخ وهبو الأكل المسبّك فوح التقلية بالثوم والبصل والبامية والفلفل المقلي والسمك المشوي بالردة.بين الأعمدة المرمرية البيضاء ذات التيجان الإغريقية، تحت عقود رخامية سامقة التدوير، امتدت حبال الغسيل وعليها الهدوم الملوّنة والملاءات الفزدقى والبيضاء، مشبوهة البياض، ،تعلن عن انتصارات الليالي – إذ دلقت مياه الطشوت، بعد الحموم المتأخّرَ، في الحوش، وجنبها اللباسات العبّك الرجالي ذات الأرجل الطويلة تشرّ بنقط الماء على الأرضية الرخام جنب فساتين البيت المشجّرة وقمصان النوم الحريمي النايلون خليعة الألوان، يصطفق بها الهواء.

بعد لحظة ملّ الأطفال فاستأنفوا لعبهم بالكرة الشراب في ساحة

الجامع العريق، ثم تسابقوا فجأة إلى المنبر التاريخيّ المخروط بالعاج والصدف والخشب الملوّن، يلعبون وراءه وحوله لعبة استغماية صاخبة.

قالت: ستة وستون أسرة تسكن وكالة قايتباي من سنين. انهدت بيوتهم، وهانحن الآن متى ؟مارس ٧٧، ومازالت المحافظة ووزارة الأوقاف والحكومة كلها عاجزة عن أن تدبر لهم مساكن.

قال: لماذا لاتجد المحافظة مكاناً لإيواء المنكوبين إلا في الجوامع الأثرية؟ لأنه ليس لها صاحب؟ لأنها واسعة ومهجورة؟ لماذا؟

قالت: ألم تلاحظ أننا جميعا، المسؤولين والناس، نتعامل مع الآثار، فرعونية قبطية إسلامية لافرق، باعتبارها جزءاً من حياتنا اليومية، ملكنا كلنا، نأخذها مأخذ الأشياء المسلّم بها المعطاة، ندقّ على الحيطان الأثرية مسامير غليظة نعلّق فيها فترينات للسجاير والخردوات، ونمدّ عليها مصابيح النيون، أسلاك الكهرباء مدلدلة من المآذن والعواميد- غالبا الكهرباء مسروقة فوق البيعة- لايهم، تحتها أكوام البضائع، الخضار والليمون والقلقاس والبطاطس والطماطم الطازة، كله ماشي، ونربط الحمار بباب الأثر ونركن عليه العربة الكارو، كلّه ماشي، وبعدين الناس يعيشون حياتهم، يطبخون ويأكلون وينامون مع بعضهم بعضا، جنب الأولاد والبنات، على مرأى ومسمع منهم، معلهش، ثم يقضون حاجاتهم في الميضة، والعيال على قارعة الشارع، المياه من الحنفية العمومية أو من مواسيرمدّتها لهم مصلحة المياه مشكورة، على الآثار.

قال: صحيح. ليست الآثار عندنا محل هيبة ورهبة، على الإطلاق، ليست متاحف محوطة بالإجلال والتوقير، لايعاملها الناس معاملة «متاحف» أو «آثار» بل معاملة «أشياء الحياة» وأحيانا أشياء الفرجة والنزهة والتهريج، انظري كيف يطبّل طلبة الجامعة ويرقصون ويتقصعون، على واحدة ونصّ في

الكرنك، تحت هامات الآلهة.

تحت هامات الآلهةعرفتُ، تيقنتُ لم يعد يراودني أدنى شك في أنكِ حقا تحبينني. أنك تذكرينني، بين الحين والحين ،بحنوٍ، وفهم.أنك تبتسمينَ أحيانا لذكرى حنان، أو أنك تشتاقين أحيانا للمستي وتتوقين إلى قبلتي.

لو أنني عرفت أنك لم تقرري- وتنفذي قرارك- أن تطرديني من حياتك، تلغيني من قلبك، تنفيني من ذاكرتك، لو أنني اطمأننت أنك مازلت تحملين لي شيئا من انعطافِ الحب، ودفء الفهم، فهل كان هذا الفراق يصبح أهون احتمالاً، وهذا البعد أقل عذابا؟ أم العكس، لكانت اللهفة عندئذ، واللوعة، وحرقة الفراق تستشيط جنونا، حقا، وكي اللحم بالشوق عندئذ ليصبح أحدّ اتقاداً وأنفذ طعنا؟

لا أعرف.

أظن أنني لو عرفت حبكِ واهتمامك لكنت أقدر على احتمال عبء الابتعاد وإن كنت سأظل أعمقَ توقاً، وأشد اضطراما بالحب.

لن أعرف أبدا، أليس كذلك؟

أليس هذا بالضبط ماقلتِ لي؟ لن أعرف أبدا. وأضفتِ «خسارة!» يالها من خسارة.. أو شيئاً بهذا المعنَى.

لن أعرف أبدا، لأنني أظن أنني لن نلتقي أبدا كما كان اللقاء. وحتى إذا التقينا فلا يعود شيء أبدا «الشمس لاتشرق مرتين» مجد سطوعها لايعود.

بل أن توجيه مثل هذا السؤال: «لو أنني عرفت..» لن أعرف أبدا.. هل فيه شيء من الاستهانة، أو التقليل من شأن ماحدث، وما لعله يحدث؟ أم، على العكس، فيه كلّ التكريم للعشق وكل لهفة على الصبوات القديمة

والقائمة وكل التوق إلى اليقين؟

هل من يقين؟

لما انتَ ناوي تغيب على طول، مش كنت آخر مرة تقول.

بشيء من المرارة وربما بشيء من السخرية بالذات أيضا كان يسمع بالصدفة مرة أخرى إلى الأغنية القديمة. وهاجمته عبرة كأنها من ستين سنة - ياه..! - عندما كان يسمع هذه الأغنية من الجرامفون ذى البوق الكبير مفلطح الفوهة، والاسطوانة التي عليها صورة الكلب «صوت سيّده» يصغي بدوره إلى جرامفون مصغّر ذي بوق مفلطح الفوهة، في الغرفة التى عرفت فيها ألف ليلة وليلة، وانتصب- هل كان في العاشرة؟- وقذف وهو متمدد على الكنبة الاستنبولي، وحده، بلّل الملاءة البيضاء فأخفى البقعة بمساند اليد الصغيرة التى تتوسط الكنبة، وكانت أصوات صهيل الأحصنة تأتيه من الاصطبل تحت البيت، عبر المشربية البدائية- الشرفة المكلّلة فوق سورها بشبّاك خشبي واحدٍ عريض من الحائط للحائط بتعشيقة مربعات خضراء كابية اللون من القدم،وعلى مائدته البيضاوية الرخام كتبه ومجلات أبو للو ورواية مجنون ليلى لأحمد شوقي في الطبعة الأولى صغيرة الحجم غلافها مصقول وملون.

هل كان يملك ابتسامته المريرة، أم تلك العبْرة المحجوزة بالكاد، عبْر السنوات؟

مسافرٌ من الوحدة إلى الوحدة،من اليأس إلى اليأس.

غابت دُعابة الاقتراب وحنان الملامسة.

سقطت عليه الغربة،كأنها من الطير الأبابيل، فجأة.

في آخر ذلك الصيف، كانا في الشرفة العريضة، تحت الدغّلة الصغيرة من أشجار الدوم والمنجة، وكانا صامتين، دقت أجراس الكنيسة لصلاة العشيّة، وتلاها آذان العشاء، والترنيم الرخيم الجميل الذي يعرفه- الذي نفتقده في آذان الإسلاميين الجدد المنقول عن البدو بجفاوته وعنفه وخلوّه من كل عاطفة- وكان ثمّ حس بالمأوى إلى الحب- إلى مايشبه اليقين- وبما يقرب من نفي توتّرٍ يرود المدينة، بل يسودها.

قالت: في الصبح لاحظت الفوضى والاضطراب في الشوارع. «الجماعات» نظموا ياسيدي مظاهرة حاشدة أمام جامع القرطبي. النيران اشتعلت في إطارات السيارات. مرقت سيارة الهيئة-حسن السروجي لفّ من الشوارع الجانبية، ونفذنا من المظاهرة. قال لي إن ثلاثة من زعمائهم هربوا أثناء ترحيلهم من القاهرة إلى المنيا، تصوّر.. هربوا من سيارات الأمن المسلحة ومن بين جنود الأمن المدججين. هربوا، أم هرّبوا؟ منهم أبو غدّارة، الولد الذي كان وراء حكاية ميّادة ووراء خرافة الشقة الإليكترونية. قال لي حسن السروجي إن الأمن اعتقل أكثر من ثلاثمائة حتى اليوم وأن ثلاثة غيرهم- اشمعني ثلاثة يعني؟ رقم سحري!- المهمّ..ثلاثةغيرهم هربوا من قسم المنيا. «هربوا» من داخل قلعة القسم نفسها؟ حكى لي حسن بعد ذلك أنهم أحرقوا سيارة مفتش مباحث أمن الدولة، وسيارة ثانية لقسيس، وجاء ملثمون إلى مخبر سرّي جدا!- ضربوه بالبلَط والسكاكين، مات في المستشفى..

عندما جاءت السيول اجتاحت المياه الممرات والمخابئ الجبلية التى يأوي اليها الإسلاميون في الجبل الشرقيّ، زراعات القَصب التي اجتثتها قوات الأمن على طيلة عشرات الكيلو مترات دفعت عنها الحكومة تعويضات. مصانع السكر خفضت طاقتها. بعد السيول الناس جاعوا، وطبعا تشردوا،

وطبعا البهائم والدواجن –باللغة الرسمية– يعني حيلتهم في الدنيا، نفقت، مئات البيوت، مئات حرفيا، انهارت إلى أكوام من الطين والتراب، الزراعات خربت تحت المياه، بقية البلاوي معروفة، وحِلّني حتى تأتي النجدة والإيواء. بعد ذلك، هل لأية قصة-حب أهمية؟

قالت، على عكس المتوقع منها: نعم.

فقط.

نظرت إليه نظرتها تلك المحمّلة بمعانٍ لم يستطع قط أن يتأولها.

– نعم.

ماجدوى الكلمات، والحكايات؟

الكلمات عدوٌ لي. لا أمل في مصالحته ولافي النصرة عليه.

الكلمات.. ماذا أفعل؟ أتكلم، أصوغ ما لاصيغة له ومالايمكن أن تكون له صيغة. هذَر. لافعل. لاشيء، لامعنى..لاجدوى.

حتى الكلمات لاتصل إليها، هي، هي الوحيدة التي لابدّ أن تصلها، لاتصل.

صحيح أن الكلمات لاتصل إلى حدّ الرصاص، أيضا. لكنها لاتسمع الكلمات، لايصل إليها صوت الرصاص. عاكفة هي على المِلحّ من أمرها، وكل أمرها مِلحّ، لاتسمع الكلمات.

صخور العطش سوداء.

رمالٌ صادية أجسامٌ مصوّحة من الظمأ العطش ضربات غائرة غُلّة لا

تنتقع العطش في مهامه الأُوام لا شطوط لها العطش أطرافٌ راحت طعمة للغربان والحدأ المحومّة الهيام بلا يقين.

كان خطأ حقيقيا أن يدير اسطوانة «مراثي إرميا» التي أهداه إياها سامي، على الغداء. كانا في ركن الغرفة التي يقبع فيها الوحش الموسيقيّ العظيم. على المائدة المدورة مفرش مطرّز أنيق، نور النافذة الناعم ينضاف إلى نور شمعتين بيضاويتين طويلتين، مضلّعتين، أطباق منتقاة بعناية، شرائح رطبة فاتحة الصهبة مشرّجة من السومون فيِميه الذي يحبّه، النبيذ الأبيض من الألزاس في زجاجته ذات الرقبة المسحوبة الطويلة، أعواد الاسْبرج الخضراء اليانعة الملفوفة تنتهي برؤوس بيضاء دسمة البياض بنفس لون بطانتها الداخلية العاجيّة، على مثل هذا الترف المرهف في استطعام لذّات الپاليتْ كيف تأتي موسيقى هل هي عويل أم صوت نواح الروح التي لا صوت لها لايمكن تفسيرها ولايمكن قبولها.

عندئذ قلتُ لها:هذا أنا. هذا صوتي.

تنمرت على الفور، أوشكت أن تشيح بسمعها، بل أعارتني تلك الأذن الصماء التي يضرب بها المثل،بلا مبالاةٍ كاملة، أو أكثر، بما يبدو أنه نوع من الرفض التام.

إرميا لايُطاق.

القهر، الفقر، الجوع، ظلام الروح، كلها لاتطاق.

ثم آتي فأقول: «هذا أنا» ذلك أكثر مما لايطاق، حتّى.

ومتى؟ في أيّ سياق؟

هل هناك سياقٌ خارج وحوش الألم؟

ومع ذلك فما زالت الموسيقى الرومانتيكية توجع قلبي بجمالها، أدحضها وأنكرها، وليس هناك في الفنون ماهو أقرب إليّ منها، ولا أوثق حميميّة. ولا الشعر. أعشقها عشق الخونة-كما أعشق لغتي- لأنني على استعداد لأن أموت في غمرة خيانتي لها. أخونها لأنني لا أعرف أبدا أن أصل إلى كمالها. أهذا إيمان منكور؟

«أموت شهيد الجراح.. ويعيش جمالك ويبقى»

لم تبكني مراثي إرميا.

نظرت، من خلال دموع لم تنسكب، إلى النافذة من وراء ستارتها الشفافة الرقيقة، إلى الشجر الغريب الذى بدا لي باردا وكثيفا في ذلك الفناء الخالي، تحت سماء محايدة، في بيت الشعرى اليمانية الذي لم أحبّ مكانا في العالم قدرما أحبه.

قالت: الموسيقى ليست إسقاطا على حزن أو فرح.بل هي بناء في ذاته.

جرحتني بذلك، طبعا، جرحا لم يبرأ. لذلك لا أبرئها -هي- من إثم معيّن. ولذلك لا أني أعود إلى هذه الحكاية في نوع من الحواذ يكاد يكون مرضيًا.

رجل يبكي؟

هذا رجل مضحك، في نظر نفسه، مثير للسخرية قليلا، وربما للإشفاق.

ومهما كان تبريرها أنها على كل حال «لاتحب طرزان» بما يعني ان ضعف الدموع ممكن، بل، ومقبول، لأنه إنساني، ومتحضّر، ربما، فذلك كله ما لا أقبله أنا، بنوع، من الكبرياء الهشّة المثيرة أيضا للضحك.

على أي حال فإنني أرفض البكاء، والسخرية، والإشفاق جميعا. وأضحك، أضحك من القلب ومن وراء القلب معاً. لابد أن أضحك. يجب أن أضحك. ويجب أيضا أن أكفّ عن كل هذه الميلودراما المؤسية تقريباً والتافهة، العارية، المبتذلة، المألوفة، المتكررة.

مازال الملح يملأ القلب ويفيض. لا أملك ردّه، على الرغم من ذلك.

ماذا أقول؟

على الأقل يبدو أنك لاتسمعين. أو يبدو أنك تسمعين شيئا آخر، هذا مالا أطيق. وعلي، كالعادة، أن أطيقه، وأنا، كالعادة، أطيقه فعلا. إلى متى؟ وكيف يستمر هذا؟ أن يكون الصمت- صمتك- حولي كاملا هو أن يكون اليأس كاملا. هل أستطيع أن أتحدث اليك؟ اليأس كامل حتى وأنا أتحدث اليك.

وبعد ذلك، أو قبل ذلك، هل سمعت أنا منك؟ هل أجبت عليك؟ أنا أيضا؟

أيمكن أن يكون الصمت قد ضرب بيننا، من جانب ومن آخر؟ أيمكن أن يكون اليأس قد ضرب علينا، على هذا الكمال في الضربة المصمية؟

لماذا لم أستطع أن أبقي عيْني جافّتين؟

كان البكاء صاخباً، كأنه لأول مرة، وكان حادا جدا، وصامتا. لماذا

يجب أن أقول ذلك، ولماذا أقوله، ولماذا يجب أن أقول أنني غاضب جدا منه ومن أنني أقوله في الوقت نفسه؟ غاضب ولن أقبله أبدا ولن أسلّم له.وهو كله نوع من القبول بالطبع.

هل أستفيق أبداً من نّيل الغوائلِ؟

أبكي، لأنني لست الله، كأنني كنت أريد أن أتخذ مكانه، أن أشكّل العالم، أن أعيد صياغة وجهها أمام العالم.

الله لايبكي.

رامة، نعمة، نوريس أيا كانت أسماؤك الأخرى حتحور إيزيس ليليث عشتار أو إينانا.. أي ذاتي الأخرى، مازلنا غريبين. ليس من الضروري طبعا أن تكون لك أسماء أسطورية، ولكن بالفعل لك الأسماء حسنى.

تضرب بيننا الريح، غريبٌ أنا ياحبيبة، هكذا ظللت أقول لنفسي، طول عمري، فمن أنتِ؟

وطني بين ذراعيك الناعمتين، أين وطني؟

يومي غربةٌ لاتنتهي، هكذا قلت لنفسي كثيرا. طال بي المنفى.

الريح تخفق بخصلةٍ على جبهتك وتلمس وجنتيك، السحبُ في سماءٍ مشفية على محطة الرمل الساكتة في أول الفجر، ترمي عليّ أضواءها الكابيةَ.

أنتِ في قميص النوم- أياً كان-مبذولة ومنيعة معا. هل حبي آفاق موحشة؟

صرخة الريح في مدينة مقفرة، خلت من أهلها، إشارات المرور الخضراء والحمراء تشتعل وتنطفئ بانتظام في شوارع ليس فيها أحد.

تتبعكِ عيناي،وعلى هُدب السماء دموع، أو هكذا ظننت، لأنني رومانتيكي.

قلت لنفسي: بيني وبين الرقة في كيانكِ خطوة واحدة، ظننتها في طول الأبد.

الأبد كلمة لامعنى لها.

ذراعاي تمتدان نحوك. ناء بذراعيّ شوقٌ كأثقال السماء.

أنظر إلى عمق عينيك، أجدكِ في نهاية الطريق. هاقد وصلتُ إلى نهاية الطريق. لماذا لا أجدك؟

ذرعتُ إليك آماداً طوالا، في ليلةٍ بدأت منذ الأزل.

لكن الأزل– أيضاً– كلمة سخيفة.

هاهي ذي الريح، من غير مبالاة،قد جففت ندى عينيّ، تركت مكانه أثر ملحٍ طفيف جدا.

قلت: هل أنا مريض؟هل أذهب إلى طبيب؟

أنت مازلت بعيدة جدا، في آخر الطريق.

مع أن الطريق أوشك أن ينتهي.

غريبٌ أنا ياحبيبةً لا أعرف اسمها، هكذا أقول، أعيد وأزيد.

وأقول أيضا: هذا أمر غير مهم.

صحيح، وطني بعيد، وليلي لاينتهي، والحيرة تحاصرني، هكذا، من غير مناسبة.

تعبت عيناي من التحديق في السماوات الخاوية، متى أُغمضهما على تهديك؟

لماذا أُنكر طوفانَ النعمة الذي غمرني، لماذا أُنكره؟

ألم يقل ذو النون– بلديّاتي الإخميمي بالمناسبة: «أعرفُ الناسِ بمحبوبه أشدّهم تحيّراً فيه»

وقال أيضا: «إذا صحّ اليقين في القلب صحّ الخوف فيه»

هل يقينُ العطش إنما يتأتّى من يأس التحقق، ونفاد الصبر على الألم، ونفض اليد من الطلب المستحيل، والتوجّس من قصور الحوْل وسقوط المنّةَ؟

يقينٌ ليس نهائيا، بالطبع، موضوعٌ للسؤال، ككلّ شيء آخر.

لو كان نهائيا لما كانت ثم حاجة لابتعاث الحديث عنه أصلا، لأن ضربته النهائية لاشفاء منها ولا رادّ لها.

اليقين مشكوك فيه، مضروب بالعطب.

«أحب الشمس تدق الباب، أحب الدنيا مرسومة،لكل اثنين من الأحباب» هاهاها..!

كان يوماً شتوياً وباردا. قال: «شتاء الصعيد في المساء يمكن أن يكون

قاسيا» عندما جاءت بعد غيبة ظنها لن تنتهي أبدا، أغلق الباب وراءها – ولما يكد– ضمّها إليه بعنف الشوق الذى كأنه لن يبرأ أبدا. كان معطفها الصوف ثقيلا، وله فرو على ياقته، وكانت رقبتها ملففة في كوفيّة بيضاء طويلة تنسدل على صدر المعطف، لكنه لم يبال، أخذها إلى جسمه دفن رأسه في تلك الحنية – التي يموت فيها– بين الكتف والعنق، تحت لمّة الشعر الوحف الفوّاح. ضحكت ضحكة خفيفة، وقالت: «انتظر قليلا. اصبر عليّ حتى أخلع هدومي طيب!» هو أيضا ضحك عندئذ، كان بالإمكان أيامها أن يضحك عاليا من مثل هذا الردّ،لم يكن ضروريا أن يؤوّله على الفور إلى نوع من الصدّ أو الرفض المضمر، بل لم يكن ليخطر له ذلك أصلاً. لماذا التأويلات؟ لماذا يتصور أن الرفض مضمر –يعني – فما المانع أن يكون صريحا؟ كرم نفسيّ منها، يعني؟ساعتها كانت ضحكته صبيانية قليلا، كأنه كان هو الابن الذي يلقى تأنيبا محباً، وليس الأب الذى تقول له ابنته النائمة: «لاتتركني!»

هذا الكلام كله، هذه الحكايات كلها، ما معناها الآن؟

معناه، ربما، أنني كم أتوق إلى هذا الحضن، إلى الحس بجسدك ملاصقا لجسمي،بين ذراعيّ، دمي يتدفق عندئذ أسرع،قلبي يخفق على صدرك أقوى.

كأنني أتكلم من جوف نفق طويل تحت الأرض، مهجور من زمان. صوتي غريب، بلغة تكاد تكون غير مفهومة.لم يعد أحد يتكلم هكذا الآن. غير مفهوم وغير مؤثّر ولعلّه مضحك أو مؤس قليلا. غريب على كل حال. هل هي صلاة في ديانة لم يعد يدين بها أحد؟ ليس لها إله، كتبها طلاسم وأحاج ودمدمة أو تمتمة لايقرأها أحد.

نفق، أو يمكن سرداب في مقبرة في الجبل الغربي، كُشفت من زمن ولم تستخدم، ولم يعد أحد يرى نقوشها وهيروغليفيتها، ولا أحَد يهتم، يعني.

قال، مُملّاً: هذه النوستالجيا الرومانتيكية كلها، ألها أيّ مكان اليوم؟

قال: معركتي مع الرومانتيكية لا تنتهي، ولا هي بطبيعتها محسومة أو قابلة أن تنحسم.

مهما كنتُ القانتَ المُعْطَى للعطش فلن يأتيني اليقين.

على أنني طول الوقت أُهاجر من هاجسِ اليقين إلى حقّ اليقين، وأعُود.

إذا كان العطش هو اليقين الوحيد - يعني الصمت- فما معنى كل هذا الذي تعمل أو تقول؟ ماجدوى التذكُّر والابتعاث والحنين؟ ماجدوى التحليل والتعليل والتركيب والتشكيل؟ ماجدوى الترميم الذي لاتستطيع مع ذلك أن تفرغ منه أبدا؟ ليس فيها متعة وليس لها قيمة أو سيما.دون چوان الذي عشيقته واحدة، بل أُحادية، مهما تعددت، يعني،ولكن محكوم عليه مقضيّ عليه بالعطش أبدا. دائب البحث عن الارتواء، ومامن رِيّ، ولا نهاية للبحث عن الريّ أيضا. عين اليقين التي لا تغيض.

وأياً كان حديثه عن سرّ الاقتران المقدس الذي لا يُنقَض ولا تنفصم عُراه أبدا، فقد كان - كما يعرف الآن- حَدَثاً عابراً في حياتها، أوحادثة، أوحكاية، سارة أحيانا، وباعثة على الضيق - بالأكثر - أحيانا، قد تكون قد طالت قليلا، لكنها على كل حال راحت لحالها.

البحث عن الدوام صبيانيّ،وبدائيّ قليلا.

ولكني – مع ذلك كله– أناجزكَ وأتحداك ـاحرمْني من فردوسك، ألقني في جحيمك ألف ألف عام. لن تنزع مني أنني حلقت بالنشوة إلى أعلى ما استطاع أحد أن يصل إليه، أنت بكل جبروتك لن تنسيني أنني ضممت أكوانك كلها في قبضتي وحطمتها شظايا متناثرة في أجواز الفضاء الأسود اللانهائي .عرفتها، عرفتها، عرفت حباً لامدى لحدوده، عرفت فخراً لن يطاولني فيه ربٌ ولاشيطان. هأنذا أفتح ذراعيّ على سعتهما. كل الأجرام والشموس السماوية ترتطم بصدري فإذا بها هباء.

ماعاد العطش مهّما.

فلتأت ياتنتالوس .. فلتأت.

رقصةُ ماتيس سلسلتُها موصولةٌ لاتنفصم.

رقصتي لم تتم.

كانت الشمس محرقة على جسدي الذي سلّمته لها مشتعلاً بنارٍ خفيّة عاريا في الهواء السخن، من وراء زجاج بلّوري. انصباب البحر علينا لايغرقنا بل يزيدنا جفافا .الشاطئ غائر تحتنا، عليه الحصى البركانّي المرقّط بخطوط بيضاء تبرق في حشاه الصلب ذرّات اليورانيوم المشعة كالإبر المغروزة، وتأتينا موسيقات الغجر التي أسرت في قوالبها الميكانيكية. خلعت المايوه، في يدها غلالة الإيشارب الكبيرة شفاقة الاحمرار ينفذ منها نور الظهر الخارق. الشمس مازالت محرقة. أمسك نفسي عن أن أنهض لأعانقها، ومع انهلال الموسيقى من المسجل الكامن في حائط تتصبب منه الحرارة نعومة أوصال الجسد تنهمر، تشتد وتسيل، تميل وتنتصب، تعتدل وتنحني بأمر النغم.

تفجَّر جسمي مع انفجار العالم.

أهذه مرثية سنتمنتالية لامعنى لها؟

أم هي، منّي، مجرد وقوفٍ على حافة المرثية؟

هأنذا لا أخجل من دموعي إذ أودّعك، كما لم أخجل منذ خمسة عشر عاما، في طائرة إيرفرانس، أبكي في الجوّ الدافئ مصنوع الترف الرثّ واللياقة المحسوبة، إذ عدت بعد أن عرفت نعيمك إلى نعمتي الدائمة، منقوصَةٍ شأن كل النعم الباقية، مفتوحة لاكمال لها، أما أنت بمجرد كونك نعماء عَرَضية عابرة - مهما كَملت - فأنت خالدة.. الخلود أيضا كلمة كبيرة ولكنها ليست سخيفة تماما. إن ذلك يعطيك عمقاً وكمالاً نهائياً كلمعِ البروق الخاطفة في عنان سماواتٍ لاعبور إلى حافتها الملتبسة.

يقين العطش هل هو يقين الفناء وتحدي الفناء معا؟ أين أنت يارامة ياحبيبة العمر؟ لماذا هجرتني؟ ألأنني هجرتك؟ لم يخلُ قلبي - وروحي - من عشقك لحظة واحدة، أيا كانت التباسات جسدك المطعون الخصيب. ليس هذا وَهم الرومانتيكية، هو فقط واقع، ولعله واقع عذب مرير معا. هل نسيتني رامة؟ أسقطتني من حياتك حقا؟ لن ألومك إذا فعلت، طبعا، ولكن هل أملك إلا أن يجتاحني الألم، كَما اجتاحني دائما، عاصفاً مدمّرا أحيانا، وكامنا رابضا في كل الأحوال؟

رَقَصَتْ على سفح الهرم الكبير. قدماها حافيتان على السجادة الأفغانية، تنتقلان بخفة وإيقاع سريع ولكن غير متعجّل ومحكومِ التراوح تغوصان في وبر السجاد وترتفعان عن خشونة الجرانيت المتكسر شظايا، كرومُ العنب الأسود تتدلى عناقيدها الحبلى ضروعاً مترعة مزّة ومسكرة تنزّ بندى النشوة المحجوز، القمر في عز الظهر وحشياً وغير مستأنس يسطع قرصاً كامل الاستدارة يعرف أنه لاجدوي من نوره وهو مع ذلك في كبد هذه السماء الضارية، عينه غير رحيمة، يسقط أثقال نوره عليها وعلى موج

البحر الغائر الذي خفَت هديره الآن، ترقص رقصتها التي لاتتم أبداً، تموّجات جسدها تغمرني وتنحسر عني وهي تميل عليّ بالإيشارب الحريري المشتعل تؤدي إيماءات العناق بذراعين سماويين متعددتين، أذرع «كالي» الكثيرة، لا نهائيةً في دورانها حولي، تحيطني وتبارحني، تطوقني وتطلق عنان أحلامي وأهوائي المتفرقة المتوزعة بدَدا، تقلبت في عذابات الطلب ولم أجد راحة، رقصتها تتمادى وهي واقفة بالباب بين غرفة المشربية الساطعة وغرفة الوحش الموسيقيّ الذي منه هاجت بي نزوات مراثي إرميا الموجعة، لا تتحرك إلا أهون حركة، اهتزاز رعشة لاتكاد ترى تسري في أوصال الحضور القائم أمامي، الجسد الشامخ ينبض مع موسيقى غير مسموعة، يتوحد بها، مغوياً ومنذراً في آن واحد. كيف تكون رقصتها كاملة– وهي لم تتم؟ كاملة، وهي لاتحير حراكاً؟ كيف تتم رقصة لم تبدأ، ولا نهاية لها؟

لوعة هذا الحب لاتنقضي ولاتنحسر.

لماذا؟ نعم لماذا، وأنا أملك– نعم أملك– حباً راسخاً، حبّ بناء العمر؟ لماذا الأخيلة محرقة؟ لماذا أرتمي بين أحضان بقايا الأماني البائدة؟ ألأنها لم تبدُ حقا، قط؟ لكن العمر نفسه قد باد.

تحت أعمدة اللوتس الرمادية، وصيحات الهيروغليفيّة بحبّ الحياة، تحت سقف فرعوني الزرقة تبرق فيه نجوم حادة مثل إبر اليورانيوم في صخور اليمّ الغائر المحيق، رقصتها.

كانت وعدتني أن ترقص لي، وحدي. قالت إنها ستأتي معها ببدلة الرقص، ببهجة الحياة الحقة، ثم عادت فقالت: آتي مع صديقتي أوديت، ونسيم هل تعرفه؟ قلت: لا، سمعت عنه وعن أبحاثه في موضوع معبد موت. قالت: دمِث وعطوف وخجول أيضا. فلم أعلق. قالت: عندما أرقص

أحس بالحياة. غير ذلك موات وبور. دمي يتدفق فعلا، أغيب عن دنيا المصالح والغايات الأنانيّة- هكذا قالت- وأعرف نشوة خالصة لاحساب فيها لشيء ولا لأحد. قالت الجسد العاري مقدّس.

كانت قد أغوت غفير المعبد، في سقّارة، بحلو الكلام وورقتين بنكنوت أخرجتهما من صدرها بحركة بنت البلد النسوية العريقة، خرج، أغلق عليها الباب الخارجي، وعلّق أمام السياج في النهار القائظ لافتة «مغلق اليوم» بالإنجليزية والألمانية أيضا.

من وراء القناع الأسود، من وراء جدار سميك ليست فيه إلا كوّة مربعة، أرى رقصتها. عيناي غير المرئيتين تمتعان بجسمها الأملود الذي قالت إنها تغترب عنه قليلاً قليلاً، إذ تفاجأ في الصبح أنه قد تهدل هنا، أو ترهل قليلاً هناك، أنه أخذ يجفّ شيئاً ما لكنها تحسه كما كان دائماً وكما هو دائماً، وأحسه معها، غضاً، نضراً، في كل ريعانه.

كان جسدها طاهراً تحت أعين الآلهة، في حمَى المَلك الميّت الذي لم يفارق نعماء الحياة، حوله ولائم قرابين العجول المسمّنة، وإليه أتت، بخطى موقّعة ناعمة الموسيقى، حافيةً وعارية، مع النساء حاملات جرار النبيذ، عاريات النهود، لايربط وسطها إلا شريط رفيع يدور بخفة حول الخصر وبين الردفين، الأزهار الحجرية يانعة حولها، وعلى صدورهن، غضة التلوين، والبطّ والوزّ يتدأدأ معهن، يزعق فجأة زعقة البهجة، جسمها الأسمر الممشوق ينزلق، على هينة، إلى نغم أخروي لايسمعه إلاّها، رقصة موعودة لي لم تتحقق قط رغم تهدّجات صوتها: أنا أحبك.

وأنا أيضا.

قلت: لن نؤذي أحداً.

هل تخليتُ عنكِ لأنك أنتِ تخليتِ عني؟

لأن الإيذاء كان ضروريا، وكان -ومازال- غير محتمل ولايطاق؟

لم يكن ذلك مجرد تجنُّب الإيذاء.

كان ذلك مني تعلّقا أساسياً أكثر رسوخاً من أي شيء آخر.

أما رئيس الملائكة فمازال يرقبني بعينه الرائية التي لا تغمض، مفتوحة أبد الدهر، حيّة ونابضة في وسط درعه، تحدّق بلا انتهاء، تدحض الشياطين ولكن لاتبيدها، تهزم التنانين لكن لاتقتلها. وما من وسيلة لإغماض هذه العين وما من وسيلة للمفرّ من رؤيتها الدائمة، هأنذا عارٍ أمام النظرة التي لاتحيد.

وها أنتَ - إن كنت هناك حقا- فارحمني. ارحمني. أما كفاك تعذيباً.

ليس بعد يقين العطش من جحيم. ليس في قدرتك ما هو أشد هولاً من هذه الجحيم. وأنا إذ مجّدتك وجحدتك فقد حقّت عليّ اللعنة بهذا النعيم.

ومع أنني أتهاوَى، فهأنذا- كما كنتُ دائماً- داخل أسوار الروح، أسوار الحب القديمة.

٤ نسيء ١٧١١

٩ سبتمبر ١٩٩٥

تنويه

ثَمّ نصوص جاءت بين قوسين صغيرين، هي إمّا نصوص مأثورة من الشعر أو من تراث الصوفية، وإما مقتطعات من صحفٍ يومية وأهمها روز اليوسف، والأهرام، والأهالي، والأخبار، لم أر حاجة إلى توثيقها أي إرجاعها إلى أصولها بالتحديد، إذ أنها قد اندمجت في نصّ هذه الرواية وأصبحت جزءاً من نسيجها الخاص.

المحتويات

الفصل الأول: الرقصة التي لم تتم ٩
الفصل الثاني: دخان معلّق في الهواء ٣٧
الفصل الثالث: جسد ملتبس ٦٧
الفصل الرابع: رمح مكسور ٩٩
الفصل الخامس: جسد طعين ١٣٥
الفصل السادس: عينان مفتوحتان في العتمة ١٩٦
الفصل السابع: جسد غامض الوضاءة ٢٠١
الفصل الثامن: القناع الأبنوس الأسود ٢٣٧
الفصل التاسع: يقين العطش ٢٧١

❖

مطابع انترناشيونال برس ت : ٢٤٧٤٢٥٩

لو رُويت حتى الغصن
ما ازددتُ إلاَّ يقيناً بعطشي المقيم

«يقين العطش» رواية إدوار الخراط التي تكمل مسيرة «رامة والتنين» و«الزمن الآخر» وتنهل من المتعات المباحة والمحرمة، وتواجه أسئلة المصير. رواية الوقوف بصلابة، والشهوات العارمة، والعشق المقيم والتطلع إلي المستقبل رغم الهزائم والطعنات التي تصيب جسد الوطن وأجساد الأبطال معاً.

هل هنا «دون كيشوت» المحارب عن قضايا عفا عليها الزمن؟

أم دون جوان العاشق الأبدي الذي لا يبرأ من حب امرأته الأسطورية الواحدة المتعددة؟

على خلفية الأحداث الدامية التي تهدد وحدة الوطن وهويّته بالتصدع ولكنها لاتكسرها أبداً، تدور الرواية بما تحمل من شجن وتمرّد وتأملات، وتجسّم استمرارية الحب والعقل والتنوير وأسئلة العطش إلى اليقين، في مواجهة العنف الأعمى وحُمق التعصب وظلام الردة الحضارية.
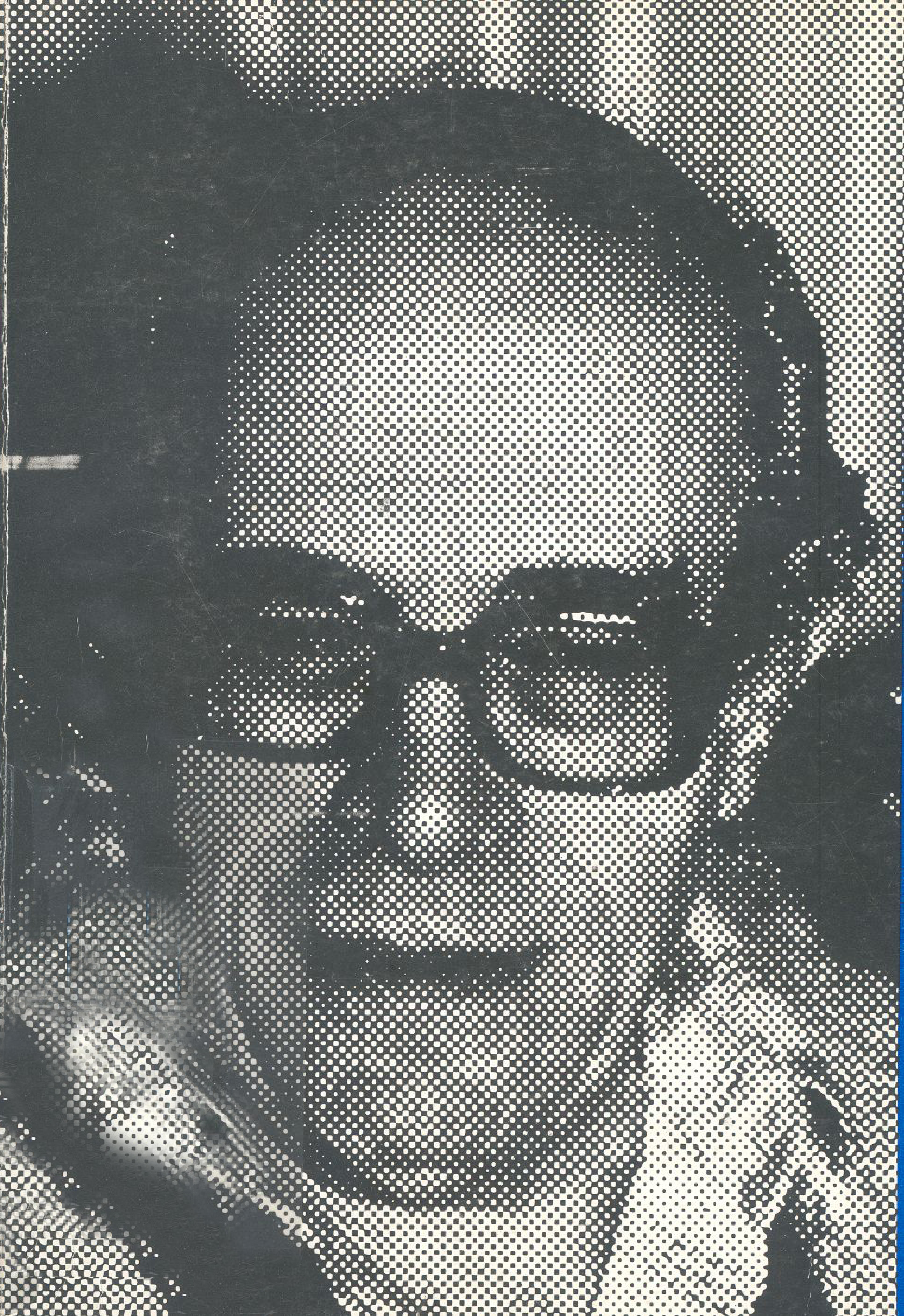
دار شرقيات للنشر و التوزيع